المدن المصرية
وتطوراتها مع العصور
مجموعة فنية تاريخية
المجلد الرابع

القاهرة
(٢)



تاريخ المدن القديمة ودليل المدينة الحديثة

١٩٤٤

فؤاد فرج
مهندس بالبلديات بمصر

ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

*

تصدير

يسرني أن أسجل على هذه الصفحات آراء الكتّاب والجرائد وقادة الفكر فى الجزء الأول من كتاب « القاهرة » الذى ظهر فى ٧ رمضان الماضى سنة ١٣٦٢ هـ تحية لعيد عاصمة المملكة المصرية الألفى ؟

المؤلف

رأى مجلة هدى الإسلام :

نشرت مجلة « هدى الإسلام » فى العدد ٤٧ من السنة التاسعة الصادر يوم الخميس ١٤ اكتوبر سنة ١٩٤٣ بقلم الأستاذ حسن قاسم مدير المجلة تحت عنوان « المدن المصرية » — « القاهرة » ما يأتى :

القاهرة هى المدينة العظمى ونهاية العواصم المصرية ، ولها تاريخ حافل مجيد ، وماض زاهر — بيد أنه محفوف بشىء من الغموض — و بالرغم من هذا الستار الكثيف الذى أسدل عليها ولم يستطع الباحثون كشفه حتى هذه الساعة ، فقد اشترك فى الكتابة عن تاريخها من نواحٍ شتى ، العدد الكثير من الكاتبين ، وهم على اختلاف منازعهم ومشاربهم يقصدون وجهة واحدة هى (القاهرة) دار الخلافة الإسلامية ، ونهاية العواصم المصرية . ففريق تصدى للكتابة عن تراجم من أنجبت من علماء وأدباء وأمراء وكتاب فى كل عصورها الماضية . وفريق كتب عن حياة مؤسسيها ونحلتهم وسياستهم إلى غير ذلك . وفريق نحا ناحية تخطيطها فذكر معالمها وآثارها إلى غير ذلك مما لها من تاريخ عمرانى مجيد تطور بدورة الزمن . وفريق وقف قلمه عند هذا الستار الكثيف الذى أسدل عليها زهاء عشرة قرون كاملة ، فطرق باب الكتابة عن الأسباب الصحيحة التى من أجلها تسمت بالقاهرة ، ومن أجلها اختيرت لها هذه المنطقة مع بعد الشقة بينها و بين الفسطاط والعسكر والقطائع ، وهى العواصم التى سبقتها وكان لها شأواً بعيداً فى الحضارة والتمدن ، وأين هى العواصم التى سبقتها ، ومن أسسها ، وما يحيط بها من ضواحٍ ومدن ، وطبيعة أرضها ومناخها ، وتحول نيلها وآثار أممها السابقة ، إلى غير هذه النواحى التى يجدر بالكاتبين فى تاريخ القاهرة أن يبحثوها على ضوء العلم الصحيح ، هذا بوصف ما غبر من تاريخها ، وأما الحاضر منه ، فهذا ما لا يحيط به إلا كاتب واسع الاطلاع ، فيستطيع أن يكتب عن مدى عمرانها وعن التطورات الزمنية التى تسير بالقاهرة بخطى سريعة فتحولها من صورة محدودة النطاق إلى صورة أوسع مدى وأكثر عمراناً ؛ والمجال فى هذه الحقبة مترامى الأطراف متشعب النواحى ، ولا يحيط به كما قلنا إلا كاتب قدير .

هذه النواحى من تاريخ القاهرة العظمى — كما كانت تسميها دول أوربا فى عصورها الماضية — كانت تجيش

فى نفسى ، وأتمنى أن لو يحقق الله هذه الفكرة بهمة من تصدى للكتابة عن القاهرة من الكتاب المعاصرين ؛ لكن شيئاً من هذا لم يظهر ، تتحق معه هذه الأمنية .

حتى ظهر كتاب (القاهرة) للأستاذ فؤاد فرج المهندس بإدارة البلديات ، فأخذت أتصفح الكتاب ، ثم استوعبته قراءة ودرساً ، و إذ ذاك شعرت بأن الأستاذ قد وفق إلى ما كانت تصبو إليه نفس كل باحث فى تاريخ القاهرة ، ذلك لأن تاريخ القاهرة بوضعه الحالى مبتور أقطع ، ويجب أن يوصل لتتم الحلقة المفقودة منه .

وهذا ما تصدى له الأستاذ فؤاد فرج فى كتابه هذا ، ففى الجزء الأول منه الذى صدر فى ٢٠٠ ص يزينها ١١٣ صورة من الصور المختلفة التى يربطها بصلة تاريخ القاهرة رباط وثيق ، قد بحث هذه الحلقة المفقودة ؛ فأظهرها فى بسط من القول وتحقيق دقيق لم يضطلع به سواه ، فى إثنى عشر فصلا ، عن عواصم القطر المصرى فى العصور المختلفة وعن موقع مدينة القاهرة من الناحية الطبيعية ، وعن صحراوات القاهرة ، ووديانها ، ومقطمها ، وعن ضواحيها : حلوان المدينة الصحية العظيمة ، وهى الوطن الثانى لكاتب هذا المقال ، ثم مرفأ طرا وشهران (المعصرة حالياً) وهى القرية المشهورة بمعاصرها العظيمة فيما غبر من الزمان ؛ ثم منية السودان (المعادى حالياً) وهى القرية الطولونية ، إحدى القرى المصرية القديمة التى أقطعها أحمد بن طولون لاثنى عشر ألفاً من غلمانه السود ، فعرفت بهم بعد تسميتها بالعدوية (سيدة من الطائفة النسطورية) وتعرف الآن بمعادى الخبيرى نسبة إلى الريس حسين بن حماد الخبيرى المستشهد فى يوم الأحد ٤ من المحرم سنة ١٢٢٤هـ . وقد انشطرت هذه القرية إلى شطرين : القسم الشرقى وهو سكن الطبقات الراقية ، و يتصل من شماليه بقرية بساتين الوزير و ببعض أرض بركة المعافر (الحبش) ، والقسم الغربى ويقع على النيل مباشرة ، وهو سكن الطبقات الفقيرة والمتوسطة . ثم ذكر قرية دير مارى حنا (دير الطين حالياً) وهى القرية التى اشتهرت بتصدير الطين الأصفر لعمل الخزف بمصانع العدوية (المعادى) وغيرها — و به عرفت منذ عهد سحيق إلى غير ذلك من المباحث التى لا تجدها فى كتاب غير مؤلف « الأستاذ فؤاد فرج » .

وهذا الجزء بمجموع ما فيه مما أشرنا إليه فى هذه العجالة الصحفية ، يعتبر كمدخل للأجزاء التالية . وسيتناول الجزء الثانى الكلام عن عواصم مصر : الفسطاط ، العسكر ، القطائع وسواها . ويخصص الجزء الثالث للناحية العمرانية وغيرها فى القاهرة من أقدم عصورها حتى الآن .

وستكوّن من مجموع هذه الأجزاء الثلاثة ، سفر عظيم عن (القاهرة) سيبقى أثراً خالداً تعتز به الأجيال القادمة .

والقاهرة من الناحية العمرانية غنية بهذا التراث فمجموع ما تبقى لدينا من آثارها وعددها حول ٦٠٠ أثر من ألف أو تزيد ، قد جعل منها مدينة مقدسة ذات حرمة ومهابة .

ثم دارت دورة الزمان عليها . فبلغت مبلغاً عالياً من التقدم والسعة .

وهذا ما دعانا لأن نفرد لهذا الباب بنوع خاص مؤلفا ضخما فى اثنى عشر جزءا أستوعبنا فيه كل ما يتعلق بالقاهرة من الناحية الطبوغرافية والأثرية وصححنا به أغلاط من كتب فى هذه المباحث منذ عصر المقريزى حتى اليوم ، مستدركين ما فات على الكاتبين مما جهل أو غمض عنهم من هذه المعالم والآثار ، بصورة بسطنا فيها القول وأوسعنا المدى .

فكتاب (**القاهرة**) إذ يأتى اليوم محققاً لفكرتنا ، قد أدى فيه الأستاذ فؤاد فرج مجهوده خير أداء ، وليس بدعاً أن يوفق الأستاذ فى كتابه هـذا ، فقد وفق فى كتابيه (**الإسكندرية**) و (**منطقة قنال السويس ومدن القنال**) أيما توفيق .

ولقد سدت هذه الكتب فراغا كبيراً ، وأضافت إلى المكتبة العربية ذخراً باقياً وكنزاً ثميناً .

والكتاب مطبوع طبعاً أنيقاً بمطبعة المعارف الشهيرة ، وقد أصدرته فى الوقت المناسب ، فشكر الله سعى القائمين عليها ، وشكر الله الأستاذ فؤاد فرج ، وبيّض وجهه ، فقد ملأ قلبي سروراً بكتابه هذا ؟

حسن قاسم

رأى جريدة المصرى :

ونشرت جريدة « المصرى » الغراء فى عددها الصادر بتاريخ ٦ سبتمبر سنة ١٩٤٣ تحت عنوان : « **العيد الألفى لمدينة القاهرة** » ما يلى :

وضع الأستاذ فؤاد فرج المهندس بادارة البلديات كتابه الثالث عن « المدن المصرية » وقد عنى فى هذا الكتاب خاصة « بالقاهرة » عاصمة الديار المصرية فتناول فيه بالبحث والتفصيل الدقيق عواصم القطر المصرى قديماً ومقارها ومؤسسيها وما لعبته هذه العواصم من أدوار فى تاريخ مصر القديم مستنداً فى بحوثه الممتعة إلى عهد التاريخ العربى والأفرنجى وثقاته مستعيناً بالخرائط والرسوم ولوحات الآثار المودعة كثيراً من المتاحف وقد عقد لذلك إثنى عشر فصلا تناول فيها وادى النيل من أقصاه إلى أقصاه .

وقد جاء فيه عن العيد الألفى لمدينة القاهرة أنه ينعقد صحيحاً فى يوم ٧ من رمضان الحالى سنة ١٣٦٢ هـ (٧ سبتمبر سنة ١٩٤٣) لأن القاهرة المعزية لم تعتبر عاصمة الدولة الفاطمية إلا بعد أن اكتملت فيها عناصر ثلاثة : أولها المنشئات الدينية والسياسية والمدنية ، وثانيها ، الملك ، وثالثها ، الشعب . ولا عبرة بتاريخ ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ الذى بدأ جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى فى وضع أساسها فيه لأن العواصم لا تقوم إلا على الاعتبارات السابقة لا على تاريخ الانشاء .

وقد عرض المؤلف فى بحث من بحوثه لمسألة خلو المدينة من بلدية تنظم شئونها ، وتعنى بعمرانها ، مع اتساعها

و بلوغها منزلة رفيعة بين مدن العالم ، وعجب لهذا التخليط والتنافى البادى فى تخطيط جاردن ستى، والزمالك ، وقيام عمارات شاهقة بجوار فلات متواضعة مما يتنافى مع مظاهر الجمال والذوق والفن معاً .

ومن طريف ما عرض له الدعوة إلى إنشاء مصيف فى القاهرة للعمال ومتوسطى الحال يقوم على الطريق البديع الممتد على النيل من مصر القديمة حتى حلوان ، وهو عمل سهل لا يكلف الحكومة جهداً كبيراً ولا عناء عظيما فضلا عن أنه يجعل هذا النهر الحزين الكئيب مرحا سعيداً كنهر الدانوب فى فينَّا ولا ينهض بمثل هذا العمل الفنى الكبير إلا (مجلس بلدى) .

رأى جريدة المقطم

ونشرت جريدة « المقطم » الغراء فى عددها الصادر بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٤٣ تحت عنوان : « **القاهرة فى ألف عام** » ما يلى :

عنيت مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر بتسجيل تحيتها الطيبة للقاهرة عاصمة المملكة المصرية اليوم ٧ رمضان سنة ١٣٦٢ بمناسبة عيدها الألفى لأن العاصمة أنشئت فى مثل هذا اليوم منذ الف عام فاصدرت كتاب « القاهرة » لمؤلفه البارع الأستاذ فؤاد فرج المهندس بالبلديات بمصر فى حلة جميلة وعناية فائقة .

ولقد أجلنا الطرف فى هذا السفر النفيس فوجدنا صاحبه المفضال جهزه بخير المواد وأدق البحوث ورجع إلى ٨٦ مصدراً عربيا و٦٨ مصدراً إفرنجيا فجاء متحليا بالاتقان والإجادة وقسمه إلى ١٢ فصلا فيها وصف دقيق لعواصم المملكة المصرية فى العصور المختلفة وموقع القاهرة جيولوجيا والصحراء الغربية أو صحراء ليبيا وغور القطارة ووادى النطرون والصحراء الشرقية أو صحراء العرب وما فيها من معادن ، وجبل المقطم ، ومحاجر طره ، والمعصرة ، وصناعة الأسمنت ، وعيون حلوان المعدنية ، وحلوان البلد ، وحلوان الحمامات ، وتأثير سكة الحديد فيها الخ .

وصدر الكتاب بصورة وسيمة لجلالة الملك وزين بكثير من الصور التى استلزمها البحث فجاء كتاب (**القاهرة**) هذا تحفة فنية تفخر بها المكتبة العربية .

وعنيت مطبعة المعارف بالفجالة بمصر باصداره بالاتقان اللائق وجعلت ثمنه ٥٠ قرشا فنوجه إليه الأنظار .

رأى جريدة الأهرام

ونشرت جريدة « الأهرام » الغراء فى عددها الصادر بتاريخ ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٣ تحت عنوان : « **مدينة القاهرة ٧ رمضان ٣٦٢ — ١٣٦٢ هجرية** » ما يلى :

تلقينا من الأستاذ فؤاد فرج المهندس بإدارة البلديات العامة ومؤلف سلسلة كتب « المدن المصرية » كلمة لمناسبة مرور ألف عام على اتخاذ القاهرة عاصمة سياسية لمصر ، قال فيها :

فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ قدم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى من بلاد المغرب ، بعد رحلة طويلة شاقة ونزل فى القصر الكبير الذى أعده لنزوله فى القاهرة قائده المحنك جوهر الصقلى .

لم يكن قد مضى على إنشاء القاهرة — تلك المدينة الجديدة التى أنشأها جوهر فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، غداة فتح مصر واختراق جيوشه لمدينة الفسطاط — إلا أربع سنوات كاملة ، ومع ذلك ظهرت أمام أعين المعز ، كأنم ما تكون مدينة ملكية حسنا ورونقا .

ولقد كان يبدو فى اختيار موقع هذه المدينة ، وفى تخطيط شوارعها وميادينها ، وفى اختيار موقع القصر الكبير وطريقة بنائه ، وفى توزيع الحارات أو الأحياء الجديدة بين وحدات الجيش الفاطمى المختلفة الأجناس والمشارب ، وكذلك فى اختيار موقع جامع القاهرة إلى جوار مقر الحاكم ، وهو الذى سمى فيما بعد الجامع الأزهر ، وكان أهم منشآت العاصمة الجديدة دينياً وسياسياً ، كان يبدو فى هذا كله أن جوهر الصقلى لم يكن مجرد قائد عسكرى وحسب ، بل كان فوق ذلك مهندساً مبدعاً وفناناً اجتماعياً .

قلنا إن المعز قدم فى يوم ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ ونزل فى القصر الكبير وتولى شئون مملكته الجديدة بنفسه وعند ذلك فقط ، أصبحت القاهرة عاصمة البلاد السياسية ومقر الخلافة الإسلامية . وبذلك تكون القاهرة قد ساخت اليوم — ٧ رمضان ١٣٦٢ — ألف عام هجرى من عمرها ، وهى العاصمة السياسية للبلاد .

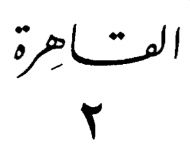
وقد أهدى إلينا الأستاذ فؤاد فرج ، لهذه المناسبة ، الجزء الأول من كتابه « **القاهرة** » ، الذى اعتزم إصداره فى ثلاثة أجزاء .

وهو يشتمل على اثنى عشر فصلا ، أفرد فصلا منها للحديث عن عواصم مصر وتاريخها ، هذا إلى دراسة دقيقة لموقعها ، والظواهر والعناصر الطبيعية التى تتعلق بها . ثم أورد دراسة وافية لمدينة حلوان ووصف البلاد الواقعة بينها وبين القاهرة . واختتم كتابه ببحث فى تنقل مراكز العواصم المصرية القديمة ، تبعاً لتطورات حالة النهر وانتقالات رأس الدلتا .

وقد أخرجت مطبعة « المعارف » هذا الكتاب فى ثوب قشيب ، مزدان بالصور والخرائط ، تحية منها لعاصمة المملكة المصرية فى مناسبة عيدها الألفى .

ويقع الكتاب فى ٢٠٠ صفحة من الورق الجيد المصقول .

بسم الله العلى الكبير أفتتح كتابى الرابع



مقــــدمة الجزء الثانى

ظهر الجزء الأول من كتاب « القاهرة » فى ٧ رمضان الماضى سنة ١٣٦٢ ه ، تحية لعيد عاصمة المملكة المصرية الألفى .

وطبيعى أنه ما دام موضوعنا هو « المدن المصرية » وما دمنا نتكلم عن مدينة « القاهرة » فأول ما كان يجب علينا ، هو دراسة المنطقة التى نشأت فيها هذه المدينة !

خصصنا الجزء الأول من هذا الكتاب لدراسة منطقة القاهرة وچيولوچيتها والصحراوات المحيطة بها ومقطمها وغاباتها المتحجرة ووديانها ونيلها الخ الخ . . . .

أما الجزء الثانى ، وهو موضوع كتابنا الحالى ، فقد خصصناه ، كما قلنا فى مقدمة الجزء الأول ، لدراسة العواصم القديمة التى قامت فى هذه المنطقة قبل القاهرة مع ذكر ما امتازت به حضارات تلك العواصم وثقافاتها من ظواهر كان لها أثرها الاجتماعى الواضح فى حياة عاصمتنا الخالدة .

ثم خصصنا الجزء الثالث لدراسة مدينة « القاهرة » بمعناها التاريخى وتتبع تطوراتها من يوم إنشائها إلى الآن .

ولما كان كتاب «القاهرة» بأجزائه الثلاثة وحدة وثيقة الارتباط ، يتمم بعضها البعض ، فإن المراجع التى ذكرت فى صدر الجزء الأول من هذا الكتاب كانت بالطبع هى مراجع الأجزاء الثلاثة . وإذا كنا وضعناها هناك بدون ترتيب خاص فإننا نعيدها هنا معدلة ومنسقة ومرتبة طبقاً للحروف الأبجدية كرغبة الكثيرين من أصدقائنا الكرام .

ولا يفوتنى هنا أن أقرر أنى توسعت عن قصد فى دراسة الظواهر الطبيعية المحيطة بمدينة القاهرة وفى موارد الثروة الموجودة بها وفى دراسة حلوان وضواحيها والكنوز الهائلة الكامنة فى جوفها ، وسأستمر فى إبراز هذا الجانب من موارد بلادنا الطبيعية وذلك لألفت النظر إلى ناحية من نواحى الثقافة التى ننشدها للشباب المصرى ليتطلع إلى الأعمال الحرة فى مستقبل حياته ، لأنه إذا ما ألمّ إلماماً طيباً بما تحويه بلاده من هذه الموارد ، وإذا ما تعلم طرق استغلالها ، وعرف ما تدرّه من ثروات هائلة على المشتغلين بها ، لا شك أنه سيقبل عليها فى مستقبل حياته العملية ويستفيد منها أيما فائدة .

وإنى أرجو صادقاً أن يكون فى عملى هذا ما يحفز رجال وزارة المعارف العمومية على تقرير مادة « جغرافية المدن التاريخية » Geographie Urbaine كمادة أساسية فى التعليم ، تدون فى كتبنا المدرسية ، وتعمم فى معاهدنا ومدارسنا ، لما يترتب على ذلك من فتح أبواب رزق واسعة فى المستقبل ، وإعداد طرق ممهدة للعمل الحر المثمر أمام الألوف من رجال مصر المتعلمين .

وإليك مثلاً ما وصلت إليه فى دراستى لإحدى الظواهر الطبيعية المحيطة بمدينة القاهرة ، فمجرد رفع مياه النيل العذبة فوق جبل المقطم يكفى لتجميل هذا الجبل ولإنشاء مدينة صحية فوق أسناده ، وزرع غابات جميلة فوق أنجاده ، وتحويله من جبل صخرى قاحل إلى حدائق غناء ، وإلى مدينة مرتفعة Super-Town تشرف من علٍ على النهر والوادى والأهرام ، وتضارع فى جمالها وتخطيطها ونظامها ومبانيها وفنادقها وملاهيها أفخر وأبدع المدن الجبلية الشهيرة فى العالم .

مكان بديع فوق جبل المقطم
يصلح لإنشاء مدينة صحية وغابات جميلة ومصيف جذاب بالقاهرة ! !

وكم فى هذا المشروع وحده من جهود تستنفد نشاط الشباب المتعلم لمدة جيل كامل ، ومن ثروات تتدفق على من يعمل فى مجاله المتسع ! !

وإليك الآن بيان هذا المشروع .

مشروع تجميل جبل المقطم

يبلغ عدد سكان القاهرة الآن طبقاً للاحصائيات الرسمية مليوناً ونصف مليون نسمة ، ولكن هذه الإحصائيات لا تتضمن عاملين مهمين يعملان باستمرار فى زيادة عدد سكان القاهرة :

العامل الأول — هو الزيادة الناتجة من تقاطر العمال الذين جاءوا من الريف ليشتغلوا فى الصناعات الحربيـة التى خلقتها الحرب الحاضرة واحتياجات الجيوش التى تستعمل الآلات الميكانيكية المتحركة .

والعامل الثانى — هو الزيادة الناتجة من وجود السكان الذين هاجروا من المدن الأخرى أثناء الغارات الجوية وأقاموا نهائياً فى القاهرة .

وبما أنه من المنظور أن هؤلاء وأولئك سيظلون فى العاصمة حتى بعد أن تضع الحرب أوزارها ، كما أنه من المنظور أن تتحول هذه الصناعات الحربية إلى صناعات مدنية للتعمير بعد الحرب ، وسيظل يشتغل فيها هؤلاء العمال ، فلابد إذن من إضافة عددهم إلى عدد سكان المدينة الحالية ، وبذلك يصبح عدد سكان القاهرة الآن حوالى مليونى نسمة .

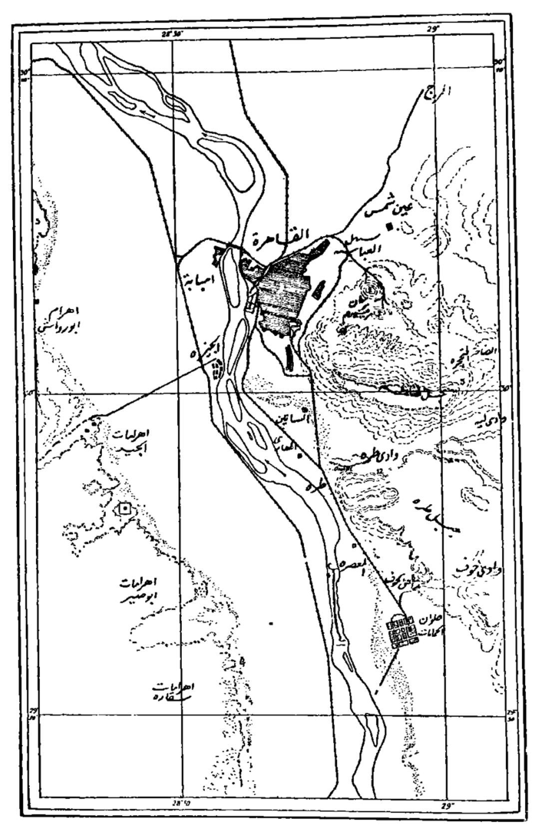
وتبدو القاهرة اليوم على اتساعها المفرط ومساحتها الهائلة وقدرها ٤٠ ألف فدان مكتظة اكتظاظاً هائلاً بهذين المليونين من السكان . فليس هناك مكان خال فى طريق أو مبنى ولا فى سيارة عمومية ولا فى ترام ولا فى قطار من قطارات الضواحى .

فاذا استمرت الزيادة فى عدد السكان تسير بالنسبة التى هى عليها الآن ، سيبلغ عدد سكان هذه العاصمة أربعة ملايين نسمة فى سنة ١٩٦٠ أى فى أقل من عشرين عاماً .

فأين تذهب هذه الزيادة ، وما مصير هذه العاصمة ؟

يمتد العمار بمدينة القاهرة الآن فى خمسة اتجاهات مختلفة :

أولاً — فى الاتجاه الشمالى الشرقى نحو العباسية ومصر الجديدة وقد كادت هذه المناطق يتصل بعضها ببعض من تلاحق المبانى واتساع العمران .



خريطة لبيان اتجاهات العمار الخمسة بمدينة القاهرة

ثانياً — فى الاتجاه الشمالى نحو شبرا الخيمة المعروفة أيضاً باسم شبرا البلد وقد كادت المبانى تصل إلى فم ترعة الإسماعيلية .

ثالثاً — فى الاتجاه الغربى نحو الدقى وقد كادت المبانى تصل إلى مبنى وزارة الزراعة ومتحف فؤاد الأول الزراعى . وسوف تمتد إلى مدينة الأوقاف الجديدة — مدينة الزهور والنور والشمس الساطعة .

رابعاً — فى الاتجاه الجنوبى الغربى نحو جزيرة الروضة والجيزة والأهرام وقد كادت المبانى تصل إلى نهاية هذه المناطق .

خامساً — فى الاتجاه الجنوبى نحو المعادى والمعصرة وحلوان ، ولا زال هناك مجال لامتداد العمران فى هذا الاتجاه .

ولكن هل تكفى هذه الامتدادات الخمسة لاستيعاب الزيادة الهائلة المنظورة فى سكان القاهرة ؟ أو بعبارة أخرى ، هل تتسع المساحات الفضاء الباقية بهذه الضواحى لضعف عدد السكان الحاليين فى ظرف العشرين سنة المقبلة مع مراعاة الاحتياجات الصحية وأسباب الراحة والرفاهية المطلوبة فى المبانى الحديثة ؟

من الصعب جداً الرد على هذا السؤال .

ولكن من المؤكد أننا إذا فكرنا فى الاتجاه الطبيعى لامتداد العمار فى القاهرة وهو الاتجاه الشرقى .

إذا فكرنا فى اقتحام جبل المقطم الذى يقف حجرة عثرة فى سبيل هذا الامتداد .

إذا فكرنا فى ارتقاء مدرجات جبل المقطم وفى إنشاء مدينة صحية فوق أسناد هذا الجبل ، لأضفنا إلى أحياء القاهرة الممتازة ، حيا جديداً ، نقى الهواء ، صافياً ، خالياً من الغبار والقاذورات ، يشرف من علٍ على النهر والوادى والأهرام والصحراء ويتسع لملايين من السكان .

ويخيل لنا إن أنجاد الجبل ومرتفعاته أوفق وأصلح مكان لتحقيق الاتجاه الجديد الملاحظ فى العمارات الحديثة بالقاهرة وهو الخاص بإنشاء الحدائق السطوحية «Roof Gardens» فوق أسطح

العمارات الشاهقة مثل عمارة الجنفواز وعمارة توفيق دوس باشا وعمارة الأنيون دى باريس وسواها .

فالجبل ، بطبيعة مسطحاته المتسعة العالية حديقة سطح طبيعية لا تحتاج إلا لتمهيد طرق بسيطة تتصل بشوارع القاهرة الحالية . وهذا أمر سهل ، بل الواقع أن هذه الطرق موجودة فعلا الآن ، أوجدتهـا احتياجات الحرب الحاضرة وحركات الجيوش المحاربة التى مهدت مفاوز الجبل ودروبه واخترقتها فى كل اتجاه وأوصلتها بشوارع العاصمة .

فمدينة المقطم إذن ليست إلا امتداداً طبيعياً للعمران فى القاهرة تفى باحتياجات المستقبل لعاصمة القطر المصرى فى العشرين سنة المقبلة وما يليها .

ومجرد رفع مياه النيل العذبة بواسطة الطلمبات الحديثة ، ذات الضغط العالى ، فوق الجبل ، يحوّل هذا الجبل من صخور قاحلة جرداء إلى جنان وحدائق وغابات ، وذلك فى المناطق المشرفة على المقابر والجبانات ، كتلك التى تطل على الإمام الشافعى وباب الوزير والخفير .

أما المرتفعات الجبلية المشرفة على الوادى والنهر والأهرام والممتدة من مصر القـديمة إلى العباسية فتصلح جداً لإنشاء مدينة جبلية مرتفعة Super-Town تتصل بشوارع القاهرة عند نفق دير النحاس المقابل لكوبرى الملك الصالح بمصر القديمة وعند القلعة وعند العباسية بواسطة خطوط السيارات العامة ، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها أمكن إنشاء خطوط هوائية للسكك الحديد الجبلية تربط هذه المدينة الناشئة بنقط مركزية فى قلب العاصمة وتوصلها بها فى دقائق معدودة .

هذا وقد دلت التجارب على أن الأشجار والزراعات الأخرى تنمو فوق الجبل نمواً بديعاً متى وصلت إليها مياه النيل العذبة ، وعلى أن التربة هناك صالحة صلاحية تامة للزراعة ، وهناك مثال حىّ على ذلك فى الأشجار الباسقة المحيطة بجامع المغاورى بجبل المقطم خلف القلعة .

وإنى أترك لتصور رجال الإصلاح ما سيعود على مدينة القاهرة من المنافع بسبب إنشاء هذه المدينة الجبلية :

فأولاً — من جهة تجميل العاصمة ، سوف تختفى صورة هذه الصخور القاحلة وتلك التلال الجرداء الموحشة التى تجعل من المشارف البعيدة لهذه المدينة منظراً صحراوياً منفراً ، وترسم محلها فى الأفق صوراً فيها من الجاذبية والجمال والروعة ما يدهش .

فهنا حيث لا يرى المسافر المقبل على القاهرة من بعيد إلاّ جبلاً صخرياً قاحلاً سوف ترتسم أمام ناظريه ڤيلات وعمارات نخمة تحيط بها الأشجار الباسقة والغابات الجميلة والحدائق الغناء .

هنا حيث لا يرى المسافر المقبل على القاهرة من بعيد إلا تلالاً موحشة تربض فوق صدر المدينة وتكتم أنفاسها وتمنعها من الحركة والانتشار شرقاً ، سوف ترتسم أمام عينيه الفنادق بنوافذها الزرقاء والملاعب بأعلامها الخضراء والملاهى بجاذبيتها الساحرة ، والمآذن بقدها المشوق .

هنا حيث لا يرى المسافر المقبل من بعيد إلا صحراء وفناء وشقاء ، سوف يرى دنيا منيفة وحياة يانعة ونعيماً مقيماً .

وثانياً — أما من الوجهة الصحية فسوف تتخلص القاهرة بهذا المشروع مما ينتشر فى أجوائها أيام الخماسين ، من الرمال السافية التى تسد الأنفاس وتقبض الصدور ، سوف تتخلص من هبوب الصحراء الملتهبة وحرارتها المحرقة التى تلحف الوجوه صيفاً ، سوف يتمتع من يرقى مرتفعات هذا الجبل صيفاً فى ظلال الغابات المورقة بنسيم منعش لا يتوفر فى الوادى ، ويستنشق هواء صحياً صافياً خالياً من الغبار والميكروبات ، وبدرجة حرارة منخفضة عن درجة حرارة الوادى . سوف يشفق وهو فوق هذه المرتفعات الصحية على سكان الوادى المعرضين لكل أنواع المرض والشقاء .

وثالثاً — أما من الوجهة الحربية ، فلو أن القاهرة حوصرت مدة أسبوع واحد عند ما تقدم الألمان إلى العلمين فى الحرب الحاضرة ، وقطعت مواصلاتها ببلاد الريف المصرى ، لتبين المدافعون عنها ، قيمة استبقاء الأراضى الزراعية الموجودة داخل نطاق المدينة حالياً ، وقيمة استصدار أمر عسكرى يحتم زراعة هذه الأراضى بالخضراوات لتموين المدينة عند اللزوم حتى لا تضطر إلى التسليم جوعاً .

ورابعاً — أما من الوجهة التاريخية ، فطالما انتفع العرب بجبل المقطم ، وطالما أقاموا فوقه المدن والمساجد والتحصينات ، وطالما رفعوا مياه النيل العذبة فوق أنجاده بواسطة تلك الحوائط المعروفة باسم حوائط العيون ، وهى التى كانت تحمل مياه النيل قديماً فى قنوات إلى الجبل ، ولم تزل ماثلة منذ عهد أحمد بن طولون عند بئر أم السلطان بالقرب من ناحية البساتين ، ومنذ عهد قنصوه الغورى بناحية فم الخليج بمصر القديمة .

ولم ير أمراء مصر وملوكها منذ عهد صلاح الدين الأيوبى ، لا بل منذ عهد الطولونيين ، إلى نهاية عهد محمد على باشا الكبير، مكاناً أوفق وأصلح مسكناً لهم ولذويهم من مرتفعات القلعة، فأقاموا فوق قمم الصخور المنبسطة هناك ، القصور والقلاع والمساجد ، التى لم تزل إلى اليوم مفخرة القاهرة القديمة وشعارها الخالد.



طالما انتفع العرب بجبل المقطم وأقاموا فوقه المدن والمساجد والتحصينات !!

إذن لماذا لا تمتد القاهرة الحديثة فوق أنجاد المقطم ؟

لماذا لا تنتشر تلك الأحياء القديمة المكتظة اكتظاظاً هائلا بالمساكن والأهالى إلى أعالى الجبل ، لتفرغ ما فى رئتيها من الهواء الفاسد المحبوس ؟

لماذا لا ترتقى أحياء الخليفة والدرب الأحمر ومصر القديمة وسواها مدرجات الجبل وتستنشق الهواء الصحى الخالى من الغبار والقاذورات ؟

الأمر فى منتهى السهولة :

فمجرد تكوين شركة مساهمة وطنية ، برأس مال يغطى النفقات اللازمة لتمهيد الطرق ولامتداد شبكة المياه والمجارى والكهرباء فوق الجبل ، يكفى لإنشاء مدينة المقطم . ولا نظن أن حكومتنا الرشيدة تضن على مثل هذه الشركة بامتياز الألف فدان اللازمة لهذا المشروع فوق الجبل .

وفى هذا المجال متسع بالطبع لاستثمار مئات الألوف من رؤوس الأموال المصرية ولاستنفاد نشاط مئات من الشباب المتعلم لمدة جيل كامل ! !

ومجرد إقرار الحكومة لمشروع إنشاء غابة فوق الجبل مقابل أحياء الموتى يكفى لتلطيف

جو القاهرة صيفاً ولإنشاء مصيف بديع للفقراء الذين ليس فى مقدورهم السفر إلى الإسكندرية أو رأس البر .

هذا هو المشروع الذى هدتنى إليه دراستى للجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة Sa Géographie Urbaine فمهدت لى هذه الدراسة سبيل التفكير فى جبل المقطم (راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٩٦) ، وفى طريقة استثماره بهذه الوسيلة لخير القاهريين ! !

والآن لقد أصبح تنفيذ هذا المشروع الواضح الجذاب واجباً فى عنق الأجيال المقبلة لتجنى القاهرة ما فيه من ثمار وارفة ما أشهاها وما ألذها . وخصوصاً متى تحقق مشروع إنشاء بلدية القاهرة فى القريب العاجل إن شاء الله بعد مرور قانون البلديات الجديد فى البرلمان . فهل نحن فاعلون ! !

إلى وزارة الأشغال العمومية و إلى رجالها العاملين و إلى قادة الفكر فيها نرفع هذا المشروع .

و إلى رجال وزارة المعارف العمومية الأجلاء و إلى المسئولين عن سياسة التعليم فى بلدنا نوجه هذه الكلمة راجين تقرير مادة « جغرافية المدن التاريخية » كمادة أساسية فى التعليم ! ! .

والله الموفق والسلام ؟

المؤلف



الأشجار الباسقة المحيطة بتكية السلطان عبد الله المغاورى بجبل المقطم خلف القلعه .

*

كتاب « القـــــاهرة »

أهم المراجع العربيـــة

أعدنا هنا بيان مراجع كتاب « القـــاهرة » بأجزائه الثلاثة معدلة ومنسقة ومرتبة طبقاً للحروف الأبجدية كرغبة الـكثيرين من أصدقائنا الـكرام :

١ — ابراهيم محمد المصرى المعروف بابن دقاق — الانتصار بواسطة عقد الأمصار طبعة سنة ١٣١٤ م

٢ — ابن الجيعان — التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية : توفى سنة ١٣٩٨ م

٣ — ابن بطوطة — تحفة النظار فى غرائب الأمصار : توفى سنة ١٣٧٨ م

٤ — ابن جبير — رحلة ابن جبير : توفى سنة ١٢٠٤ م

٥ — ابن حوقل — المسالك والممالك

٦ — ابن عبد الحـكم — فتوح مصر : توفى سنة ٨٧١ م

٧ — أبو البركات محمد بن إياس — بدائع الزهور فى وقائع الدهور . ثلاثة أجزاء : طبعة سنة ١٨٩٣ م

٨ — أبو العباس أحمد القلقشندى — صبح الأعشى فى صناعة الإنشا فى ١٤ جزء توفى سنة ١٤١٨ م (طبعة القاهرة سنة ١٩١٤)

٩ — أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . طبعة دار الكتب المصرية وتعليقات محمد بك رمزى عليها (١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣٢ و ١٩٣٣ و ١٩٣٥ و ١٩٣٦ و ١٩٣٨ و ١٩٣٩)

١٠ — أبو صالح الأرمنى — أخبار من نواحى مصر : توفى سنة ١١٥٥ م

١١ — إحصاء شركات المساهمة — دليل الحـكومة — طبعة سنة ١٩٤٣

١٢ — أحمد شفيق باشا — الرق فى الإسلام تعريب أحمد زكى باشا

١٣ — أحمد شفيق باشا — مذكراتى فى نصف قرن : طبعة سنة ١٩٣٤

١٤ — أحمد كمال باشا — الحضارة المصرية القديمة

١٥ — اسماعيل سرهنك باشا — حقائق الأخبار عن دول البحار فى مجلدين طبعة سنة ١٨٩٦

١٦ — أطلس مصر : سنة ١٩٢٨

١٧ — الأدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : توفى سنة ١١٥٣ م

١٨ — الأرصاد الجوية : نشرات المرصد المصرى بحلوان

١٩ — الأطلس المتيورولوجى لمصر : طبعة سنة ١٩٣١

٢٠ — البستانى — دائرة المعارف : توفى سنة ١٨٧٠ م

٢١ — التقارير السنوية لوزارة الأشغال العمومية من سنة ١٩٣٠ إلى الآن

٢٢ — السخاوى — الضوء اللامع

٢٣ — المتحف المصرى — موجز فى وصف الآثار الهامة طبعة سنة ١٩٣٧

٢٤ — المجلة الطبية المصرية ومجلة العمارة ومجلة السكك الحديدية وسواها

٢٥ — المقدسى — أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : توفى سنة ٩٩٠ م
٢٦ — إلياس الأيوبى — تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل فى مجلدين
٢٧ — أمين سامى باشا — تقويم النيل فى ستة مجلدات طبعة سنة (١٩١٣ و ١٩٢١ و ١٩٣٣ و ١٩٣٦)
٢٨ — أنطون زكرى — الحكومة الاشتراكية منذ ٣٥٠٠ سنة — مصر الاقتصادية فى عهد الأسرة ١٨ الفرعونية : طبعة سنة ١٩٣٥
٢٩ — بتلر — فتح العرب لمصر تعريب الأستاذ فريد أبو حديد طبعة سنة ١٩٣٣
٣٠ — بيانات ومحاضر لمصلحة المناجم
٣١ — تقويم الحكومة سنة ١٩٣٩
٣٢ — تقى الدين المقريزى — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار فى أربعة مجلدات توفى سنة ١٤٤١ م
٣٣ — جورجى زيدان — تاريخ التمدن الإسلامى فى خمسة أجزاء طبعة سنة (١٩١٤و١٩٢٦و١٩٣١و١٩٢٧و١٩١٩)
٣٤ — جورجى زيدان — تاريخ مصر الحديث فى مجلدين : طبعة سنة ١٩٢٥
٣٥ — حسن صادق باشا (الدكتور) — الجيولوجيا طبعة سنة ١٩٣١
٣٦ — حسن ابراهيم حسن (الدكتور) — الفاطميون فى مصر : طبعة سنة ١٩٣٣
٣٧ — خرائط مجسمة بالجمعية الجغرافية الملكية المصرية
٣٨ — خرائط مدينة القاهرة وضواحيها ١ : ١٠٠٠
٣٩ — خرائط مدينة القاهرة وضواحيها ١ : ٥٠٠٠
٤٠ — خريطة مدينة القاهرة وضواحيها ١ : ٧٥٫٠٠٠
٤١ — دليل الجمعية الجغرافية الملكية المصرية : طبعة سنة ١٩٣٤
٤٢ — دليل المتحف القبطى فى جزئين : طبعة سنة (١٩٣٠ و ١٩٣٢)
٤٣ — دليل متحف سكك حديد الحكومة المصرية : سنة ١٩٣٣
٤٤ — سليم بك حسن — مصر القديمة فى جزئين طبعة سنة ١٩٤٠
٤٥ — صالح بك على — الخرائط التاريخية
٤٦ — عبد الرحمن الجبرتى — عجائب الآثار فى التراجم والأخبار فى أربعة مجلدات توفى سنة ١٨٢٥
٤٧ — عبد الرحمن بك الرافعى — تاريخ الحركة القومية فى ثلاثة أجزاء : طبعة سنة ١٩٢٩
٤٨ — عبد الرحمن بك الرافعى — عصر اسماعيل فى مجلدين طبعة سنة ١٩٣٣
٤٩ — عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين السيوطى — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة جزءان طبعة ١٩٠٩
٥٠ — عبد الرحمن زكى (البكباشى) — القاهرة فى جزئين طبعة سنة (١٩٣٤ و ١٩٣٥)
٥١ — عبد الرحمن زكى (البكباشى) — الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير طبعة سنة ١٩٣٩
٥٢ — عبد الهادى حماده ومحمد زكى فور — دليل آثار الأقصر : طبعة سنة ١٩٤٢
٥٣ — عبد اللطيف البغدادى — وصف مصر حوالى سنة ١٢٠٠ ميلادية : طبعة سنة ١٩٣٢
٥٤ — على بك بهجت والبير جبريل — حفريات الفسطاط : طبعة سنة ١٩٢٨ (ترجمة على بك بهجت ومحمود عكوش)
٥٥ — على باشا مبارك — الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وقراها فى عشرين جزء طبعة سنة ١٨٨٨

٥٦ — سمو الأمير عمر طوسون — وادى النطرون طبعة سنة ١٩٣٥
٥٧ — سمو الأمير عمر طوسون — البعثات العلمية فى عهد محمد على طبعة سنة ١٩٣٤
٥٨ — سمو الأمير عمر طوسون — صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على طبعة سنة ١٩٤٠
٥٩ — عمر عبد العزيز أمين — تاريخ البريد فى مصر طبعة سنة ١٩٣٤
٦٠ — فؤاد فرج — الإسكندرية طبعة سنة ١٩٣٧
٦١ — فؤاد فرج — منطقة قنال السويس ومدن القنال طبعة سنة ١٩٤٢
٦٢ — فؤاد عبد الملك — مذكرات عن حلوان الحمامات وينابيعها المعدنية
٦٣ — كراسات الإحصاء سنة ١٩٣٧
٦٤ — كلوت بك — لمحة عامة إلى مصر في مجلدين (ترجمة محمد بك مسعود) طبعة سنة ١٨٤٠
٦٥ — محمد السيد النعناعي — حوض النيل طبعة سنة ١٩٤٠
٦٦ — محمد أمين حسونه — مصر والطرق الحديدية : طبعة سنة ١٩٣٨
٦٧ — محمد حسنين مكاوى — التقدم العمرانى لمدينة القاهرة والمدن المصرية الأخرى طبعة سنة ١٩٣٨
٦٨ — محمد بك رمزى — مذكرات خاصة
٦٩ — محمد صابر — يوم مع قدماء المصريين فى منف طبعة سنة ١٩٣٩
٧٠ — محمد صابر — من أدب الفراعنة طبعة سنة ١٩٣٧
٧١ — محمد عبد الجواد الأصمعى - قلعة محمد على لا قلعة نابليون طبعة سنة ١٩١٤
٧٢ — محمد عبد العزيز مرزوق — مساجد القاهرة قبل عصر المماليك طبعة سنة ١٩٤٢
٧٣ — محمد عبدالله عنان — تاريخ الجامع الأزهر طبعة سنة ١٩٤٢
٧٤ — محمد عبد الله عنان — مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية طبعة سنة ١٩٣١
٧٥ — محمد عبد الله عنان — مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام طبعة سنة ١٩٢٩
٧٦ — محمد عوض محمد (الدكتور) : نهر النيل
٧٧ — محمود ابراهيم عطية — مذكرة عن المياه النائرة فى الأرض فى القطر المصرى
٧٨ — محمود باشا أحمد — دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة طبعة سنة ١٩٣٨
٧٩ — معالى الأستاذ محمود سليمان غنام — المعاهدة المصرية الإنجليزية طبعة ١٩٣٦
٨٠ — مصلحة المساحة — الدليل الجغرافى لأسماء المدن والنواحى طبعة سنة ١٩٤٠
٨١ — مقتبسات عن النيل والرى والفلاح المصرى وعواصم مصر الإسلامية من الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية
٨٢ — لبيب حبشي وزكى تاوضروس — في صحراء العرب والأديرة الشرقية طبعة سنة ١٩٣٩
٨٣ — ناصرى خسرو — رحلة ناصرى خسرو فى مصر ليحيي الخشاب (مخطوط بمكتبة جامعة جامعة فؤاد الأول)
٨٤ — نشرات من متحف فؤاد الأول الزراعي ومتحف سكك حديد الحكومة المصرية والمتحف المصرى ودار الآثار العربية ومتحف الشمع وشركات الملاحة
٨٥ — ياقوت الحموى — معجم البلدان توفى سنة ١٢٢٤ م
٨٦ — يوسف جرجس — الرحلة البطريركية إلى الأمبراطورية الآثوبية : طبعة سنة ١٩٣٠

كتاب « القـــــاهرة »

أهم المراجع الأفرنجية

1 — Abbate — Les Origines du Caire — 1880.
2 — A. D. Mechenzi — The Story of Ancient Egypt.
3 — A. Moret — Le Nil et la Civilisation Egyptienne.
4 — A. Moret — La Nation Egyptienne.
5 — Architecture Antiquités.
6 — British Museum — A Guide to the Egyptian Collections.
7 — Brooks — Climate throughout the Ages.
8 — Brugsch — Dictionnaire Géographique de l'Ancienne Egypte.
9 — Budge — Books on Egypt and Caldea XIV. XV, XVI.
10 — Bulletins de la Société de Géographie d'Egypte.
11 — Mrs. Butcher — The Story of the Church of Egypt. 2 vols. 1899.
12 — Casanova — Essai de Reconstitution Topographique de la ville d'Al-Foustat ou Misr. Le Caire 1919
13 — Capt. Creswell — Chronology of Muslim Monuments. 1917.
14 — Capt. Creswell — The Foundation of Cairo 1933.
15 — Capt. Creswell — The Citadel of Cairo.
16 — Mrs. Devonshire — Rambles in Cairo 1917.
17 — Mme Devonshire — L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses Monuments 1926.
18 — E. Amélineau — La Géographie de l'Egypte à l'Epoque Copte.
19 — Emil Ludwig — The Nile in Egypt.
20 — Encyclo. Britannica
21 — Expédition de Bonaparte Description de l'Egypte.
22 — F. E. Griffith — The Religious Revolution in Egypt
23 — Fernand Leprette — Egypte, Terre du Nil. 1939.
24 — Flinders Petrie — The Egyptians.
25 — Flinders Petrie — The Arts and Crafts of Ancient Egypt.
26 — Fraser. R. — Cairo Past and Present 1892
27 — Gabriel Hanotaux — Histoire de la Nation Egyptienne 7 vols
28 — G. Ebers — Egypt : Descriptive, Historical & Picturesque. 1878.
29 — Guides Bleus Illustrés — Le Voyage d'Egypte : Alexandrie, Le Caire. 1929.
30 — Hautecœur et M. Wiet — Les Mosquées du Caire. 1933.
31 — Henri Gauthier — Dictionnaire des Noms Géographiques Contenus dans les Textes Hiéroglyphiques.
32 — Henry Lyons — Physiography of the River Nile.
33 — Herodote I & II
34 — H. R. Hall — Egypt in the Brillance of Decay.

35— Hume F. — Survey of Egypt, Geological Depart. Cairo 1925.
36 — J. Leibovitch — Ancient Egypt.
37— Karl Baedeker — Egypt and the Sudan.
38— La Grande Encyclopédie.
39— Le Monde Illustré.
40— Le Tour du Monde.
41— L. Gaidey — Voyage du Sultan Abd El Aziz de Stamboul au Caire. 1865
42— Linant de Bellefond — Mémoires sur les Principaux travaux d'Utilité Publique Exécutés en Egypte. 1872.
43— Lionel Wiener — L'Egypte et ses Chemins de Fer. 1932.
44— Mallet — Histoire Romaine.
45— Marcel Clerget — Le Caire. 2 vols. 1934
46— Margolioth — Cairo, Jerusalem and Damascus. 1907.
47— M. Briggs — Mohammedan Architecture in Egypt and Palestine.1927
48— Migeon. G — Le Caire, Le Nil et Memphis. 1928.
49— S. A. Le Prince Omar Toussoun — Mémoires sur les Anciennes Branches du Nil. Tome IV.
50— S.A. Le Prince Omar Toussoun — Mémoires de l'Institut d'Egypte.
51— S.A. Le Prince Omar Toussoun — Mémoires sur l'Histoire du Nil.
52— Page May — Helwan and the Egyptian Desert. 1901.
53— Pauty E.—Les Palais et les Maisons d'Epoque Musulmane au Caire.1932
54— Phil. Schan — Through Bible Lands.
55— Poole E.W.L. — Cairo Fifty years Ago. 1896.
56— Ravaisse P. — Essai sur l'Histoire et sur la Topographie du Caire d'aprés Makrisi 1887 — 1890.
57— Recueil Général des Contrats. Ministere des Finances. 1908.
58— Reynolds Ball — The City of the Califs. 1897.
59— Rhoné A. — L'Egypte à Petites Journées. 1865.
60— Rev. Shenouda Hanna — The Coptic Church of El-Muallaka and others at Old Cairo.
61— S. H. Robinson — Civilisation.
62— Sladen D. — Things ought to be seen in Cairo.
63— Stanley, Lane Poole : 1) The Story of Cairo. 2) Cairo, Sketches of its History, Monument and Social Life. 1895.
64— The National Geographic Magazine Wasington D C.
65— The Overland Route — Europe — India — Thomas Waghorn.
66— Voyage dans la Basse et dans la Haute Egypte, pendant les Campagnes de Bonaparte. 2 vols.
67— W. Willcocks and Craig — Egyptian Irrigation.
68— Y. Breasted — A History of Egypt.

*

القاهرة

٢

الفصل الأول

مدينـــة منف

أتممنا دراسة الظواهر الطبيعية المحيطة بمنطقة القاهرة فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، وعرفنا أسباب تنقلات العواصم التى نشأت فى هذه المنطقة منذ القدم . ونتكلم الآن عن هذه العواصم فنقول :

يبدأ الفصل الأول من تاريخ القاهرة فى الواقع ، منذ تأسيس مدينة منف عند ملتقى حدود المملكتين الكبيرتين السابقتين لعصر التاريخ بعد ما تم توحيدهما فى عهد الملك « مينا » سنة ٣٢٠٠ ق . م .

ويرجع اختيار موقع هذه المدينة ، بجوار رأس الدلتا القديمة ، فى المكان المعروف الآن باسم قرية ميت رهينة بناحية البدرشين بمديرية الجيزة إلى سببين :

السبب الأول هو أن وجود هذه المدينة عند رأس الدلتا يجعلها تسيطر على طرق الملاحة فى جميع فروع النيل القديمة المؤدية للوجهين القبلى والبحرى . وبهذه الطريقة يمكن بسهولة ارسال الحملات العسكرية اللازمة فى النيل فى أى اتجاه لأخماد أى ثورة تقوم فى مدن المملكة الشمالية التى أخضعت حديثاً ودخلت فى حكم ملوك الجنوب .

والسبب الثانى هو أن وجود منف فى هذا الموقع ، يجعلها مركز دفاع هام يسيطر على طرق القوافل فى الصحراء الغربية فيمكن بذلك صد غارات الليبيين الذين كانوا يسايرون فرع النيل الغربى القديم حتى نقطة تفرعه عند بداية الدلتا للهجوم من هناك على مدن ومقاطعات الوجه البحرى الغربية وهى التى كانت تقوم فى مكان مديرية البحيرة الحالية.

أمر « مينا » أذن بتحويل هذا الفرع الأكبر من النيل من الغرب إلى الشرق بواسطة سد عظيم أقامه عند فم هذا الفرع .

قال هيرودوت إن الفرع الأكبر للنيل فى عهد « مينا » كان يمر بجوار صحراء ليبيا وإن السد الذى أقيم لتحويله شرقا كان يبعد مائة ستاد تقريباً إلى جنوب منف . فأين هو موقع هذه المعالم الآن ؟

لا يزال مجرى النيل الأصلى ظاهراً للآن فى بحر اللبينى الذى يمر بجوار صحراء ليبيا . ويقع فم هذا البحر عند قناطر قشيشة الحالية بمركز الواسطى بمديرية بنى سويف وينتهى بالقرب من قرية نكله مركز امبابه بمديرية الجيزة ثم يحل محله ريّاح البحيرة المتفرع من النيل عند قناطر محمد على (القناطر الخيرية سابقاً) .

ويمكن رؤية بحر اللبينى هذا فى القاهرة ماراً تحت كوبرى جديد أنشىء بمناسبة توسيع شارع الهرم سنة ١٩٣٥ فى مكان قناطر الجيزة القديمة التى بناها صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٧٧ م فى عهد إنشاء قلعة القاهرة . وتجد فى محازاة هذا البحر مصرف المحيط الذى حول جزء من شاطئه الأيمن إلى طريق مرصوف يؤدى إلى ستوديو مصر للسينما .

هذا فيما يختص بفرع النيل الأصلى الذى حول مينا مجراه من الغرب إلى الشرق ، أما السد الذى أقيم لتنفيذ هذه التحويلة فلا تزال بقاياه موجودة للآن عند قناطر قشيشة المذكورة أعلاه ، والظاهر أن هذا السد حصل به خلل فى العصور التالية لعصر مينا بدليل أنه عند ما تفتح قناطر قشيشة فى زمن الفيضان لرى الحياض الباقية بمديرية الجيزة ، لابد من تقوية مكان هذا السد كل عام لمنع المياه من الطغيان على موقع مدينة منف القديمة .

وتدل جميع الظواهر الطبيعية للآن على أن النهر كان يتفرع قديماً عند موقع قناطر قشيشة هذه . فكان الفرع الأكبر يمر بجوار صحراء ليبيا ، والفرع الأصغر يمر تحت سفح الهضبة الشرقية . ومعنى ذلك أن رأس الدلتا فى عصر مينا كانت أولا فى هذه النقطة ، فلما أنشىء السد انتقلت رأس الدلتا شمالا وتفرع النيل عند البلدة المعروفة الآن باسم كفر العلو بحلوان .

وقد يكون أصل اسم كفر العلو واسم حلوان أو علوان مشتقان من هذا المعنى أى الأراضى العالية الواقعة وسط النيل.

والأرجح أن بحر اللبينى المذكور أعلاه هو نفس فرع النيل القديم الذى كان يمر بالوادى الفارغ الواقع جنوبى وادى النطرون مباشرة وكان يروى القطر الليبى الذى اندثر الآن وأصبح يعرف باسم صحراء ليبيا .

ولا تزال فى الوادى الفارغ آثار من الحياة الصاخبة التى كانت تعمر صحراء ليبيا قديماً . وتعد زيارة هذه الآثار الآن من أمتع الرحلات التى يمكن أن يتمتع بها سكان القاهرة .

ومن المعروف أن ليبيا كانت فى العصور الخالية قطراً قائماً بذاته ذا كيان سياسى خاص . وكان سكانه الليبيون فى حروب مستمرة مع المصريين . فلما اشتدت غارات القوم على الوجه البحرى قرر مينا تحويل مجرى النهر حتى تنقطع عن الليبيين أسباب الحياة فيهلكون ولكن يظهر أن قطع المياه عنهم زادهم ثورة فاشتدت غاراتهم على البلاد . ولما كانت جحافلهم تتبع فى سيرها إلى وادى النيل هذا الفرع القديم ، أقام مينا بالقرب من فم هذا الفرع قلعة قوية لصد هجماتهم . وكانت هذه القلعة تقع فى الأرض البكر التى تخلفت عن هذا الفرع بعد انسداده . فلما نجح مينا فى كبح جماح هؤلاء الليبيين بفضل هذه الفكرة ، قام بتأسيس مدينة بجوار القلعة وزودها بكل ما يلزم الجنود المقيمين بها من مرافق الحياة الضرورية .

أنشأ إذن الملك مينا الأول مدينته الجديدة عند رأس الدلتا (وكانت رأس الدلتا حيث كفر العلو الآن) وسط الوادى فى منتصف المسافة بين الجبل الشرقى والجبل الغربى على الأراضى التى تخلفت من تحويل النهر شرقاً . وفى جنوب هذه المدينة الجديدة شيِّد معبد الأله « فتاح » ومن حوله المبانى الحكومية ومساكن الكهنة وبيوت العمال والخدم وثكنات الجنود والحرس .

وفى عهد « أتوثيس » ابن « مينا » أقيمت حول المدينة الناشئة أسوار ضخمة لحمايتها من غارات الليبيين التى كانت لم تزل مستمرة وللدفاع عنها ضد هجمات الأعداء فى الحروب التى كانت لم تزل محتملة مع مدن الشمال . ثم زيد فى تحصينات قلعتها زيادات هائلة .

وقد بنيت هذه الأسوار وهذه الحصون الحربية على الأرجح من الأحجار الضخمة الناصعة البياض المخلوعة من محاجر طره والمعصرة ، فكانت المدينة تبدو من بعيد فى جلال وهيبة مخيفة ولذا سميت بالهيروغليفية « إنب — حز » ومعناها الأسوار البيضاء أو القلعة البيضاء .

ولم تكن هذه المدينة فى عهد الأسرتين الأولى والثانية من سنة ٣٢٠٠ إلى سنة ٢٨٩٥ ق . م . عاصمة المملكة المتحدة كما ذكر الكثيرون خطأ ، لأن ملوك هاتين الأسرتين لم يغادروا الصعيد موطنهم الأصلى فى هذه الفترة من الزمن بل بقوا هناك وجعلوا هذه المدينة الناشئة معقلاً متساطاً على طرق الملاحة فى جميع فروع النيل يشرفون منه على حكم بلاد الدلتا التى فتحت حديثاً وضمت إلى ملكهم .

ولكن منذ حكم الأسرة الثالثة سنة ٢٨٩٥ ق . م . زادت أهمية مدينة « إنب — حز » (الأسوار البيضاء) زيادة هائلة فقرر ملوك هذه الأسرة ترك الصعيد والإقامة فيها نهائياً فكان ذلك بدء سطوع شمس منف .

وفى عهد الأسرة السادسة بلغت هذه المدينة أوج عظمتها فأنشأ الملك بيبى الأول حياً جديداً إلى جنوبها وجعله مقراً ملكياً وشيد بالقرب منه هرمه المعروف وأطلق على الحى الجديد والهرم اسم « من — نفر » ومعنى ذلك « يبقى الجمال » وقد تطور هذا الاسم فيما بعد إلى اسم « منف » بالقبطية ، ومنفيس باليونانية ، ومنف بالعربية ، وأطلق على المدينة بأكملها .

على أنه مما يلفت النظر أن منف هذه ذكرت فى التوراة باسم « نوف » ! !

فهل كانت هذه الكلمة جزء من مركبات الاسم الهيروغليفى لعاصمة مصر الأولى ؟ ! هذا مانعتقده ! !

جاء فى التوراة على لسان حزقيال النبى النبوءات المرعبة التالية التى ذكرت فيها « منف » باسم « نوف » وذلك بمناسبة غزو بختنصر ملك بابل لمصر . جاء فى (ج ١٣ من الإصحاح ٣٠) :

« هكذا قال السيد الرب وأبيد الأصنام وأبطل الأوثان من نوف . ولا يكون بعد رئيس من أرض مصر . وألقى الرعب فى أرض مصر . »

ثم جاء فى (جـ ١٦) : « وأضرم ناراً فى مصر . سين تتوجع توجعاً . ونو تكون للتمزيق . وانوف ضيقات كل يوم . »

و « سين » هى الفرما أو بيلوز ومكانها اليوم تل الفرما على بعد ٣٥ كيلومتراً شرق بور سعيد كما سبق علمنا . أما « نو » فهى « نو آمون » أى « مدينة آمون » أو « طيبة » ومكانها اليوم الأقصر والكرنك . ونوف هى منف أو منفيس موضوع هذا البحث .

ومنذ إنشاء مدينة منف ، وتوحيد مملكتى القطر المصرى فى عهد الملك مينا ، لقب ملك البلاد الشرعى فى البروتوكول بالألقاب التالية :

« ملك الوجه القبلى وملك الوجه البحرى » وكذلك « رب الأرضين » و « نسر الجنوب وصل الشمال » ومعنى ذلك سيد الجنوب وسيد الشمال .

وكان الملك فى أول الأمر يحمل التاج الأبيض الخاص بالجنوب أو التاج الأحمر الخاص بالشمال ، ولم يحمل التاج المزدوج إلا فى أواسط حكم الأسرة الأولى .

وقد وجدت فى حفائر « هيرا كنبوليس » وهى مدينة « نيخاب » القديمة التى تعرف الآن باسم الكاب بمركز أدفو بمديرية أسوان ، وكانت عاصمة المملكة الجنوبية قبل توحيد المملكتين ، أقول وجدت فى حفائر هذه العاصمة لوحة من الأردواز وهى محفوظة الآن بالمتحف المصرى .

ولهذه اللوحة وجهان محفوران حفراً بارزاً يشهد لصانعها بالدقة والمقدرة .

والجزء الأعلى من كلا الوجهين يحمل اسم « نارمر » وهو الملك « مينا » مكتوب بالهيروغليفية بين رأس بقرتين تمثلان الإلهة هاتور .

وأحد الوجهين يشمل منظرين : فالمنظر العلوى يمثل الملك لابساً التاج الأبيض (تاج الوجه القبلى) متبوعاً بحامل نعليه وقابضاً بيده اليمنى على عصا قصيرة لها رأس على شكل كرة يضرب بها عدوه الراكع أمامه ، بينما أمسكت يده اليسرى شعر هذا العدو المسمى « واش » . وقد ذكر فوقه ما يعنى أن الإله « حور » قد أحضر للملك أسرى من الدلتا (أرض نبات البردى) . والمنظر السفلى يمثل عدوين عاريين فارين .

أما الوجه الثانى من اللوحة فيحوى ثلاثة مناظر : فالمنظر العلوى يمثل الملك لابساً التاج الأحمر (تاج الوجه البحرى) متبوعاً بحامل نعليه ومسبوقاً بوزيره وبأربعة من حملة الأعلام وأمام هؤلاء عشرة أسرى قطعت رؤوسهم ووضعت بين أقدامهم ، وقد كتب فوقهم أسماء المدن التى فتحها مينا فى الوجه البحرى وفى ليبيا .

والمنظر الأوسط يمثل حيوانين عجيبين والمنظر الأسفل يمثل ثوراً ينطح قلعة وهذا رمز انتصار الملك على أعدائه . وتعتبر هذه اللوحة الفريدة فى بابها أجمل ذكرى بقيت للآن عن توحيد أراضى مصر الشمالية والجنوبية تحت

حكم ملك واحد ، وما ترتب على ذلك من تأسيس مدينة جديدة أصبحت فى عهد الأسرة الثالثة عاصمة الدولتين القديمتين وكانت تقع عند نقطة تلاقيهما بالقرب من رأس الدلتا .

والصورة المنشورة تحت هذا الكلام تمثل بطريقة حديثة ملخص ما جاء على وجهى هذه اللوحة . .



الملك مينا وتوحيد البلاد . ونراه فى هذه الصورة وقد لبس التاج الأبيض تاج الوجه القبلى متوعاً بحامل نعليه وقابضاً بيده اليمنى على عصا قصيرة لها رأس على شكل كرة يضرب بها ملك الليبيين بينما أمسكت يده اليسرى شعر هذا الملك المسمى « واش » . وأمام مينا حملة الأعلام وعليها شعار المقاطعات التى فتحها مينا فى شمال الدلتا . وبجواره وزيره وقد فر جنود المملكة الليبية وسقط أعلبهم صرعى ونلاحظ على ركبهم وأذرعهم الوشم كما نلاحظ النيران التى تلتهم مدنهم .

وظلت منف عاصمة القطر المصرى السياسية إبتداء من حكم الأسرة الثالثة حتى نهاية حكم الأسرة الثامنة أى من سنة ٢٨٩٥ ق . م إلى سنة ٢٣٦٠ ق . م . لمدة ٥٣٥ سنة .

وبعد أن نقل منها مركز الملك بمدة طويلة كانت لم تزل مع ذلك مدينة مشهورة عظيمة .

ومع أنها وقعت سنة ٧٢٢ ق . م . فى يد بعانخى الحبشى . ثم وقعت مرة ثانية فى يد الأشوريين عند ما غزوا مصر فى سنة ٦٧١ ق . م فى عهـد الملك طهراقة الذى فر مع جنوده إلى مصر العليا تاركا زوجته الجميلة الملكة « آمون — دياك — هت » أسيرة فى يد الملك « آرارهاوون » الأشورى . ثم وقعت مرة ثالثة فى يد الفرس عند ما استولى قمبيز على مصر سنة ٥٢٥ ق . م . بعد انتصاره على بسامتيك الثالث فى مدينة بيلوز (تل الفرما على بعد

٣٥ كيلومتر شرقى بور سعيد) — أقول بالرغم من أن مدينة منف وقعت فى أيدى هؤلاء الغزاة الذين نهبوا الكثير من كنوزها ، فإنها ظلت مع ذلك محتفظة بعظمتها وجمالها وسعتها وغناها .

ولم تفقد منف أهميتها إلا بعد تأسيس مدينة الأسكندرية سنة ٣٣٢ ق . م . وذلك لكثرة ما كان قد أصابها من التضعضع والضعف و بعد أن بلغ عمرها حوالى ٣٠٠٠ سنة حتى صارت أغلب معابدها وقصورها خرابا ، و بعد أن نقلت مهمات مبانيها العظيمة لبناء الأسكندرية .



فى سنة ٦٧١ ق . م . غزا الأشوريون مصر — ففر الملك طهراقه وجنوده إلى مصر العليا . واستولى الأشوريون على مدينة منف ووقعت الملكة « آمون — دياك — هت » زوجة الملك طهراقه (الأسرة ٢٥ وعاصمتها مدينة نباتا بجوار جبل بركل بالسودان) أسيرة فى يد الملك « آرارهاوون » الأشورى . وتراه فى هذه الصورة يستجوب الملكة الأسيرة التى لبست على رأسها تاجها الذهبى ذى الريشتين وقرنى هاتحور وقرص الشمس وقبضت فى يمناها شعار كهنة معبد هاتحور .

ومع ذلك فبعد مضى ٣٥٠ سنة على تأسيس الأسكندرية زار استرابون مدينة منفيس وقال يصف بعض ما رآه فيها :

« على بعد ثلاثة فراسخ من بداية الدلتا توجد مدينة « منفيس » (كانت بداية الدلتا إذ ذاك حيث جزيرة الوراق الآن) هذه المدينة القديمة التى كان يقيم بها ملوك مصر الفرعونية ، ولا يزال بها كثير من المعابد أهمها معبد العجل « أبيس » وهو الحيوان الذى يتقمص روح الأله « أوزيريس » على الأرض . و بداخل هذا المعبد يوجد محل خاص يقيم به العجل يأكل و يعبد .

وللعجل أبيس جبين أبيض كما أن ببعض أجزاء صغيرة من جسمه نقط بيضاء وفيما عدا ذلك فجسمه أسود فاحم . وهذه العلامات هى التى يتميز بها العجل أبيس . ولا بد من توفرها عند انتخاب خليفة للعجل الذى يموت .

وأمام القسم الذى يقيم فيه العجل أبيس يوجد حوش كبير به مكان خاص تقيم فيه البقرة التى ولدته .

وفى ساعة معينة من النهار يخرج العجل أبيس إلى هذا الحوش لكى يراه الشعب ، لأنه و إن كان للقسم الذى

يقيم فيه بالمعبد شباك خاص يمكن رؤيته منه ، إلا أن الشعب يحتم رؤية العجل يمرح بحريته التامة بجوار أمه فى الحوش الكبير الموجود أمام المعبد .

و إلى جوار معبد «أبيس » يوجد معبد « هفستريوم » و به جزء كبير مخصص أيضاً للعجل أبيس ينتقل إليه فى بعض المناسبات الخاصة بطقوس عبادته . وأمام مدخل هذا المعبد يوجد تمثال هائل للاله أوزيريس مصنوع من حجر وحيد وجرت العادة أن تقام بحوش هذا المعبد معركة للثيران التى تربى خصيصاً لهذا الغرض كما تربى الخيول للسباق . وعند خروج الثيران إلى هذا الحوش تنشب المعركة بينها ، ومن ينتصر يهلل له الشعب طويلا و يعطى علفاً زائداً كمكافأة له على انتصاره .

و يوجد بمدينة منفيس أيضاً معبد « فينوس » أو « أفروديت » وبها أيضاً معبد « السرابيوم » ولكن هذا المعبد الأخير كاد يختفى تحت الرمال . وعند ما زاره استرابون وجد تماثيل أبو الهول الموجودة أمامه قد اختفى بعضها إلى رأسها و بعضها إلى منتصف جسمها فى الرمال .

ثم قال : ومنفيس مدينة كبيرة كثيرة السكان وهى ثانى مدن القطر المصرى بعد الأسكندرية . ومداخل المدينة وكذا مداخل قصور ملوكها محصنة تحصيناً متيناً وأمام أبوابها بحيرات عميقة لحمايتها عند اللزوم .

وكانت هذه القصور — وهى الآن (أى فى عصر استرابون) خربة ومهجورة — تقوم على رأس تل مرتفع وتنحدر معه حتى تصل إلى منسوب شوارع المدينة الأصلية حيث تنتهى ببحيرة وغابة كبيرة .

ومنفيس كالأسكندرية يوجد بها كثير من الأجانب من جميع الأجناس ففيها السورى واليهودى والأسيوى وكلهم يقيمون بحى الآلهة « باست »

أما الفينيقيون واليونان والكاربنيون فكانت أحياؤهم الخاصة بهم منعزلة عن غيرها .

ولكل طائفة فى منفيس آلهتها الخاصة فهنا تجد معبد « أفروديت » اليونانية و بجواره معبد « أبيس المصرى . »

هذه هى منفيس كما رآها استرابون الذى زار مصر فى القرن الأول الميلادى حوالى سنة ٢٢ م . فانظر كيف تداولت على هذه المدينة أمم مختلفة ومع ذلك فقد قاومت وعاشت بعد ذلك مدة طويلة .

وفى العصر المسيحى سنة ٣٧٩ م صدر مرسوم الإمبراطور تيودوسيوس الذى جعل المسيحية الدين الرسمى للبلاد ، فتعرضت مدينة منف للتخريب والنهب ولم ينج من الهدم والحريق لا « معبد فتاح » العظيم ولا معبد « أبيس » ولا معبد « افروديت » ... وتكسرت تماثيل الألهة القديمة ، وقام المسيحيون بهدم و إخفاء معالم المدينة الشهيرة واستعملوا أحجارها فى بناء كنائسهم الجديدة .

ومن ذلك العهد والمدينة تسير إلى الاضمحلال والموت .

وفى وقت فتح العرب لمصر على يد عمرو بن العاص كانت أطلال منف لا تزال ماثلة فى الموضع الذى كانت فيه عاصمة لدولة الفراعنة . وكان فيها مساكن عدة لا تزال آهلة .

فلما استقر الأمر للعرب وشرعوا فى بناء مدينة الفسطاط بجوار حصن بابليون استعملوا الحجارة المنقولة من مبانى مدينة منف عاصمة مصر القديمة فى تشييد ما أقاموه هناك من مساجد وحصون ودور حكومية وغير ذلك . ومنذ ذلك الحين هجرت منف وسارت إلى الموت بخطوات واسعة فمن أحجارها المنحوتة أذن بنيت العاصمة الجديدة للاسلام . ثم بعد قليل تحولت مدينة منف العظيمة إلى أنقاض مبعثرة متهدمة .

قال ابن الفقيه : « منفيس مدينة فرعون لها أسوار ضخمة بها سبعون باباً من الحديد والنحاس . »

وقال اليعقوبى : « إن مدينة منفيس متهدمة »

وقال أبو بكر المتوفى سنة ٧٣٥م. : «أدركت مقياس النيل بمنف ويدخل القياس بزيادته كل يوم إلى الفسطاط».

وكان ماء النيل قديماً يصل إلى مقياس معبد منف بسهولة .

وفى زمن ديدور وأسترابون كان هذا المقياس أشهر جميع المقاييس التى كانت بالجهات الأخرى .

والواقع إن أول ما تطرق الخراب والنقص على مدينة منف كان من ابتداء حكم الفرس أرض مصر . ومع ذلك فقد وصف الشيخ عبد اللطيف الطبيب البغدادى الذى زار مصر سنة ١٢٠٠ ميلادية بقايا منفيس كما يأتى :

كانت حدود منفيس تقدر بمسيرة نصف يوم من جميع جهاتها وقد رأيت بها آثاراً ضخمة منها أثر جليل مصنوع من حجر وحيد يسمونه « البيت الأخضر » ، ومنها تماثيل عالية وحوائط سميكة وعقود مرتفعة وأعمدة هائلة كما أن أسوار المدينة المبنية من الأحجار الصغيرة والطوب لا تزال باقية . ثم قل : وبالرغم من عظم هذه المدينة ، ومهما فعلت الشعوب المختلفة لمحوها وتضييع معالمها ومهما أجهدوا أنفسهم فى نقل الأحجار والمواد التى كانت مبنية بها ومهما خرّبوا فى مبانيها ، ومهما شوهوا فى تماثيلها ، فإن أنقاض هذه المدينة تظهر أمام الناظرين كمجموعة مدهشة من العجائب التى تحير الألباب ، ومن المستحيل على أى إنسان مهما كان بليغاً أن يصفها » .

وأما « البيت الأخضر » الذى ورد ذكره فى وصف الشيخ عبد اللطيف البغدادى فلم يجرؤ إنسان على مسه إلا فى القرن الرابع عشر الميلادى سنة ٧٥٠ ﻫ أى سنة ١٣٤٩ م حين أتى الوزير سيف الدين شيخو العمرى فى عهد ولاية السلطان حسن الثانية من سلاطين دولة المماليك البحرية فأمر بكسر هذا الأثر ونقل أحجاره لإدخالها فى أبنية مسجده المعروف الآن باسم جامع شيخون القبلى بالصليبة تجاه جامعه البحرى وهما واقعان بشارع شيخون بقسم الخليفة بالقاهرة فى جهة القلعة .

واليوم ماذا بقى من منفيس العظيمة ! !

حتى الأنقاض اختفت ! !

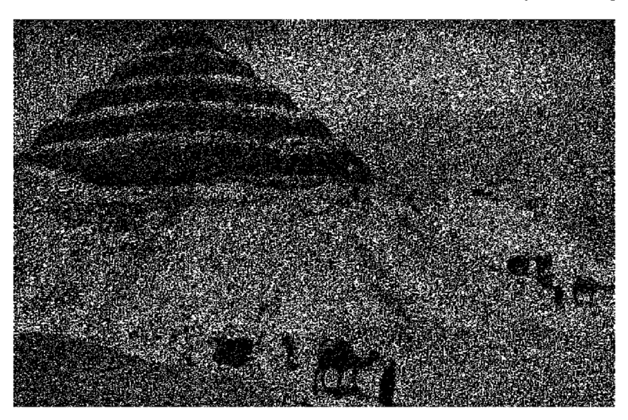
وفى هذا السهل الذى يمتد من شواطىء النيل إلى هضبة صحراء ليبيا لم يبق من المدينة العظيمة ظل قائم ! !

ولكن الطبيعة أعاضتها عن ذلك بمدفن يليق بعظمتها ! !

فهنا حيث كانت الشوارع والميادين والمعابد والقصور والمنازل لم تعد إلا أشجار عالية من النخيل بشكل غابة عليلة النسيم ! !

هنا حيث كانت تموج المدينة بالسكان لم يعد إلا تمثالان ضخمان راقدان تحت ظل النخيل الهادى ! !

وهذه الغابة تحتم على الانسان السكون والتأمل والهدوء وهو يسير فى طرق منفيس القديمة إلى مدافن السرابيوم حيث كانت تدفن العجول أبيس فى توابيت هائلة من الجرانيت ظلت مخفية إلى أن كشفها مريت باشا العظيم ! !



كيف بنى الهرم المدرج وسبب بنائه : عثر على أول قبر بنى للملك زوسر فى « بيت خلاف » القريبة من العرابة المدفونة وهو على شكل مصطبة . غير أن زوسر لم يرض بأن يكون مقره الأخير هناك ويحتمل أن « أمحوتب » مهندسه المعمارى العظيم وجه نظره إلى منطقة سقارة القريبة من محاجر طرة حيث يسهل قطع الأحجار الجميلة لبناء القبور والمعابد القريبة من مقر الحكم بمدينة منف . وتدل الظواهر على أنه أقام لنفسه مصطبة من الحجر الجيرى المهذب ، ثم بنى فوقها ثانية أقل مساحة ، ثم ثالثة أقل مساحة من الثانية وهكذا ، حتى بلغ عدد المصاطب سبعاً وهو الرقم المقدس فى جميع الأديان وكان غرض زوسر أن يشرف قبره على قبور رجال بلاطه وعظماء دولته التى كانت حول قبره . ويكون أول بناء ترسل الشمس أشعتها عليه من كل جوانبه عند ما تشرق فى الصباح

ولم يزل اسم طريق الكباش الذى كان ممتداً أمام معبد « فتاح » بمنفيس وهو « مات — رهنت » باقياً للآن فى اسم قرية ميت رهينة الحالية .

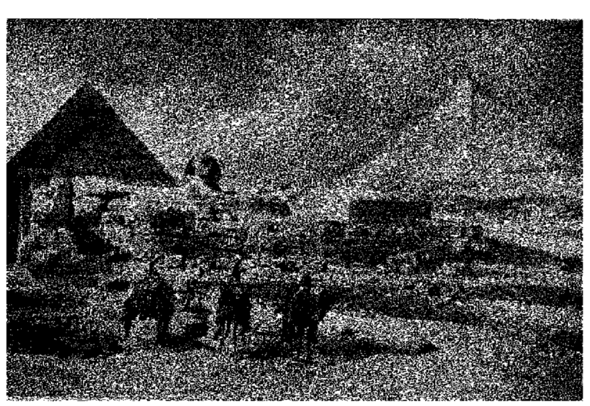
وبالقرب من هذه القرية توجد الهضبة الصحراوية التى تضم مقابر الأجيال التى تعاقبت لمدة خمسين قرناً فى مدينة منفيس !

هنا وهناك بعض الأحجار المبعثرة فى السهل !! تماثيل ضخمة ملقاة وسط الحقول !! ومدافن كثيرة تحت الرمال .

هذا هو كل ما تبقى من عظمة منفيس !!

أما من جبانتها فقد بقيت آثار هائلة تمتد من هرم أبو رواش شمالا إلى هرم اللاهون عند مدخل مديرية الفيوم جنوباً بطول ٨٠ كيلومتراً تقريباً !!

بقيت شوارع بين القبور ترى على جوانبها هرم « زوسر » المدرج ، وهرم « أوناس » ، وآثار هرم «تيتى» ، وهرم الملكة « أبو ىت »، ومصطبة فرعون .



لم يكن القبر الملكى يشمل الهرم وحده . بل كان لكل هرم معبدان . وقد كشفت الحفائر الحديثة بجوار هرم خفرع (الثانى) عن المعبد الجنائزى الملاصق للهرم من جهته الشرقية وكذلك عن الطريق الموصل إلى معبد الوادى وطوله ٦٠٠ متر تقريباً . وقد أثبت الكشف الحديث أن تمثال « أبو الهول » صنع فى عهد الملك « خفرع » وعلى صورته . وفى سنة ١٩٣٧ اكتشف الأستاذ سليم بك حسن أكثر من ١٥٠ لوحة تذكارية لزيارات الملوك لهذا التمثال .

وبالقرب من الجيزة بقيت أهرامات الأسرة الرابعة كالجبال الشامخة وهى هرم « خوفو » ويبلغ ارتفاعه ١٤٦ متراً كما يبلغ حجمه ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ متر مكعب وهرم « منكاورع » وهرم « خفرع » وبجواره تمثال أبو الهول الصامت ! !

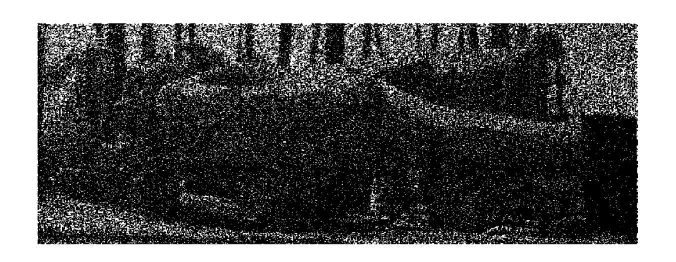
هذا كل ما تبقى من جبانة الأجيال التى تعاقبت لمدة خمسين قرناً فى مدينة منفيس ! !

وربما تكون لفظ « إيجيبت » التى سميت بها مصر فى العصر اليونانى مجرد تحريف لأحد أسماء هذه الجبانة الهائلة باللغة الهيروغليفية وهو « هت — كا — بتاح » ومعناها (أرض قرينة الإله فتاح) فنطقها الوافدون من الأغريق محرفة هكذا « إيجبتاه » ثم أضافوا إلى هذا الاسم المقطع « أوس » كما هى عادتهم فأصبح الاسم « أيجبتاوس » ثم « إيجبتوس » وأخذها عنهم الرومان . ثم انتقلت بعد ذلك إلى اللغات التى أخذت عن اليونانية هكذا « إيجيبت » وعرف أهلها عند العرب باسم « جبت » أو « قبط » .

ومما يجب ذكره بهذه المناسبة أن « مصر » لم تكن معروفة بهذا الاسم عند أهل البلاد أنفسهم فى العهد القديم ، إنما كانت تعرف باسم « كيمى » أى الأرض السوداء ومنها اشتقت لفظة الكيمياء .

أما لفظ « مصر » فيظهر أنها الاسم العبرى الذى سميت به هذه البلاد فى التوراة وظلت معروفة به إلى الآن !

فهل فى هذه الدنيا أعجب من مصر وتطوراتها ! !

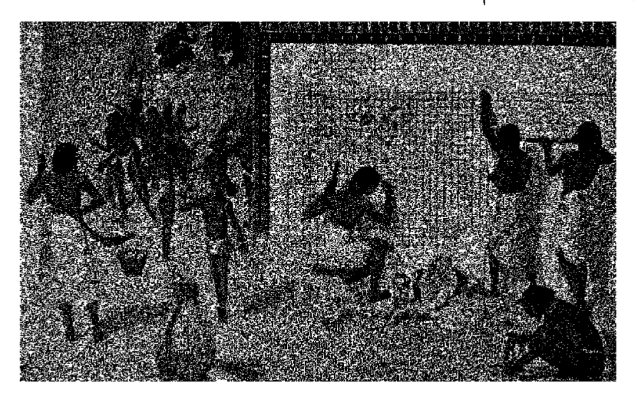


منف — أحد تمثالى رمسيس الثانى الهائلين اللذين كانا يقومان يوماً ما على مدخل معبد « فتاح » بمدينة منف . وهو الآن ملقى على ظهره فى العراء بجوار قرية ميت رهينة يمر به الانسان فى طريقه من البدرشين إلى سقاره وكان ارتفاع هذا التمثال فى الأصل ٤٢ قدماً

الفصل الثاني

مدينة منف وفنها المبتكر

حديث الفن فى مدينة منف هو حديث نشأة العالم الأولى ، أو حديث الحضارة والنور . فإن منف هى التى بثت فى العالم الروح الفنية التى تقدر الحسن وتفهم معانى الجمال . وموضوع الفن فى تاريخ منف هو موضوع الحياة المصرية القديمة كلها فى مدار الحكم الفرعونى . فكل شىء وكل حركة وكل عمل كان للفن فيه أثر . ويكفى أن تشاهد قبراً واحداً من مقابر جبانة منف ، كقبر « تى » مثلا ، لترى معالم الحياة المصرية القديمة ، منقوشة نقشاً ناطقاً بارزاً ، ينم بدقته وقوته عن استعداد وأهلية وفن راسخ مستقر فتى ممتلىء بالقوة والنشاط ،



الفن فى عصر منف . عنى الملوك والعظماء بقبورهم المنحوتة فى داخل الصخور عناية فائقة . وصرفوا على إنشائها الأموال الطائلة . وزينوا حوائطها من الداخل بالنقوش والصور التى تمثل حياتهم اليومية وحروبهم . ونرى فى الصورة عمال النحت يقومون بعملهم بينما وقف المبيضون والرسامون والنقاشون يطلون الأجزاء التى انتهى نحتها ويقسمونها مربعات متساوية ، وأخذ النقاش يرسم فى هذه المربعات صورة الميت من رسم أصلى وضعه رئيس النقاشين على لوحة صغيرة موضوعة أمامه على أرض المقبرة . وأخذ فنان آخر فى تحضير الألوان التى يستعملها النقاشون . أما الرئيس الأعلى للعمل فوقف فى ركن الصورة بجوار القدر الملأى بالماء يصدر الأوامر إلى العمال . ويلاحظ فى الصورة ترتيب شعر الطفل الصغير الذى يشتغل فى نقل الأحجار الناتجة من النحت .

كله رشاقة وجمال ، خرج من يد فنان ، طرزه تطريزاً على الحجر الأصم ، فبدا حيًّا لا ينقصه إلا الكلام .

هنا فى قبر « تى » ابن الفلاح الذى وصل بجده ونشاطه إلى أعلى مراتب الدولة وتبوأ مركز الوزارة ورئاسة الكهنة فى عهد الأسرة الخامسة ، ترى فن « منف » وحياة « منف » .

هنا ترى الجزارين فى عملهم اليومى يقومون بذبح الماشية وسلخ جلودها .

هنا ترى الأوز يسمّن والبجع يغذى .

هنا ترى حصاد القمح وصناعة الزجاج وحليب الأبقار وتحصيل الضرائب الحكومية وصيد الطيور .

هنا ترى صالات الرقص والمراكب المعدة لصيد التمساح والعسنت (جاموس البحر المعروف أيضاً باسم فرس البحر) .

هنا ترى القزم يقود قرداً وكلباً .

هنا ترى الحياة طبيعية ناطقة منقوشة بدقة وأمانة .

هذا هو سر العظمة مع الفخامة والقوة مع النبالة التى تشاهد فى فن منف .

وبالرغم من بعض التغييرات القليلة فى بعض النواحى فقد احتفظ فن منف طول مدة حياته ، وتقدر بنحو ٥٠ قرناً بطرازه الأصلى .

وإنك لترى هذه الميزة ظاهرة تماماً ليس فقط فى المبانى ولكن أيضاً فى الرسوم المحفورة على الأحجار وفى التماثيل حيث تجد نفس الأوضاع ونفس الحركات ونفس القواعد محترمة بدقة متناهية .

وليس معنى ذلك أن هذا الفن فن رجعى لم يتقدم مع الأجيال . كلا ! فسوف ترى معنا بعد قليل بأى مهارة عرف أهل منف زخرفة مبانيهم بزخارف مختلفة جذابة تتطور مع الزمن تطوراً وقوراً متئداً يساير كل عصر من عصوره الطويلة . ولا شك أنك ستحكم بعد ذلك بأن هؤلاء القوم هم بلا مراء أساتذة العالم فى كل فن من فنونهم سواء فى الزخرفة أو التصوير أو فى فن تأثيث منازلهم أو حتى فى صناعة أدواتهم البسيطة الشائعة الاستعمال .

لا بد أنك ستلمس تلك المهارة الفائقة فى صناعة أوانى منف ومنسوجات منف وأثاثات وحلى نساء منف .

لا بد أنك ستلمس تلك المهارة الفائقة فى الطريقة التى كانت تزرع بها حقول منف ، وفى الطريقة التى كانت تدار بها دواوين الحكومة فى منف ، وفى الطريقة التى كان يمارسها كهنة منف لتعليم الشعب ولإقامة طقوسهم الدينية وختان أطفالهم ، وفى الطريقة التى كان يتبعها الكتبة فى منف لضبط حساب المحصولات الزراعية وتحصيل الضرائب الحكومية ، وفى الطريقة التى كان يتدرب عليها جيش فرعون بمنف ويمارس بها الفنون الحربية المختلفة .

لا بد أنك سترى فى أزياء الرجال وفى أزياء الأطفال وفى أزياء الخدم وذوى الحرف الأخرى وفى أغطية الرأس وفى صناعة النعال ما يجعلك تقر بأن هذه الأزياء تناسب بيئة منف وطقس منف .

لا بد أنك ستجد فى عادات القوم وفى ألعابهم الرياضية وولائمهم بمناسبة الأعياد والمواسم وأيام العطلة والحفلات العائلية ما يبهج النفس ويدخل عليها السرور والغبطة .

لا بد أنك ستجد فى حياتهم المنزلية وفى ألعاب أطفالهم وفى نظام مدارسهم ما يدلك إلى أى حد بلغت مدنية منف وحضارتها .

أنظر إلى الصور المنشورة بعد هذا الكلام ثم احكم على منف وحضارة منف وحياة منف وفن منف ! !

ومع وجود كل ما لدينا من ذخائر فن منف فاننا ما زلنا نجهل الكثير من الحقائق والنواحى التى ستكشفها لنا الحفائر المنتشرة فى نواحى عاصمة مصر القديمة العظيمة فى يوم من الأيام إن شاء الله .

و إذا دل فن منف على شىء من صفات أهله ، فانما هذا الشىء الناطق فى ثنايا هذا الفن هو الوقار المتناهى فى طباع هذا الشعب العظيم ، ولا غرابة فى ذلك ، فهذا فن نشأ فى أرض الآلهة ، أرض الصمت والوقار والتعبد ، وليس من صفات العبادة ، إظهار الغبطة ولا اللهو ولا المراح ، ولذا فانك تجد كل شىء فى هذا الفن من تماثيل وزخارف ونقوش ،وغير ذلك وقوراً محترماً .



الطريقة التى كانت تدار بها دواوين الحكومة فى منف .

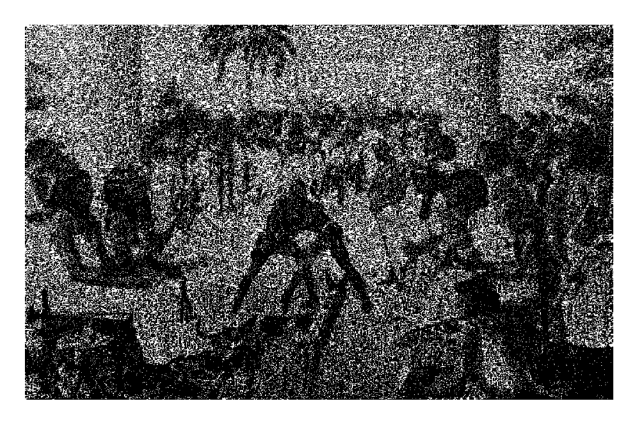
جماعة من الكتبة المعلمين فى ديوان من دواوين الحكومة . وقد جعلت تيجان أعمدة الديوان بشكل زهر اللوتس . وبجانب كل كاتب صندوق صغير من الخشب فيه أدوات الكتابة وهى مقلمة بها أقلام القصب (البوص) الرفيع ، ومحبرتان باحداها حبر أسود وبالأخرى حبر أحمر وبجوارها القوالب التى يصنع منها الحبر بواسطة مزجه بقليل من الماء وقد وضعت أمامه لفائف أوراق البردى التى يستعملها لتدوين ما يمليه عليه رئيس كتاب السجلات الملكية .

وكانت وظيفة الكاتب فى العصر المنفى وظيفة مرغوبا فيها جداً . والواقع أن الكتاب كانوا فخورين بعلوماتهم وبخاصة أنهم كانوا بحكم عملهم واقفين على كل القرارات الهامة فى مصالح الحكومة .

وكانت لهم ألقاب شرف خاصة مثل رئيس أسرار كل أوامر الملك ، رئيس أسرار كل القرارات القضائية ، رئيس أسرار الكلام المقدس ، رئيس أسرار محكمة العدل وغير ذلك .



الحياة الاجتماعية فى عصر منف — مأدبة رسمية أقامها رئيس الكهنة وقد وقفت الخادمات العاريات يقدمن للضيوف موائد وأطباق
من المأكولات والمشروبات والزهور بينما كانت الموسيقى تشنف آذانهم



تدريب الجيش فى عصر منف . وترى المصارعة بين حديين من أبطال الرياضة البدنية فى حضرة الأمير وزوجته الجميلة !

أثر الطقوس الدينية فى فنون منف :

كان قوام الديانة المصرية فى عهد منف الاعتقاد الثابت بالحياة الأخرى ، و بوجود القرينة أو بما يسمى « خا » ور بما تكون لفظة أخ وأخت العربية مشتقة من هذه الكلمة المصرية .

فكل إنسان يولد تولد معه القرينة ، وهى صورة طبق الأصل لجسمه ولروحه . وهذه القرينة تحيا بعد موته ولكن بشرط واحد وهو أن يحتفظ لجسمها بشكله الأصلى تماماً .

ومن أجل هذا الاعتقاد ، بذل أهل منف أكبر ما يمكن من الجهود البشرية ، فى سبيل الاحتفاظ بأجسامهم سليمة أطول مدة ممكنة ، وفى سبيل حمايتها من أى شىء يمكن أن يلحق بها الضرر . فاستعملوا التحنيط فى بادئ الأمر . ولكن خوفهم من أن لا تقوى المومياء على البقاء إلى الأبد ، جعلهم يضعون فى المقابر بجوارها صوراً حية للجثة فى أيام شبابها ، وصوراً تمثل الميت فى جميع أطوار حياته ، وتمثل ما كان يمارسه من الأعمال ، وصوراً تمثل كل حركة وكل شىء فى حياته الدنيا ، وذلك حتى تهتدى القرينة إلى صاحبها فتحيا معه حياة سعيدة ناعمة فى حقول أوزيريس اليانعة أى فى الحياة الأخرى .

وكانت نتيجة هذه الاعتقادات الدينية إقامة المبانى الضخمة المتناهية فى المتانة والتى لا تزال للآن أعجوبة الزمان وهى المعابد والأهرامات والمصاطب والمقابر المنحوتة فى الصخور . مع التفنن فى إخفاء الموميات فى طياتها حتى تبقى سليمة إلى يوم البعث .

وقد كثرت هذه المقابر أو قلاع الموتى حتى اكتظت بها جبانة منف اكتظاظاً هائلا فانتشرت وامتدت من أهرام أبو رواش شمالا حتى هرم اللاهون عند مدخل مديرية الفيوم جنوباً بطول ٨٠ كيلو متراً تقريباً كما قلنا سابقاً . وكان بهذه الجبانة كثير من معابد الشمس مصدر الحياة كما كان بها مقبرة للعجل « أبيس » . (السرابيوم)

الطراز الفرعونى فى فنون العمارة :

وتتمثل عظمة الجهود الأول الذى بذله العقل البشرى فى المظهر الرائع الذى ظهر به هذا الطراز الفرعونى الجذاب فى معابد ومقابر مدينة منف .

هذا الطراز الذى يتميز بطابع خاص فى تاريخ فن العمارة .

فهو فى أصله وتفاصيله وليد طبيعة بلاده لا يشوبه عنصر ولا طراز أجنبى . فهذه الأعمدة المضلعة فى معبد هرم « زوسر » الجنائزى ، وهذه الأعمدة ذات التيجان التى تمثل فروع النخيل وزهر اللوتس فى معبد فتاح ، وهذه المصاطب وهذه الأهرامات الناقصة أو الكاملة وهذه المسلات الرشيقة فى معابد الشمس ، إنما كلها مقتبسة من الطبيعة المحيطة بهذا المكان .

فن منف منذ عهد زوسر

يعد الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة والذى حكم سنة ٢٨٩٥ ق . م . تقريباً لمدة ٢٩ سنة أول ملك بنى لنفسه مقبرتين : واحدة منهما بصفته ملكا للوجه القبلى أقامها فى بيت خلاّف إلى شمال العرابة المدفونة بمديرية جرجا وجعلها على شكل مصطبة ضخمة من اللبن وبها منحدر عميق وعدة حجرات تحت الأرض .



حوالى ٢٨٩٥ ق . م اعتلى الفرعون زوسر رأس الأسرة الثالثة عرش مصر . وكان وزيره أمحوتب مهندساً قديراً ، فبنى له هرم سقارة المدرج ليدفن فيه بعد موته . وهذا الهرم مؤلف من سبع مصاطب بعضها فوق بعض ، وارتفاعه ١٩٠ قدماً وفى داخله أبهاء تنتهى ببئر كبيرة فى قاعها مخدع الملك . وكان الهرم مغطى بطبقة من الحجر الجيرى الدقيق ، يحيط به سور عظيم . وقد أقام أمحوتب حول هذا الهرم مدينة كاملة بها المخازن والأحواش والمصاطب والمقابر المخصصة لأفراد العائلة المالكة وكبار رجال المملكة . وخطط أمحوتب الهرم ومدينته الجنائزية وبناها دفعة واحدة . وتعتبر هذه المجموعة من أقدم المبانى الحجرية المعروفة فى العالم .

وتراه فى الصورة أمام مليكه فوق أحد أسوار مدينة الهرم ، وقد ارتدى جلد النمر شعار رئيس الكهنة وهى وظيفة من وظائفه العديدة يشرح المبنى وتفاصيله .

أما المقبرة الثانية فقد شيدها بصفته ملكا للوجه البحرى بجبانة منف على الهضبة الليبية وهى المعروفة الآن باسم هرم سقارة المدرج . ويقول علماء الآثار إن هذا البناء هو الحلقة المتوسطة بين المصطبة والهرم الحقيقى .

والمهندس الذى وضع تصميم هذا البناء الغريب الذى يعتبر أول وأضخم بناء من الحجر فى القطر المصرى هو « أمحوتب » الذى كان فوق نبوغه فى الهندسة ، رئيساً للكهنة ومؤلفاً قديراً له علم تام بالفلك والسحر والفلسفة والإدارة ، وكان فوق ذلك طبيباً ماهراً حتى إنه بعد موته اعتبر إلها للطب .

وقد عثر أخيراً فى أحد سراديب الهرم المدرج على تمثال جميل للملك زوسر كما كشفت الحفريات عن معبدة الجنائزى وعن مقبرتى ابنتيه . ويعد هرم زوسر ومعبده الجنائزى وملحقاته الأخرى ، أفخم وأجمل مجموعة من المبانى شيدت من الحجر السلطانى الجميل الناصع البياض المخلوع من محاجر طرة ، فى تاريخ فن المعمار .

وتعد الأعمدة المضلعة الجميلة التي تزين ردهات وواجهات المعبد الجنائزي ، ذات الست عشرة ضلعاً المقعرة والثماني عشرة ضلعاً المحدبة ، بشكلها الكامل ونسبها البديعة وقطاعها المتناسق ، من أجمل الابتكارات التي ترفع فن أمحوتب إلى القمة .

أما فكرة هذه الأعمدة فمأخوذة عن شكل حزمة من جزوع البردي موثوقة من الأسفل فتظهر فيها الأضلاع المقعرة والأضلاع المحدبة إذا ما أخذ فيها قطاع . ولا شك أن أمحوتب اقتبس قطاع أعمدته من هذا المنظر . ثم نقل عنه اليونان هذا الأنموذج الفذ وحوّلوه إلى العمود الدوريكي المشهور .

والآن يرجع الفن المعماري الحديث إلى فكرة الأعمدة المضلعة غير المستقلة والمتصلة بالحائط بعد أن ابتكرها أمحوتب في المعبد الجنائزي لهرم زوسر منذ ٥٠ قرنا مضت ! !

وقد عثر أخيراً في دهاليز الهرم المدرج على أوان من الأحجار الصلبة النادرة مثل المرمر والشست والجرانيت والديوريت والأردواز وغير ذلك ، يبلغ عددها أكثر من ثلاثين ألفاً ، غير أن معظمها وجد مهشماً ، وربما يرجع ذلك إلى زلزال أرضي أو إلى أنها قد كسرت عمداً لأسباب جنائزية . وقد وجد من بين هذه الأواني أشكال تنم عن منتهى الرقي في دقة الفن وحسن الذوق والأناقة والتنسيق إلى حد يعجز القلم عن وصفه . وقد وجد على بعضها أسماء الأشخاص الذين أهدوها إلى الملك مكتوبة بالمداد الأسود .

وقد كان لهذا الكشف أثر عظيم في تحويل آراء علماء الآثار إلى الأهرام الكبيرة أهرام خوفو وخفرع ومنكاورع وعما عساه أن يوجد فيها من المخلفات .

وقد قام الأستاذ زكي سعد مفتش الآثار بمنطقة سقارة بتنسيق كثير من هذه الأواني بعد إصلاحها في شبه متحف ملحق بمسكنه بطريقة جذابة مدهشة .

وإنه لحظ بديع لكل من تيسر له زيارة هذ المتحف ليرى بعينه ما لا يمكن وصفه ، خصوصاً وقد وضع الأستاذ زكي سعد داخل هذه الأواني أنواراً كهربائية ، فجعلت من متحفه منزلا سحرياً مشوقاً .

ولما حكم الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة سنة ٢٨٤٠ ق . م . تقريباً أراد أن يقلد جده العظيم زوسر ، فبنى لنفسه مقبرتين : الأولى في ميدوم بمركز الواسطى بمديرية بني سويف بشكل هرم ناقص على درجتين يبلغ ارتفاعه ٦٥،٤٣ متراً ، ويسميه العامة الهرم الكذاب لعدم انتظام شكله . وربما لعدم وجود تابوت في حجراته الجنائزية . وقد وجد بجوار هذا الهرم المصاطب التي دفن فيها عظماء المملكة في عصر سنفرو مثل « متين » حفيد الملك الذي تدل النصوص الهيروغليفية الموجودة على صفحات جدران مدفنه على تاريخ حياته ، وهي مرجع ثمين لتاريخ هذا العصر . وبالقرب من هذه المصطبة وجدت مصطبة « راحوتب » و « نيفرت » أصحاب التمثالين الشهيرين الموجودين بالمتحف المصري بالقاهرة . أما راحوتب فقد كان رئيساً للكهنة بعين شمس وقائداً . . الخ ، ولقبه « الأمير الملكي » . وأما زوجته « نيفرت » فكانت إحدى أميرات الأسرة المالكة . وهذان التمثالان أكثر التماثيل إظهاراً للحياة .

ولا يزال لونهما محفوظاً بدرجة مدهشة . ويلاحظ فيهما الفارق المعتاد بين لون بشرتيهما ، فقد اتخذوا للرجال اللون الأحمر أو الأسمر القاتم وللنساء اللون الأصفر .

أما المقبرة الثانية التي بناها سنفرو فتوجد في دهشور بمركز العياط بمديرية الجيزة ، وهي على شكل هرم كامل مربع القاعدة ، يبلغ ضلع قاعدته ٢١٥ متراً وارتفاعه ٩٥ متراً . وهذا أول هرم حقيقي تطورت إليه فكرة المصطبة منذ القدم .

أما خلفاء سنفرو الثلاثة أي الملك خوفو والملك خفرع والملك منكاورع فهم أصحاب الأهرامات الثلاثة الكبرى التي بنيت على الهضبة الليبية بالجيزة .

وربما كان السر في انتخاب هذا الموقع هو قرب هذه الهضبة من عين شمس مقر عبادة « رع » ثم اتساع هذه الهضبة وارتفاعها بحيث تشرف الأهرامات المقامة فوقها على كل ما حولها . وربما كان السر أيضاً ما ظهر من أن هذه الأهرامات بنيت بأحجار صلبة ومتينة قطعت من صخور هذه الهضبة نفسها ،وبذلك هدمت — كما قال الأستاذ سليم بك حسن في كتابه مصر القديمة (ج ١ ص ٢٨٨) — نظرية هيرودوت القائلة بأن أحجار الأهرام كانت تجلب إليها من محاجر طرة .

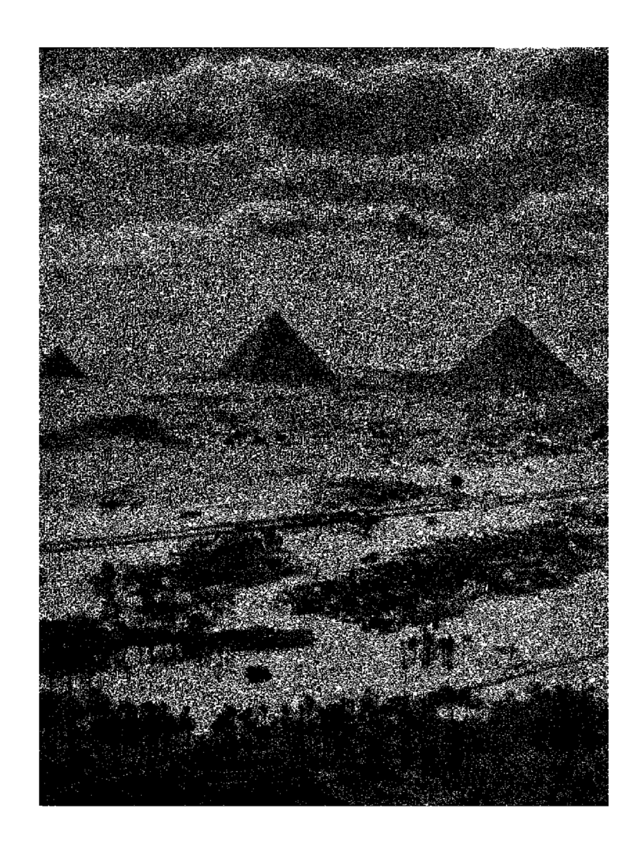
وهذا الخطأ وقع فيه بعض الأثريين الحاليين كما وقع فيه هيرودوت ، ولكن الحقيقة أن الأحجار التي كانت تكسو الأهرامات من الخارج فقط هي التي جلبت من محاجر طرة .

ولم تزل المحاجر التي قطعت منها أحجار الأهرامات ظاهرة واضحة بجوار كل منها يمكن لكل من يريد أن يراها الآن أن يفعل ذلك خصوصاً بعد أن أزيحت عنها الرمال والأتربة التي غطتها آلاف السنين .

وكذلك دلت الكشوف الحديثة على أن المصريين كانوا يستعملون « البكر » لرفع الأحجار، وقد عثر في حفائر الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول) على بكرتين إحداهما وجدت بجوار الهرم الثاني ، والأخرى عثر عليها في بيت من بيوت العمال الملحقة بالهرم الرابع .

وبذلك هدمت النظرية القائلة إن بناء الأهرامات كانت تبذل فيه نفوس الشعب وجهوده كما كان موضوع اضطهاد اليهود وغير ذلك مما كنا نقرأه في الكتب القديمة والحديثة أيضا .

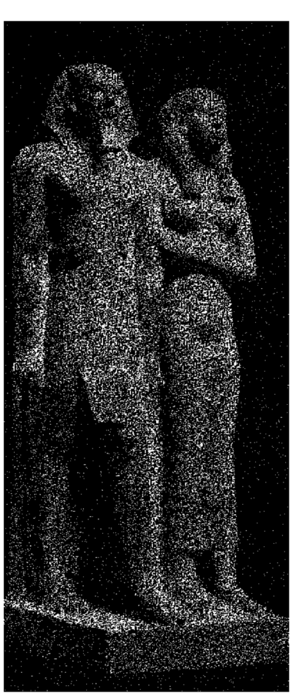
ويبلغ طول قاعدة هرم خوفو أي الهرم الأكبر الآن ٢٢٧,٥ متراً وارتفاعه الحالي ١٣٧ متراً ، ويبلغ حجمه ٢ $\frac{1}{2}$ مليون متر مكعب ، وعدد أحجاره ٢,٣٠٠,٠٠٠ ، ويبلغ وزن كل حجر منها ٢ $\frac{1}{2}$ طن ، أي أن مقدار وزن الهرم يبلغ ستة ملايين طن موزعة بمعدل ٥ $\frac{1}{2}$ كيلوجرام على السنتيمتر المربع ، وهذا شيء يتفق اتفاقا مدهشا مع أحدث قواعد تحميل الأرض الصخرية في هندسة المعمار الحديثة .



الهضبة الليبية التى أقيمت فوقها اهرامات الجيزة

صورة مأخوذة فى زمن الفيضان والحياض ملأى بمياه النيل وذلك قبل تحويل هذه الحياض إلى رى صيفى .

ولا شك أن السر فى إنجاز هذا العمل العظيم بسرعة فى الفترة التى ملك فيها الملك خوفو وقدرها ٢٠ عاما فقط يرجع إلى تنظيم العمل و إدارته بالطرق الفنية المنظمة .



منكاورع صاحب الهرم الثالث وزوجته .

تمثال منكاورع وزوجته وهو من حجر الشست . وقد عثر عليه العالم الأمريكى «ريزنر» فى معبد الهرم الثالث بالجيزة . ويمثل الملك وزوجته واقفين . ويمتاز هذا التمثال بالدقة المتناهية فى الصنع ، وهو يعد من أهم قطع الفن فى الدولة القديمة . وقد نقل هذا التمثال النادر المثال إلى متحف بوسطن بأمريكا .

ورغم أن الهرم الأكبر يعد أعجب شىء فى مصر ، فإنه لم يكشف عنه من كل جهاته ، ولا يزال معبده الجنائزى ومعبد الوادى مطمورين تحت الأرض . ولكن يظهر أن الطريق الموصل بين المعبدين كان ظاهراً فى عهد «هيرودوت» الذى زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد قال عنه إنه كان أعجب من الهرم نفسه .

وقد عثر فى الحفائر الحديثة إلى شرق الهرم الأكبر على صورة الملك خوفو وعلى سفينتين للشمس يبلغ طول الأولى ٥٥ متراً وطول الثانية ٤٠ متراً .

وبعد وفاة خوفو اعتلى العرش ابنه « ددف رع » لمدة ثمانى سنوات ، وهو الذى بنى هرم « أبو رواش » الذى تهدم ولم يبق منه إلا قاعدته .

ثم عاد الملك إلى « خفرع » صاحب الهرم الثانى وصاحب تمثال « أبو الهول » الذى يمثل أسداً برأس إنسان ، وقد يكون وجه هذا التمثال هو وجه الملك « خفرع » نفسه .

قال الأستاذ سليم بك حسن فى كتابه « مصر القديمة » :

تدل جميع الآثار التى كشفت فى هذه المنطقة على أن تمثال أبى الهول رمز للإله « رع » معبود عين شمس عند الغروب ، وهو

ما يسمى باللغة المصرية « آتوم » . وكان يعتبر فى نظر المصريين حارس الجبانة . وقد بقى اسم « حول » إله السوريين والكنعانيين ، وهو الذى أطلقوه على هذا التمثال فى عهد الأسرة الثامنة عشرة حين سكنوا فى القرية التى اقتطعها لهم الملك « آى » والتى سموها « حورنا » فى قرية « الحرانية » الحالية التى تقع على بعد ½ ٢ كيلومتر إلى الجنوب الشرقى من تمثال أبى الهول — كما بقى اسم الإله « حول » فى « بى حول » الذى حرف إلى « أبى الهول » .

وبعد موت خفرع خلفه منكاورع صاحب الهرم الثالث .

وقد دخل اللصوص هذا الهرم سنة ١٢٢٦م ونهبوا ما فيه من ذهب وحلى . وفى سنة ١٨٣٧ دخله الكولونيل « هاورد فيس » فوجد قطعاً من تابوت الملك منكاورع الخشبى كما وجد تابوتا من البازلت عمل على شحنه إلى إنجلترا ، ولكنه غرق مع السفينة التى كانت تحمله فى لجهورن فى ١٢ اكتوبر سنة ١٨٣٨ ولا يزال فى قاع البحر إلى الآن .

وقد كشف الدكتور « ريزنر » فى معبد الوادى « لمنكاورع » نفائس فنية ودينية ، وهذه المجموعة تعد أنفس مجموعة وجدت من مخلفات الأسرة الرابعة ومن بينها مجاميع إلهات المقاطعات . وكشف كذلك تمثالا لمنكاورع وزوجته فى قطعة واحدة بالحجم الطبيعى تقريباً من حجر الشست وتعد هذه القطعة من أجمل قطع الفن المصرى فى هذا العصر . ويمتاز هذا التمثال بالدقة المتناهية فى الصنع وهو يمثل الملك وزوجته واقفين .

وقد نقل هذا التمثال ومعه المجموعة الأخرى التى عثر عليها الدكتور ريزنر إلى متحف بوسطن بأميركا .

ولم يجد المتحف المصرى بداً من أخذ قالب لهذا التمثال لأهميته ليعرضه فى خزائنه . بينما يظل التمثال الأصلى لأحد ملوك مصر فى متحف بوسطن ! !

نظام المبانى وتخطيط الحدائق فى منف

كانت مساكن الطبقة الغنية فى منف تبنى من الحجارة ، وكانت كبيرة المساحة تشيد فى وسط حديقة واسعة تحتوى فى أركانها على مطابخ وورش واصطبلات .

والبيت مربع الشكل تقريباً ينقسم إلى ثلاثة أجزاء كل جزء منها قد اتسعت أرجاؤه وزادت غرفه فى العد والحجم فشيدت الأعمدة فى بعضها . وهو يحتوى على بعض الحجر المستعملة كمخازن للغلال والزيت والنبيذ فى الأدوار السفلى . كما يحتوى أجنحة خاصة باستقبال الضيوف والزوار وإقامة الولائم فى الأعياد والحفلات ، وأخرى خاصة بإقامة صاحب البيت وأسرته .

أما السلم فكان يشيد فى بعض البيوت فى البهو ويشيد فى البعض الآخر خارجها . وقد اقتصرت المبانى على دور واحد أو دورين فقط .

وكان لسطح المسكن أهمية خاصة إذ أنه كان يستعمل كمخزن ، كما كان يستعمل للنوم فى أيام الصيف حيث



منزل أحد أعيان منف بحديقته البديعة المنمقة بالزهور والأشجار البديعة تتوسطها بركة جميلة ينمو فيها البشنين وزهر اللوتس ويلعب حولها الأطفال

يشتد الحر ويكثر الذباب والبعوض فى الأدوار السفلى ، وكثيراً ما كان يشيد فوق السطح مظلات بأعمدة بديعة الشكل ليأوى إليها سكان الدار والنساء عند انتهاء العمل اليومى .

وكانت جدران هذه المساكن كلها مزخرفة بالنقوش والصور الجميلة ، وكان أمام مدخل المنزل شرفة مرتفعة سقفها محمل على عمودين ضخمين ، وكانت السقوف محلاة برسوم تمثل السماء والنجوم والشمس والقمر أو الطيور . كما كانت أرض الغرف تحلى برسوم البط والأوز بأشكال وأوضاع بديعة .

أما البوابة الرئيسية الخارجية للمسكن فكانت دائماً مرتفعة عن الأسوار المحيطة بها تبدو ضخمة هائلة مزخرفة باعتناء زائد .

وإذا ما دخل الإنسان إلى حديقة منزل أحد الأغنياء بمنف يجدها حديقة بديعة منمقة بالزهور والأشجار الجميلة تتوسطها بركة صناعية ينمو فيها البشنين واللوتس ، لها حوائط مبنية باعتناء . بها درجات ينزل بواسطتها الإنسان إلى الماء ، وهى مقامة فى الجهات الأربع من البركة . وكثيراً ما يقف المالك تحت شرفة منزله مع أفراد أسرته يشرف على الحديقة وقد اجتمع أطفال الجيران للعب فيها مع أطفال صاحب المنزل . وتبدو على الجميع مظاهر النعمة والرفاهية . وها هى خادمة تعود من الحقل وعلى رأسها سلة مليئة بالخضراوات وفى يدها بعض الطيور .

ومما يلاحظ أن الصبيان كانوا يلعبون دائماً على انفراد لعبتهم المحبوبة « دورى يا دوارة » وهم عراة تماماً ، وقد



زيارة أم الملك حوفو صاحب الهرم الأكبر لابنها فى قاعه العرش . وترى الملكة الوالدة « حتب — حرس »
محمولة فى كرسيها الثمين على أكتاف رجال حاشيتها وخلفها جماعة من نساء الحرم الملكى .
وتحت هذا الكرسى سار الفرم المقدس وعلى أكتافه قرد صغيرلمنع تأثير العين والسحر

قصت شعورهم ما عدا خصلة واحدة تترك على الجانب الأيمن من الرأس للدلالة على أن صاحبها ابن أحد النبلاء أو الأغنياء . أما البنات فكن يلعبن كذلك على انفراد بالكرة لعبتهم المحبوبة ولهن فيها حركات رشيقة .

وقد وقف طفل صغير يلاعب كلبه . أما الطفلة الصغيرة فوقفت بجوار وطنها تحمل لعبتها ، وهناك طفل آخر يصطاد السمك من البركة .

ونظرة واحدة إلى الصور المنشورة مع هذا الكلام تعطيك فكرة واضحة عن حياة النبلاء عنف ، وعن نظام مبانيهم وتنسيق حدائقهم وطرق تزينهم . فها هى الملكة « حتب حرس » أم الملك حوفو وزوجة الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة وهى محمولة فى كرسيها الثمين وذاهبة فى حاشية ملكية براقة لزيارة نجلها الملك فى قاعة العرش . أنظر إلى الثياب المصنوعة من الكتان الرقيق الأبيض التى تلبسها نساء الحرم الملكى ، وهى كما تراها فى الصورة ضيقة بدون أكمام تكسو الجسم من الصدر إلى الرجلين وتعلق على الكتفين بشريطين ، أنظر إلى شعورهن وقد أرسلنها إرسالاً أو ضفرنها بضفائر من الشعر المستعار ، وربطن شعورهن بشرائط رفيعة .

ثم انظر إلى صورة هذه السيدة الجميلة الأميرة « ست حاتور يونت » بنت الملك سنوسرت الثانى وشقيقة الملك سنوسرت الثالث وعمة الملك أمنمحات الثالث . أنظر كيف تهتم بشؤون الزينـة فقد وضعت القلائد والعقود فى صدرها وحول عنقها ، والأساور الذهبية فى معصمها والكحل فى عينيها وعلى حواجبها ، ثم هى تنظر بعد ذلك فى مرآتها الفضية لترى سحر جمالها الفتان وتأثير نظراتها الخلابة .

أما جواهر هذه الأميرة المسكينة وأدوات زينتها التى طالما اعتزت بها فقد دفنت بجوارها فى مقبرتها الملكية بجوار أهرام والدها باللاهون لتتمتع بها فى الحياة الأخرى كما تمتعت بها فى هذه الحياة الدنيا ، ولكن تشاء الأقدار أن تذهب هذه النفائس إلى متحف المتروبوليتان بنيويورك بأمريكا ، ولا ينال مصر منها إلا الشيء التافه القليل ! !



الأميرة « ست — حاتور — يونت » بنت الملك سنوسرت الثانى وشقيقة الملك سنوسرت الثالث وعمة الملك أمنمحات الثالث .

ولا بد هنا بمناسبة ذكر هرم اللاهون من كلمة عن مدينة العمال التى أنشئت بجوار هذا الهرم لأنها أول أنموذج لتخطيط المدن فى العالم ، فقد رسمت شوارعها بنظام دقيق على خطوط مستقيمة تتقاطع على زوايا قائمة كتقسيم لوحة الشطرنج وجعلت فيها مجار عمومية لتصريف فضلات بيوت العمال وللمحافظة على الصحة العامة . وهذا أول مشروع مجارى عمومية لمدينة عرف فى العالم .

ثم انظر بعد ذلك إلى الكاهن « خا — آبر » المعروف تمثاله الخشبى بالمتحف المصرى باسم تمثال « شيخ البلد » وذلك لما وجده العمال الذين عثروا عليه من تشابه قريب بين شكل هذا التمثال وشكل شيخ البلد بسقارة وقتئذ عند اكتشافه بواسطة ماريت باشا سنة ١٨٦٠ .

أنظر إلى الحياة الطبيعية الناطقة فى عينى هذا التمثال ، إن شفته تكاد تتحرك !

أنظر إلى الدقة والأمانة فى التعبير عن هذه التقاطيع المصرية الصميمة التى لم يغيرها الدهر منذ آلاف السنين .

العينان مرصعتان ، وحافتهما من النحاس الأحمر ، و بياضهما من الرخام ، وقرنيتاهما من الحجر المتبلور ، أما أنساناهما فيمثله رأس مسمار من النحاس الأصفر .

تصور هذا الكاهن بعباءته المصنوعة من جلد الفهد يلبسها فوق ردائه الواسع المصنوع من الكتان الأبيض وفى رجليه حذاء بسيط مصنوع من نبات البردى وقد أسرع إلى المعبد لإقامة الطقوس الدينية أو لعقد زواج أو للإشراف على عملية ختان الأطفال .

تصوره وقد أسرع إلى البلاط الملكى لحضور مجلس الوزراء المنعقد تحت رئاسة فرعون ، ثم قل أليس هذا الكاهن فى هذا الوضع صورة طبق الأصل لرجال الأعمال الحاليين ! !



عظماء مصر

تمثال من الخشب يكاد ينطق عرف باسم « شيخ البلد » ، ذلك أن العمال الذين عثروا عليه رأوا فيه شبهاً كبيراً بشيخ بلدة سقارة وقتئذ . العينان مرصعتان ، وجفناهما من النحاس الأحمر ، وبياضهما من الرخام ، وقرنيتاهما من الحجر المتبلور ، أما إنساناهما فيمثله رأس مسمار من النحاس الأصفر .
وقد عثر ماريت باشا على هـذا التمثال فى سنة ١٨٦٠ وهو تمثال لـكاهن مصرى (كا - آبر) من الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ — ٢٤٢٠) ق . م

الفصل الثالث

أهرامات الجيزة وسـقارة

وبعض آثار منف الأخرى

تريد الأساطير أن تنشر حول هذه الصروح الضخمة المتوغلة فى القدم قصصاً خيالية عجيبة نلخصها فيما يلى :

١ — تصور بعض الكتاب القدماء من ذوى الخيال الخصيب ، أن أهرام الجيزة ، إنما هى مخازن الغلال ، التى شيدها يوسف الصديق ، لجمع الفائض من القمح فى السبع سنوات الخصبة لأجل مواجهة المجاعة فى السبع سنوات المجدبة .

٢ — وفى القرون الوسطى ، اعتقد العرب ، أن هذه الجبال الشامخة المشيدة من الأحجار الضخمة ، إنما أقيمت لإخفاء كنوز الفراعنة العظام فى باطنها ، فاقتحموا مداخلها للوصول إلى هذه الكنوز ولكنهم وجدوها خاوية ومنهوبة منذ القدم .

٣ — وعاد بعض الباحثين يقررون أن أهرام الجيزة ، إنما كانت مستعملة كرصد لدراسة حركة تنقلات بعض الكواكب السيارة فى السماء .

٤ — وقال آخرون إن هذه الصروح الضخمة ، إنما سخر اليهود فى بنائها لما اشتد فرعون على بنى إسرائيل فى عهد اضطهادهم الطويل بمصر .

٥ — وهناك أيضاً من يقول إن أهرام الجيزة أقيمت تخليداً لذكرى أهم ظاهرة فلكية عرفت فى العالم ، ألا وهى تاريخ ظهور النجم المعروف باسم « الشعرى اليمانية » أو « سوتيس » فى السماء . ويعتبر هذا التاريخ فى علم الفلك تاريخ ابتداء الحساب بالسنة الشمسية فى العالم، وهو فى الوقت نفسه تاريخ تنظيم نتيجة السنة المصرية القديمة بجامعة عين شمس . ومما يلاحظ أن أول هذه السنة يوافق بداية فيضان النيل .

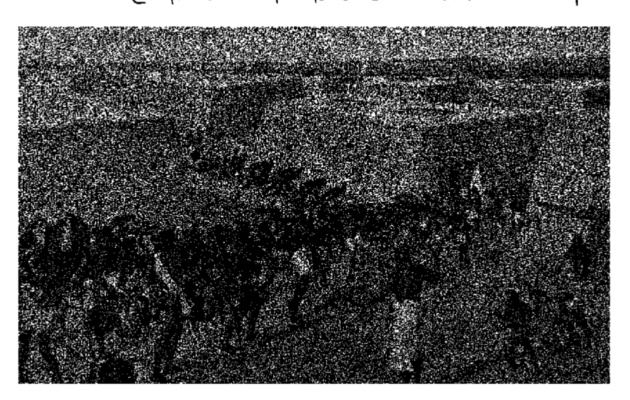
٦ — ولكن كتاب الإغريق القدماء هم وحدهم الذين وفّقوا إلى تحديد الغرض الأصلى الذى من أجله أقيمت هذه الأهرام ، وهى أن تكون مجرد مقابر لملوك مصر فى عهد الدولة القديمة .

من المصطبة الى الهرم :

طبقاً لاعتقادات قدماء المصريين ، كان من الضرورى ،لأجل احتياجات روح المتوفى ، أن تحنط جثته بعد موته.

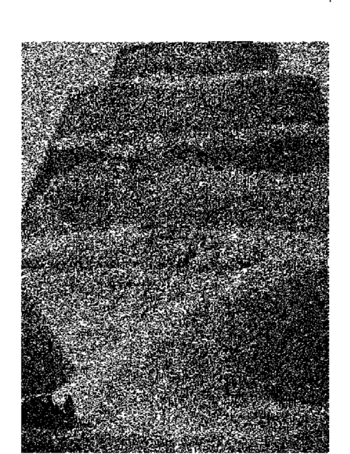
ولأجل حماية الجثة المحنطة من عوامل التحليل كمياه الرشح مثلاً ، ومن لصوص المقابر ، خصوصاً إذا كانت الجثة جثة ملكية ، كان من الضرورى وقايتها و إخفاءها باحكام تام . فقرر الكهنة فى عصر الأسر القديمة الأولى وضع التوابيت التى تحوى جثث الملوك فى سراديب منقورة فى الصخر الأصم تحت طبقات من المصاطب المستطيلة المبنية من أحجار ضخمة بشكل مهرم ناقص . وقرروا أيضاً أن تكون هـذه المقابر الملـكية أعلى منسوباً وارتفاعاً عن المقابر أو المصاطب المحيطة بها ، إبرازاً للشخصية الملكية من جهة ، ولتكون مشرفة على مصاطب الرعية بعد الموت كما كان الملك مشرفاً على أصحابها فى الحياة من جهة أخرى .

وعلى أساس هذه النظرية ، كلف المهندسون بتصميم المقابر الملكية . فلأجل أن يجعلوها أعلى من المقابر المحيطة بها ، وضعوا المصاطب درجات متوالية فوق بعضها ، فتكوّن من هذا الوضع هرم مدرج يعتبر هرم الملك زوسر المدرج بسقارة الأنموذج الأول منه فى تاريخ العمارة بالعالم ، وتعتبر كل درجة من درجات هذا الهرم مصطبة مستقلة عن سواها . ثم أرادوا بعد ذلك تهذيب هذا الشكل فبنوا هرم ميدوم للملك سنفرو كهرم مدرج بقاعدة مربعة لا مستطيلة .



جبانة منف — زيارة الموتى وتّرويد المصاطب فى جبانة منف بجميع أنواع المأكولات والزهور والخضراوات واللحوم والذبائح والطيور والفواكه ، حتى إذا ما عادت روح الميت إلى الجثة المحنطة تجد ما تقتات به فى القبر . وهذه صورة خدم أحد العظماء ينقلون إلى قبر سيدهم كل أنواع المآكل يوم الزيارة . وقد جلس حارس الجبانة الشيخ تحت مظلة بجوار إحدى المصاطب بينما أخذ هذا الطفل ينقل قرب الماء إلى العمال الذين يشتغلون فى نقل أحد التماثيل إلى مقبرة من المقابر . وأخذ أحد رؤساء الخدم يحث إخوانه على سرعة المرور قبل وصول التمثال إلى طريقهم . وفى أوائل عصر الأسرة الثالثة حل محل القبر الذى يعلوه بناء آخر ، بناء من اللبن على شكل مستطيل عظيم الحجم يطلق عليه حالياً اسم مصطبة . ويختلف شكل المصطبة فى العصر المنفى عن سابقه ، فقد أصبح مستطيلا وجدرانه من الحجر الجيرى المهذب . وقد تحتوى المصطبة على أكثر من باب واحد ويقام بابها الوهمى فى الجهة الشرقية .

وكان هذا الهرم مكوناً من درجتين عاليتين فى الأصل ، ثم فكروا فى ملء ما بين الدرجتين بالمبانى للحصول على شكل هرمى كامل ، فكانت النتيجة الحصول على شكل برج بقاعدة مربعة . ولذا فقد اعتبر هذا الهرم الحلقة الوسطى بين الهرم المدرج والهرم الكامل فى تطور بناء الأهرام .



هرم ميدوم بجوار مدينة الواسطى على بعد ٦٠ ميلاً جنوبى القاهرة . بناه الملك سنفرو ولكنه لم يدفن فيه . ويعد هذا الهرم المرحلة الأولى فى التطور المعمارى بين الهرم المدرج والهرم الكامل الذى أقيم بالجيزة .

ثم استمر التطور للحصول على الشكل الهرمى الهندسى الكامل وكان لا بد للنجاح فى هذا الغرض من التعديلات الآتية :

أولا — جعل قاعدة الهرم مربعة بدلا من القاعدة المستطيلة التى اقتبست فى الأصل من مصاطب منف المستطيلة الشكل .

ثانيا — الانتقال من الشكل الهرمى الناقص المنتهى من أعلى بسطح أفقى إلى الشكل الهرمى الكامل المنتهى من أعلى بقمة مدببة .

ثالثا — بناء أضلاع الهرم بشكل مثلث متساوى الساقين ثم جعل أضلاع الهرم الأربعة متساوية تماماً .

وسرعان ما توصل المهندس المصرى القديم إلى بناء الهرم الكامل ببراعة فائقة . وإليك البيان :

يوجد فى دهشور هرم كامل ولكن أضلاعه مبنية على زاويتين مختلفتين بحيث يبدو ضلعه كخط متكسر ، وقد يكون صاحب هذا الهرم هو الملك « حونى » آخر ملوك الأسرة الثالثة ، ولو أن ذلك أمر لم يتحقق بعد .

وقاعدة هذا الهرم مستطيلة يبلغ أكبر أطوالها ١٨٨٫٥٦ متراً كما يبلغ ميل الجزء الأسفل على الأفقى ٥٤° والجزء الأعلى ٤٢° . وينتهى هذا الهرم من أعلى بسهم مدبب ويبلغ ارتفاعه ٩٧٫٢٠ متراً . ويسمى هذا الهرم « الهرم ذو الخطوط المنكسرة » أو الهرم المعنم .

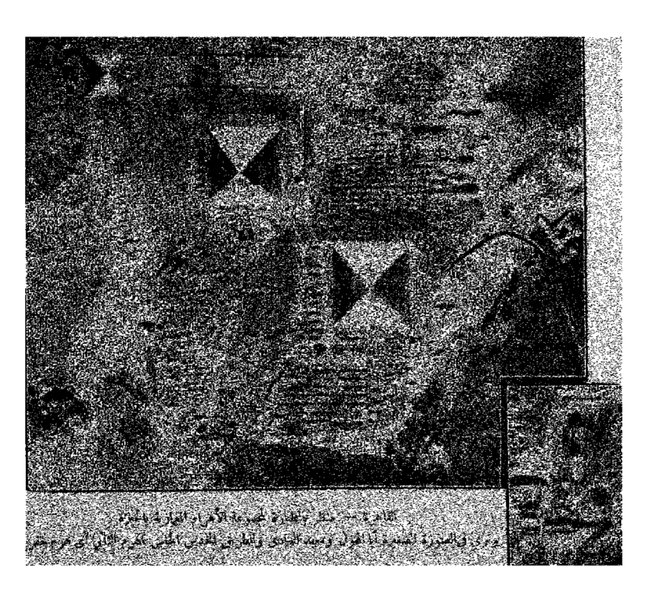
ولا توجد نصوص فى غرف هذا الهرم تدل على صاحبه ، وإذا كان البعض يفرض أن صاحب هذا الهرم هو

الملك « حونى » فذلك لأنه يمثل خطوة الانتقال الأخيرة بين هرم زوسر المدرج وبين هرم سنفرو الكامل الذى أقامه فى دهشور بعد أن نبذ هرمه الأول المبنى بشكل برج مربع بميدوم .

وتبدو أبعاد هرم سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة بدهشور وقد بلغ طول قاعدته المربعة ٢١٣ مترا وارتفاعه ٩٩ مترا الخطوة الأولى فى طريق بناء أهرام الجيزة ذات الأبعاد المتناهية فى الضخامة والعظمة .

كما يعد بناء هذا الهرم الخطوة النهائية الحاسمة التى وفق بواسطتها المهندس المصرى القديم إلى شكل الهرم الهندسى الحقيق .

فلما تحققت فكرة الهرم الهندسى كاملة واضحة ، قرر الكهنة تعديل مواقع الأمكنة المخصصة لإقامة الطقوس الدينية والجنائزية فى الأهرام ، فنقلت قاعة القرابين والذبائح والتقدمات التى كانت تقام فى الأصل داخل المصاطب إلى الخارج ، وأطلق عليها اسم « معبد الهرم الجنائزى » . و بعد أن كان هذا المعبد يقام إلى شمال الهرم تقرر نهائياً أن يقام شرق الهرم فى اتجاه الشمس وفى اتجاه شاطىء نهر النيل .



أما قاعة الدفن فبقيت داخل الهرم ، فى مركز ثقل المبنى أو جعلت فى سراديب منقورة فى الهضبة التى أقيمت عليها الأهرام .

وجعل مدخل الدهليز المؤدى إلى قاعة الدفن فى الضلع الشمالى من الهرم مع إخفائه جيداً بأحجار ضخمة لتضليل لصوص المقابر .

وكان لكل هرم معبد ثان خلاف المعبد الجنائزى المذكور سابقاً يقام فى الأراضى الزراعية المجاورة ويسمى « معبد الوادى » . وكان معبد الوادى هذا يتصل بالمعبد الجنائزى بطريق مائل يسقف أحيانا ويعرف باسم « الطريق المقدس » . وكانت أرضية الطريق المقدس ترصف بأحجار جيرية ضخمة .

فمن المبنى الهرمى الشكل ومن معبد الوادى ومن الطريق المقدس ومن المعبد الجنائزى كانت تتكون المقبرة الملكية المعروفة لدى مهندس مصر القديمة باسم « مجموعة الهرم المعمارية » .

وقد كشف الأستاذ سليم بك حسن فى حفرياته بسقارة سنة ١٩٣٧ طريق معبد الوادى أو الطريق المقدس الخاص بهرم « أوناس » فوجد طوله ٦٦٠ متراً وعرضه ستة أمتار وسبعين سنتمترا بما فى ذلك سمك الحوائط المقامة على الجانبين ، كما وجد أن عرض الممر المؤدى من سرداب الهرم إلى الطريق المقدس المذكور ٢٫٦٠ متراً . وكان هذا الطريق مسقوفا بأحجار سمكها ٤٥ سنتمتراً .

حقول الأهرام بوادى النيل

يوجد بمصر والسودان حقلان مشهوران من حقول الأهرام .

فالحقل الأول يقع على الهضبة الليبية التى تتمشى مع حدود الوادى الغربية .

ويمتد هذا الحقل من هرم أبو رواش شمالا حتى هرم هوّاره بمديرية الفيوم جنوباً .

أما الحقل الثانى فيقع بالسودان بمنطقة « ميرويه » « ونا باتا » .

وقد بنيت هذه الأهرام فى عهد ملوك ميرويه يوم كانت « ناباتا » عاصمة القطر المصرى تحت حكم الأسرة الخامسة والعشرين الحبشية من سنة ٧١٦ إلى سنة ٦٦٣ ق . م .

أهرام أخرى

وقد أقام أيضاً بعض ملوك الدولة الوسطى أهراماً أخرى فى منطقة طيبة (الأقصر) .



منظر جبل أبو رواش حيث توجد محاجر قديمة غنية بأحجارها المختلفة من جيرية ورملية بنى منها هرم أبو رواش وسواه من أهرام الجيزة . وترى فى الصورة جزءاً من طريق السيارات الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية .

مواقع بعض الأهرام

أقصى هرم معروف الآن بمصر إلى جهة الشمال هو هرم أبو رواش الواقع على بعد ثمانية كيلومترات إلى شمال أهرام الجيزة على الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية . إلا أنه كان يوجد هرم آخر أقصى منه شمالا وكان يقع بأتريب بجوار بنها . وقد رأى علماء الحملة الفرنسية هذا الهرم وذكروه فى مؤلفاتهم .

وقد احتفت آثار هذا الهرم الآن ولكن موقعه معروف لدى علماء الآثار .

حقل الأهرام الكبرى بالهضبة الليبية

يشمل هذا الحقل الأهرام التالية :

١ — هرم أبو رواش — بناه الملك « ددف رع » ابن الملك « خوفو » من ملوك الأسرة الرابعة . ولسوء الحظ تهدم هذا الهرم وكاد أن يندثر .

٢ — أهرام الجيزة و بيانها كالآتى :

هرم خوفو من ملوك الأسرة الرابعة

هرم خفرع « « « «

هرم منكاورع « « « «

هرم الملكة خنت كاوس بنت منكاورع من ملوك الأسرة الخامسة

٣ — هرم زاوية العريان — وهذا هرم غير تام البناء ربما يكون خاصاً بالملك نفرخا من ملوك الأسرة الثالثة لأن اسم هذا الملك وجد محفوراً على بعض أحجار جلبت من بقايا هذا الهرم .

٤ — أهرام أبو صير — وهنا توجد أهرام ومعابد الشمس الخاصة بالملوك الآتية أسماؤهم :

هرم أوسرخاف ابن الملكة « خنت كاوس » من ملوك الأسرة الخامسة

هرم سحو رع من ملوك الأسرة الخامسة

هرم نفر إركارع (كاكاو) من ملوك الأسرة الخامسة

هرم نوسر رع من ملوك الأسرة الخامسة .

٥ — أهرام سقارة وهى :

هرم زوسر المدرج من ملوك الأسرة الثالثة ، وقد قام ببناء هـذا الهرم ومعبده ذى الأعمدة المجذعة المهندس أمحوتب . و بعد كشف هـذا المعبد ظهر لأول مرة أن العمود الدوريكى المجذع منشأه مصر لا بيلاد اليونان كما كان الاعتقاد منتشراً قبل هذا الكشف .

هرم أوناس من ملوك الأسرة الخامسة

هرم تيتى من ملوك الأسرة السادسة

هرم مرن رع « « « «

هرم بيبى الأول « « « «

هرم بيبى الثانى « « « «

وقد ظهر فى حفريات سنة ١٩٣٧ بسقاره أنموذج جديد لهرم خاص بنبيل اسمه « نيبتكا » كان يعيش فى عصر الأسرة الأولى فى عهد الملك « أوديمو » (دن) .

وكان هرم « نيبتكا » هذا هرماً مدرجاً مبنياً بالطوب ، وقد ترك قبل إتمامه ثم أقيمت فوقه مصطبة مستطيلة الشكل .

وفى سنة ١٩٣٠ اكتشفت الأهرام التالية بسقارة وهى :

هرم خنزر — من ملوك الأسرة الثالثة عشرة . وقد نقلت القمة المهرمة التى كانت بأعلى هذا الهرم إلى المتحف المصرى بالقاهرة وهى من حجر البازلت المصقول .

هرم آبا — من ملوك الأسرة السابعة .

وأخيراً هرم الملكة أودجبتن زوجة ببى الثانى (الأسرة السادسة) . وهذا الهرم قريب جداً من المقبرة التى يطلق عليها حالياً اسم مصطبة فرعون وهى مقبرة الملك شبسسكاف آخر ملوك الأسرة الرابعة .

٦ — أهرام دهشور وهى :

هرم بسيط مبنى باللبن للملك سنوسرت الثالث من ملوك الأسرة ١٢

هرم سنفرو الشمالى وهو مبنى من الأحجار الضخمة وهو أول ملوك الأسرة الرابعة

هرم الملك امنمحات الثانى وهو مبنى من اللبن وهو من ملوك الأسرة ١٢

هرم الملك امنمحات الثالث « « « « « « « « «

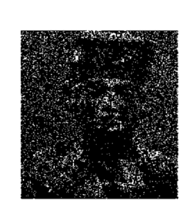
ثم هرم آخر غير معروف صاحبه ، وهو مبنى من الأحجار الضخمة . وقد يكون صاحبه الملك « حونى » آخر ملوك الأسرة الثالثة كما قلنا سابقاً .

ثم يلى هذه الأهرامات إلى الجنوب الأهرام التالية :

٧ — أهرام اللشت

٨ — أهرام ميدوم

٩ — أهرام هوّارة



وهذه خارج منطقة القاهرة . وسنتكلم عنها فى المكان الخاص بها .

ويبلغ عدد الأهرام بمصر والسودان نحو سبعين هرماً لم يبق منها قائماً إلا ثلاثين هرماً فقط .

وإليك الآن بعض البيانات المفيدة عن أهرامات الجيزة وسقارة وسواحلها .

هرم خوفو :

خوفو صاحب الهرم الأكبر

كان ارتفاعه فى الأصل ١٤٦٫٥٠ متراً ، وأما اليوم فارتفاعه ١٣٧ متراً بسبب تساقط أحجار قمته ، وكان طول كل ضلع من أضلاع قاعدته فى الأصل ٢٣٠٫٣٥ متراً ، ومن تساقط الأحجار أصبح طول الضلع الواحد ٢٢٧٫٥٠ متراً .

ومقاس الزاوية بين وجهات هذا الهرم والأفق ٥٠َ ٥١ْ ، وتبلغ مساحته ١٣ فداناً . ويبلغ حجمه نحو مليونين ونصف مليون من الأمتار المكعبة . أما عدد أحجاره فيبلغ نحو ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ . ووزن كل منها ٢ ونصف طن ، أى أن مقدار وزن الهرم يبلغ نحو ستة ملايين طناً موزعة بمعدل ٥ ونصف كيلومتر على السنتيمتر المربع . وهذا شيء يتفق اتفاقاً مدهشاً مع أحدث قواعد تحميل الأرض الصخرية فى هندسة المعمار الحديثة كما قلنا سابقاً . وقد تم بناؤه حوالى سنة ٣٧٣٣ ق . م . وهو أقدم عجائب الدنيا السبع .



خفرع صاحب الهرم الثانى

هرم خفرع :

كان ارتفاعه فى الأصل ١٤٣٫٥٠ متراً ، وبسبب تساقط أحجار قمته أصبح ارتفاعه ١٣٦٫٤٠ مترا . وكان طول كل ضلع من أضلاع قاعدته ٢١٥ مترا ، وبسبب تساقط الأحجار أصبح طول الضلع الواحد ٢١٠ مترا . وهو أقل حجما من هرم خوفو وقد فتحه «بلزونى» سنة ١٨١٨ . وهو يقع على طريق مصر — الفيوم الصحراوى . وقد تم بناؤه حوالى سنة ٣٦٦٦ ق . م .



منكاورع صاحب الهرم الثالث

هرم منكاورع :

فتحه الكولونيل هوارد فيس سنة ١٨٣٧ . ويبلغ ارتفاعه الحالى ٦٣ متراً وطول كل ضلع من أضلاع قاعدته الحالية ١٠٣٫٥٠ متراً . وقد تم بناؤه حوالى سنة ٣٦٣٣ ق . م .

هرم سقارة المدرج :

قاعدته مستطيلة وأبعادها ١٢٣٫٩ × ١٠٣٫٢ متراً . ويبلغ مجموع ارتفاع الدرجات السبع المكونة لهذا الهرم ٦٠ متراً ، وتبلغ مساحته ومساحة معبده الجنائزى حوالى عشرة أفدنة .

متون الأهرام :

يجب هنا أن نذكر أنه حتى فى عهد المباحث الحديثة لم يعثر على أى نصوص منقوشة على أهرام الجيزة الكبرى، ولم يذكر اسم « خوفو » فى الهرم الأكبر إلا فى موضعين اثنين وهما فى القاعتين الرابعة والخامسة من سلسلة القاعات الخمس الفارغة التى أقيمت فوق قاعة تابوت الملك لتخفيف الحمل عن سقف هذه القاعة . وحتى فى هاتين القاعتين لم يكتب اسم الملك « خوفو » إلا بالبوية الحمراء ، بواسطة رؤساء عمال محجر طره الذين كتبوا هذا الاسم على الأحجار المخلوعة من هناك خصيصاً لبناء الهرم الملكى .

ذكر الشيخ عبد اللطيف الطبيب البغدادى الذى زار مصر بعد هيرودوت بألف سنة أن الحجر الذى كان عند مدخل الهرم الأكبر ، وقد اختفى الآن ، كان يحمل بعض الكتابات الهيروغليفية .

وكان لكل هرم اسم خاص ، فمثلا كان اسم هرم خوفو « آخت خوفو » ومعنى ذلك « أفق خوفو » . واسم هرم سنفرو المبنى بشكل برج بميدوم « أفق سنفرو الجنوبى » واسم هرم سنفرو المبنى بشكل هرم كامل بدهشور « أفق سنفرو الشمالى » .

وبعكس ما هو حاصل فى الأهرام التى أقيمت بالجيزة ، فقد وجد العالم مسبرو فى أهرام ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة بسقارة سنة ١٨٨١ النصوص المعروفة باسم « متون الأهرام » . وتحوى هذه النصوص — وهى مكتوبة بلغة بليغة — كل ما سيحصل للملك صاحب الهرم فى العالم الآخر بعد موته . ونعلم من هذه النصوص أن جلالته يريد ألاّ يعامل بنفس الطريقة التى يعامل بها سائر الناس ، بل يريد أن يكون مساويا للآلهة . ويريد أن يشرف على العالم مع الشمس (الإله رع) فى المركب المقدسة ، ويريد أن يكون هو نفسه إلها ، وبالطبع كان الكهنة يلقبونه باسم الاله بعد موته .

تمثال أبى الهول :

تمثال أبى الهول من أعجب الآثار التى توجد بجبانة منف الكبرى بمنطقة الجيزة الحالية ، وتريد الأساطير أن تنشر حول هذا التمثال الرابض بجوار « الطريق المقدس » لهرم خفرع قصصاً وتفاسير غريبة تشابه ما نشر حول الأهرامات نفسها .



منف — منظر تمثال أبى الهول (وهو فى رأى بعضهم يمثل خفرع صاحب الهرم الثانى) وبين يديه لوحة تذكارية .

فقد زعم كتاب اليونان أنه يمثل حيواناً خرافياً من الآلهة اليونانية القديمة مع أن أصله مصرى صميم .

والواقع أن العلاقة بين أبى الهول وعبادة الشمس عند قدماء المصريين ترجع إلى عصور قديمة جداً . فاسم التمثال بالمصرية « آتوم » وباليونانية « حر ما كيس » ومعنى ذلك « الإله حور فى الأفق » . وكان هذا الإله يمثل فى الآثار المصرية الأولى بشكل سبع له رأس صقر . ومن هذا الشكل تولدت فكرة تمثيل الحيوان الخرافى فى الأساطير المصرية بشكل سبع له أجنحة ورأس صقر .

وانتشر هذا الشكل فى جميع آثار الشرق القديم ومنها اليونان ، ثم تطور فى العصور التالية بتغيير رأس الصقر الذى يرمز به للإله حور ، إلى رأس إنسان ، وهو الأنموذج الأخير فى شكل أبى الهول .

ويعتقد البعض أن أبا الهول يمثل الملك خفرع صاحب الهرم الثانى ، مع أنه لم يعثر على اسم هذا الملك فى أى جزء من أجزاء هذا الأثر .

والتمثال على شكل سبع راقد على نواجذه الأربعة وله رأس إنسان . وغطاء رأسه هو الغطاء الكتانى العادى المعروف عند قدماء المصريين باسم « نمس » وكان يلبسه ملوك مصر القديمة ، وله عصابة فى وسطها تمثال الحية الملكية « يوراس » وخلفها نسر منتشر الأجنحة . وكانت هذه الحية تقذف النار والسم فى وجه من يحاول رفع نظره إلى وجه الملك .

أما تمثال النسر الناشر الجناحين فقد سقط بكل أسف من فوق رأس التمثال . ويحتفظ المتحف البريطانى بلندن بجزء منه وبجزء من تمثال الحية الملكية المقدسة . كما يوجد بالمتحف المصرى بالقاهرة أنموذج مصنوع من الجبس لهذه الأجزاء المفقودة من تمثال أبى الهول .

ويوجد أمام تمثال أبو الهول معبده الصغير ، بينما وضعت بين رجليه الأماميتين اللوحة الشهيرة المعروفة باسم « لوحة حلم الملك تحوتمس الرابع » وفيها يقص هذا الملك كيف أخذته سنة من النوم فى ظل أبى الهول فرأى فى الحلم الإله الأكبر (حور) . وقد طلب منه إزالة الرمال التى تكدست حوله .

وقد اكتشف الأستاذ سليم بك حسن فى معبد صغير ، يقع فى الشمال الشرقى بجوار تمثال أبى الهول ، لوحة كبيرة ارتفاعها ٤،٢٥ متراً وعرضها ٢،٥٣ متراً ، وهى خاصة بالملك أمينحوتب الثانى ، وفيها يذكر الملك حوادث حفلات الصيد التى أقيمت بمناسبة حفلات تتويجه . وفى السطر الأخير من هذه اللوحة يقول الملك إنه أتى ليمتع نفسه فى منطقة الصيد المجاورة لأهرام « حرماكيس » .

ويبلغ محيط وجه تمثال أبى الهول إذا قيس بالعرض ٣،٩٠ متراً ، كما يبلغ طول أنفه متراً ونصف متر وعرض فمه ٢،١٠ متراً ، ويبلغ طول التمثال نفسه ٤٦ متراً وارتفاعه من الأرض إلى قمته ٢١ متراً . وهو مصنوع من قطعة وحيدة نحتت فى صخرة محلية .

أما تاريخ إزالة الرمال عن هذا التمثال الضخم فهو نفسه تاريخ أثرى . فقد ذكر بعض الفراعنة الذين زاروا أبا الهول أنهم رفعوا الرمال التى تكدست حول هذا الإله .

كما أنه فى العصر الحديث أى فى سنة ١٨١٨ قام الكابتن كافيليا برفع الرمال من حول التمثال ، واكتشف المعبد الصغير الواقع بين ساقيه الأماميتين . وفى سنة ١٨٣٧ قام الكولونيل فايس بعمل جسات فى جسم أبى الهول

آملاً أن يجد فى داخله كنوزاً مخفية طبقاً للأساطير المتداولة بين الشعب . ولكنه لم يصادف فى هذه الجسات العميقة إلا صخراً صلداً . وفى سنة ١٩٣٧ قامت مصلحة الآثار المصرية برفع الرمال مرة أخرى عن هذا التمثال ، وقد كان من حسن حظنا اليوم أن تتاح لنا الفرصة لمشاهدة جمال هذا التمثال فى كامل روعته وعظمته الأولى .

تمثال آخر لأبى الهول بسقارة

فى مكان مدينة منف القديمة ، اكتشف سنة ١٩١٢ تمثال آخر لأبى الهول له جسم أسد ورأس إنسان . وربما يرجع تاريخ هذا التمثال إلى عهد رمسيس الثانى . وهو مصنوع من المرمر (الألابستر) ويقع فى الحقول بين أشجار النخيل المجاورة لقرية ميت رهينة الحالية ، وهو تمثال صغير جداً بالنسبة لتمثال أبى الهول بالجيزة ، ويبلغ طوله ٧٫٨٠ متراً وارتفاعه من الأرض إلى قمته ٤٫٢٠ متراً .



أهرام الجيزة : هل تطورت هذه المقابر الإسلامية الحديثة من شكل تمثال أبى الهول أم من شكل مصاطب منف ! !

*

المصـــــــاطب

مصاطب الجيزة

توجد بجبانة الجيزة بجوار الأهرام الكبرى مقابر تعرف حالياً باسم المصاطب لتشابهها بها ، وهى خاصة بأعضاء العائلات الملكية وأتباعهم .

وقد دفن بهذه المصاطب بعض الشخصيات البارزة فى تاريخ مصر القديمة ، مثل الملكة « حوتب حورس » زوجة الملك « سنفرو » وأم الملك « خوفو » . كما أن هناك بعض الأهرام الصغيرة الخاصة بأعضاء عائلة خوفو وعائلة منكاورع . وبجوار أحد الأهرام الثلاثة الصغيرة الخاصة بأبناء خوفو توجد بقايا معبد صغير يرجع تاريخه إلى الأسرة الحادية والعشرين اسمه معبد أزيس « سيدة الأهرام » . وقد وجد بداخل هذا المعبد اللوحة الشهيرة باسم « لوحة بنت خوفو » وهى موجودة الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة .



جبانة منف — صورة مأخوذة من فوق هرم خوفو . وترى بها صفوفاً طويلة من المصاطب . وهى عبارة عن مقابر الأشراف والعظماء وأفراد العائلات المالكة التى كانت تدفن بجوار هرم الملك

ولم تكن جبانة الجيزة مقصورة فقط على دفن أعضاء العائلات الملكية بل نجد فيها مقابر كثير من النبلاء والكهنة وكبار موظفى الدولة . ومما يلاحظ أن هؤلاء القوم كانوا يحملون ألقاب شرف عديدة ، منها : رئيس المرتلين ، والكاتب الإلهى ، ورئيس كل الوظائف الإلهية ، وقريب الملك ، والمعروف لدى الملك ، والأمير والسمير الوحيد ، ومدير القصر ، وحارس التاج ، وحاكم القصر ، ومدير مالية القصر ، وحامل نعل الملك ، ومنظم شعر الملك ، وطبيب خاص الملك ، وغسّال ومنظف أظافر الملك ، ومدير بيت التطهير المزدوج ، وحامل أختام الملك ، ورئيس أسرار كل أوامر الملك ، ورئيس أسرار كل القرارات القضائية ، ورئيس أسرار كل الأشياء التى يراها الإنسان ، ومدير كل الأشغال الملكية ، ومدير القيودات ، والمقرب لدى الناس والملك ، وحاكم القصر العظيم ، والمشرف على مصانع الملك ، والمشرف على خدمة قرينة الملك ، والمشرف على حدائق الملك ، والكاهن الملكى ، وكاهن الملك ، ومغنى البيت الكبير ، والمشرف على ملابس الملك ، والقائد الأعلى لجيوش الملك ، والمشرف على مراكب الملك ، وضابط جنود الملك ، ورئيس كتبة الملك ، ومفتش المحصولات الزراعية ، والمشرف على مدينة هرم خوفو ، والوزير ، والقاضى ، والمشرف على مخازن غلال الملك ، والمشرف على أدوات زينة الملك ، وغير ذلك .

وقد رسمت على حوائط مصاطب الجيزة مناظر كثيرة تمثل الحياة العامة فى هذا العصر ، مثل أشخاص يحملون القرابين والهدايا والذبائح للمتوفى . وبعض هذه المناظر دقيقة جداً مثل منظر الحاتى الذى يقوم بشى اللحم على النار وبيده مروحته ، ومنظر من يقوم بحليب البقر ، ومنظر صياد السمك بالشباك ، ومنظر صيد الغزلان ، ومنظر الراقصات اللاتى يرقصن على نغمات الموسيقى وبجوارهن لاعبو القيثارة والمصفقون بالأكف .

مصاطب سقارة :

ومع كل ما ذكرناه هنا فجبانة سقارة تفوق جبانة الجيزة دقة وفخامة ، وهى بلا نزاع أهم جبانات مدينة منف القديمة وأدهش حقول الآثار بمصر وأكثرها جاذبية للسواح . فهناك مصاطب الأسرة الأولى بحوائطها المبنية من اللبن تبرز منها الأعمدة الجذعة المماثلة للأعمدة الدوريكية الجذعة التى سبق ذكرها فى معبدهرم زوسر . ولكن ليس عليها نقوش أو كتابات ، فقط كانت بها تجاويف ملونة بشكل أبواب وهمية .

ولم يبدأ المصريون القدماء فى تدوين مناظر الحياة العامة على أحجار مقابرهم المنحوتة فى الصخر الأصم إلا ابتداء من عهد الأسرة الثالثة .

وكان سمك حوائط مصاطب الأسرة الأولى فى منتهى الضخامة يبلغ أحيانا أربعة أو خمسة أمتار .

وإليك الآن بعض البيانات عن أهم مصاطب سقارة الجديرة بالزيارة :

١ — مصطبة تى :

كان النبيل تى من كبار موظفى الدولة المصرية ، عاش فى عهد الأسرة الخامسة ، وكان لقبه « المشرف على الأهرام ومعابد الشمس » ، وقد صنع لنفسه مقبرة غاية فى الدقة والاناقة ، وحفر على حوائطها نقوشاً ومناظر تمثل الحياه اليومية بمنف أدق تمثيل . فهناك منظر أحواش الطيور ، ترى فيها الأور تمشى الهوينا ثم تسبح فى البركة القائمة فى وسط الحوش وقد جاء الخدم لإطعامها .

وهناك منظر صيد البط بالشباك بالطريقة التالية : أخفى رئيس الصيادين نفسه خلف شجرة صناعية ، وجعل يراقب الطيور فلما امتلأت الشباك بالطير الذى أتى ليأكل الحبوب المنشورة فوقها وقف رئيس الصيادين فجأة وأعطى الاشارة لسحب الحبال بأن نشر قطعة من القماش خلف رأسه . فلما سحبت الحبال قفلت الشباك على الطيور وقبض عليها باليد وأرسلت فى أقفاص خاصة إلى أسواق المدينة .

وترى هناك أيضاً صورة البجع وقد فتح فمه متنبئاً بقرب العاصفة الجوية المقبلة .



مشاهد من الحياة العامة فى منف — الصيد بالعلقة — قام الصيادون فى الصباح الباكر جدا الى برك دهشور وهناك نصبوا شباكا يختلف ارتفاعها بين متر ومتر ونصف، ووضعوا بجوارها « خيال » بط من خشب ملون مكسو بالريش . وذلك بعد أن غطوا من ساحل البركة مساحة تتراوح بين ٢٠ و١٥٠ متراً بطبقة رقيقة من التبن ليلفتوا بها نظر الطير . ثم نثروا فوقها حبوب الدنيبة أو كسر الأرز، وهى كناسة الجرن المسماة (قيشه) والطيور ميالة بطبيعتها الى الاتجاه نحو حسر البركة . ولهذا تراها تندفع نحو العلقة . فتتجمع زرافات بجوار الشباك لتلتقط الحب . وعند ذلك يعطى رئيسهم اشارة لزملائه فيجذب الصيادون حبال الشباك فتطبق على الطيور فيمسكونها حية . وفى جانب الصورة ترى طفلين وأمامها السبات توضع فيها هذه الطيور وتحمل الى أسواق منف

وفى هذه المقبرة ترى المتوفى فى مناظر مختلفة تمثله فى حياته العادية أو ربما فى الحياة التى يريد أن يحياها فى العالم الآخر .

وفى أحد دهاليز هذه المقبرة ترى منظراً يمثل طريقة نقل التماثيل الضخمة فى مصر القديمة على الزحافات يجرها الرجال ، بينما يمثل غيرها الطريقة التى يتبعها الجزارون فى ذبح البقر والجاموس ، ويمثل غيرها الموسيقيين والراقصين وصناع المراكب .

وتمثل مناظر أخرى طريقة صنع البيرة ، وصنع الكعك ، وصنع الفخار .

وتمثل مناظر أخرى أعمال زراعية مختلفة كالحصاد بالمناجل وحرث الأرض ونقل المحاصيل والغلال على ظهور الحمير ودرس الغلال . والصورة التالية تمثل بطريقة حديثة بعض الأعمال الزراعية بمنف .

ومما يلفت النظر فى هذه النقوش الجميلة منظر صاحب المقبرة ورجاله وهم يصطادون جاموس أو فرس البحر (العسنت) فى مراكبهم بين الأحراش فى البرك والمستنقعات . ثم تمثال « تى » الذى يبدو حياً خلف الأبواب الوهمية .



الطريقة التى كانت تزرع بها حقول منف . وترى الفلاح المصرى يحرث ويبذر القمح فى الحقول بعد انسحاب مياه الفيضان مباشرة . كما نرى فى الرسم القرية المصرية والحص وأكياس البذور ووقف الكتبة يحصون عدد ما يفرغ منها . ومما يلاحظ أن القمح كان يبذر أمام المحراث لا خلفه كما هو الحال الآن ثم يأتى الرعاة بأغنامهم ويسيرون خلف المحراث لتقلب الأرض بحوافرها وتغطى البذور .

٢ — مقبرة خا — بجمنا

كان خا — بجمنا وزيراً من وزراء مصر فى عهد الأسرة السادسة وكان يحمل الألقاب التالية : « مراقب الكهنة » و « المشرف على مدينة هرم الملك تيتى » وغير ذلك .

وأهم المناظر التى يمكن مشاهدتها فى مقبرته هى :

ا — منظر للراقصين والقائمين بألعاب بهلوانية وحولهم نساء يصفقن بالأكف على نغمات الموسيقى .

ب — مناظر لصيد السمك وصيد جاموس أو فرس البحر (العسنت) وصيد الطيور .

حـ — مناظر جمع التين من الشجر .

ء — مناظر تغذية الضباع الأليفة . ومناظر الأوز والبط وهى تسبح فى بركة بحوش الطيور .

هـ — منظر صاحب المقبرة محمولا فى محفة وقد ارتدى ثوبا من الكتان الثمين . ومنظر قزم يقود قرداً وكلاباً . ومنظر العمال يقطفون العنب ويعصرونه على طريقتهم الأولية بالأرجل . وفى خارج المعصرة وقف عامل يجمع العصير فى قدور خاصة ينقلها الحمالون إلى أقبية منزل المالك لتخزينها . ويلاحظ فى شكل المنزل ملاقف الهواء والمدخل الرئيسى والشرفات . كما يلاحظ مياه الرى التى ترفع من القناة بالشادوف . والصورة التالية تمثل هذه



مشاهد من الحياة العامة فى منف — وترى فى الصورة صاحب المقبرة وقد ترك منزله الريفى القائم فى حقوله : ذهب إلى مزرعة الكروم ليراقب العمال وهم يقومون بقطف العنب وعصره على طريقتهم الأولية بالأرجل .

٣ — مقبرة ميربروكا

كان ميربروكا من كبار موظفى الدولة المصرية الذين عاشوا فى عهد الأسرة السادسة .

وأهم المناظر التى يمكن مشاهدتها فى مقبرته هى :

ا — منظر صاحب المقبرة و بجواره زوجته وهما فى قارب يصطادان الطيور والأسماك بينما يقوم الخدم بضرب جاموس أو فرس البحر (العسنت) بالرماح لإبعادها عن مركب سيدهم . و يبدو فرس البحر هنا بشكل متوحش ضارى . و يظهر فى أحراش البوص نوع من الجراد الصغير (أبو النطيط) والضفدع . بينما تسبح التماسيح والأسماك من جميع الأجناس فى المياه . وهذا المنظر من أبدع مناظر هذه المقبرة .

ب — مناظر الفنون والحرف المختلفة : كصناعة الفخار ، ومنظر رجل يبنى سقالة للبناء ، ومنظر حجّارين يقطعون الحجر ، ومنظر عمال يصبون المعادن ، ومنظر مصنع الجعة (البوظة) وترى عاملا يدق الحبوب بمدقة خشبية و بجواره سيدة تطحنها فى مطحنة خاصة ثم تعطى الدقيق لآخر فيعجنه و بعد ذلك يوضع فى أوانى خاصة لتخميره بالأرجل . ثم يصفى و يحفظ فى قدور لها أغطية طينية و يخزن . والصورة التالية تمثل هذه المناظر بطريقة حديثة .

ح — مناظر للرقص الدينى أو الجنائزى .

ء — مناظ الـ اقصات ، الألعاب البهلوانية .



مشاهد من الحياة العامة فى مصر — مصنع جعة (البوظة)

وقد دخل رئيس صانعى الجعة و بيده عصا خاصة وجعل يستحث العمال على إنهاء العمل .

٤ — مقبرتا اخت — حتب وبتاح — حتب :

كان اخت — حتب يحمل لقب : المشرف على مدينة هرم الملك « ددكارع » من ملوك الأسرة الخامسة ولقب المشرف على الخزينة المزدوجة : خزينة الوجه القبلى وخزينة الوجه البحرى ، وخلاف ذلك من الألقاب .

وأهم مناظر مقبرته هو : منظر النوتية يتقاتلون بالمجاديف و بجوارهم أقفاص بها بعض الطيور .

وقد أقيمت مقبرة « بتاح — حتب » والد « اخت — حتب » داخل مقبرة ابنه . وعلى امتدادها . ولا تزال الصور المنقوشة على حوائط مقبرة الأب محتفظة برونقها الأصلى احتفاظاً مدهشاً .

وكان « بتاح — حتب » يحمل لقب : مراقب كهنة هرم الملك « نو — سر — رع » .

وأهم مناظر مقبرته هى :

ا — مناظر صيد الطيور والأسماك وصناعة المراكب وتقاتل النوتية — والرقص والألعاب البهلوانية .

ب — مناظر ألعاب الأطفال . و بعض هذه الألعاب لا يزال يمارس بمصر للآن ومنها :
لعبة « دورى يا دوارة » ، ولعبة « التحطيب » التى تمارس خصوصاً فى الوجه القبلى ، والألعاب الرياضية الأخرى ، كالمصارعة ، والمشى فى الطابور ، والألعاب البهلوانية ، ولعبة الكعب ، ولعبة الإغماء ، ولعبة جمال الملح ، وفى هذه المناظر ترى الصبيان يلعبون وهم عراة تماماً وقد قصت شعورهم ما عدا خصلة واحدة تركت على الجانب الأيمن من الرأس .

حـ — مناظر معاصر الزيوت ، ومصانع تمليح وحفظ الأسماك ، ومصانع الحبال ، ومصانع النجارة ، وترى هؤلاء الأساتذة الأول فى فن النجارة يصنعون صندوقاً من خشب ثمين وعلى وجوههم سيماء البشر والانشراح .
وترى الآلات الأولية التى كانت تستعمل فى هذه الصناعة ومنها خرجت قطع فنية حيرت عقول البشرية بدقتها ومتانتها .
والصورة التالية تمثل هذه المناظر بطريقة حديثة .

د — مناظر عودة الصيادين من الغابات ومعهم وحوش ضارية أسيرة داخل الأقفاص .

ومقبرتا « بتاح حتب » و « اخت حتب » منحوتتان فى صميم الكتلة الصخرية ، ولهما واجهتان مشيدتان .

وكان سرداب « بتاح حتب » يشتمل على تسعة تماثيل خشبية بعضها بالحجم الطبيعى .

كما كان فى هيكل مقبرة « اخت حتب » ١٤ تمثالا نحتت فى الصخر نحتاً بارزاً .



مشاهد من الحياة العامة فى منف . مصنع نجارة دقيقة . وترى هؤلاء الأساتذة الأول فى فن النجارة يصنعون صندوقاً من خشب ثمين بدقة متناهية وعلى وجوههم سيماء البشر والانشراح . وترى الآلات الأولية التى كانت تستعمل فى هذه الصناعة ومنها خرجت قطع فنية حيرت عقول البشرية بدقتها ومتانتها .

٥ — مصاطب أخرى :

وفى سنة ١٩٤٠ أدى البحث الذى قام به الأستاذ زكى سعد مفتش الآثار بسقارة ، فى المنطقة الواسعة الواقعة بين الهرم المدرج وهرم أوناس ، إلى العثور على عدد كبير من التوابيت الخشبية يرجع بعضها إلى العصر « الصاوى » والبعض الآخر إلى عصر « البطالسة » .

وكان فى القسم الأكبر منها عدد لا بأس به من التحف كالأوانى المصنوعة من الفخار والمرمر والقاشانى والجعلان المطلية بالمينـاء ، ومساند الرأس المصنوعة من الخشب والمرمر ، وقلائد مختلفة الأنواع .

وعثر أيضاً على ٢٧ باباً وهمياً ، من الحجر الجيرى ، مختلفة الأحجام ، وقد نقش عليهـا أسماء أصحابها وألقابهم ، وأغلبهم من موظفى الملك أوناس وكهنة معبده وكاهناته .

وكشف قريباً من هرم أوناس عن مصطبة كبيرة ، نقش عليها اسم ملكة تدعى « نبت » مما لا يشك معه فى أن هذه الملكة كانت زوجة لأوناس ، وإن لم يكن يعرف عنها شىء قبل هذا الكشف .

ومن النقوش التى لوحظت على جدران هذه المصطبة نقش يمثل سيدة من الأقزام ، وتلك أول مرة يظهر فيها رسم لسيدة قزم .

وهناك مصطبة أخرى متهدمة وجد عليها اسم السيدة « خنوت » ويستنتج من موقعها ومشابهتها لمصطبة « نبت » أن تكون هذه السيدة أم أوناس ، أو زوجة ثانية له .

وكشف عن ثلاث مصاطب أخرى ، أولاها لأحد أبناء الملك واسمه « أوناس عنخ » والثانية لوزير اسمه « انفرت » والثالثة لموظف كبير يدعى « كاى » ، وعن مصطبة رابعة سليمة لرجل يدعى « محو » عاصر الملوك الثلاثة الأول من ملوك الأسرة السادسة ، وكان وزيراً ، تزوج أميرتين من أميرات البيت المالك ، هما « نبت » و « نفركاوس » .

ولا تزال جدران هذه المصطبة محتفظة برونق ألوانها . أما ما عليها من النقوش التى حفرت بمهارة بلغت حد الكمال فكانت مغطاة وأظهرت . وتبدو هذه النقوش الآن باللون الأصفر الزاهى حتى ليخيل إلى الناظر أنها صنعت من الذهب .

وإلى هنا ننتهى من وصف أهم مصاطب سقارة .

أما أهم المعالم الأخرى بنفس منطقة المصاطب فهى :

أولاً — بيت ماريت باشا :

أوجست ماريت باشا عالم فرنسى من أكبر علماء الآثار المصرية ، حضر إلى مصر فى عهد عباس الأول ، ثم كشف مقبرة العجول بسقارة سنة ١٨٥١ . وقد أنشأ بجوار حفائره هناك منزلا من اللبن جعله مركزاً لأعماله ومحلا لاستراحته .

ولا زال هذا المنزل ، فى وسط مصاطب سقارة ، مكان استراحة للزائرين والسياح ، يتناولون فى ظلال شرفاته وقاعاته المطلة على الصحراء الشاسعة الجميلة ، غذاءهم مع بعض المرطبات الأخرى ، ويجدون فيه مجالا لراحتهم بعد عناء السير فى رمال الصحراء ، كما يجدون به المياه العذبة اللازمة جداً فى هذا المكان .

ثانياً — مقبرة العجول أو السرابيوم :

وعلى بعد مائة متر تقريباً من بيت ماريت باشا توجد مقبرة العجول المعروفة أيضاً باسم السرابيوم .

ومن المعلوم أن العجل أبيس كان يعبد بمدينة منف ، وكان يحنط بعد موته كما يحنط الملوك ، وكان يدفن بجميع مراسم التكريم فى مقبرة خاصة .

أما مقبرة العجول فهى عبارة عن نُفُق سفلية هائلة منحوتة فى صميم الكتلة الصخرية ، وقد كشفها أوجست ماريت باشا سنة ١٨٥١ .

وقد كان نجاح ماريت باشا فى كشف هذه المقبرة ، فى مستهل حياته العملية ، من أكبر العوامل التى ساعدته على السير فى أعمال الكشف الواسعة عن الآثار المصرية الأخرى ، تحت رعاية الخديوى اسماعيل باشا بنجاح باهر ، وخلدت اسمه فى عالم الآثار إلى الأبد .

وقد وجد ماريت باشا أن الكنوز الثمينة التى كانت موجودة فى توابيت العجول قد نهبت منذ القدم بمعرفة الغزاة السابقين الذين احتلوا مصر فى العصور الخالية ، ولم يبق فى هذه المقبرة التى كانت تغص بالعقود والذهب والقلائد واللآلئ والأحجار الكريمة إلا توابيت فارغة ، توابيت هائلة مصنوعة من الجرانيت الأحمر والبازلت الأسود كانت تدفن فيها العجول آبيس بعد موتها وتحنيطها .

وقد أزيحت أغطية هذه التوابيت قليلا من مكانها الأصلى بمعرفة اصوص المقابر القدماء للاستيلاء على ما فيها من هذه الكنوز الثمينة .

ومع ذلك فقد وجد ماريت باشا فى السرابيوم مالا يقل عن ٤٠٠٠ لوحة تذكارية ، ذكر فيها الملوك زيارتهم لهذه المقبرة وأعمالهم فيها ، كما ذكرت فيها حوادث تتعلق بالعجول نفسها كحادثة العجل الذى قتله قمبيز بضربة من خنجره . وتريد الأساطير أن تؤكد بعد ذلك أن قمبيز نفسه مات مقتولا بنفس هذا الخنجر . كما وجد تابوتاً سليما لم يفتحه اللصوص ففتحه هو ونقل محتوياته إلى المتحف المصرى كما نقل اللوحات التذكارية جميعها إلى متحف اللوفر بباريس .

ويبلغ عدد توابيت العجول بالسرابيوم الآن ٢٥ تابوتاً كلها متشابهة ، اللهم إلا تابوتين أو ثلاثة عليها كتابات هيروغليفية مفيدة جداً لبعض الطقوس الدينية ، تراها على ضوء الشموع أو المسارج التى يحملها الدليل .

أما كيف توصل قدماء المصريين إلى نقل هذه التوابيت الضخمة وترتيبها فى داخل القاعات المعدة لها بنظام هندسى دقيق على جوانب هذه الممرات السفلية المظلمة ، فأمر يبدو عجيباً ! ! ولكنها مهارة المهندس المصرى القديم البارع تبدو فى كل ناحية من نواحى الحياة العامة بمصر ! !

وكانت مقبرة العجول التى كشفها ماريت باشا سنة ١٨٥١ بجبانة سقارة تشمل قديماً جزئين مستقلين عن بعضهما .

الجزء الأول أنشأه أمنحوتب الثالث وهو عبارة عن الممرات السفلية وما بها من قاعات الدفن الجانبية وكلها منحوتة فى الصخر الأصم .

وقيل إن عدد المقابر الجانبية وصل إلى ٦٤ قبراً بعد توسيع المقبرة فى العصور التالية لعصر أمنحوتب ، وكان بها ٦٤ عجلاً محنطاً بما عليها من جواهر وحلى وكنوز .

أما الجزء الثانى فعبارة عن المعبد الذى أنشأه بطليموس الأول سوتير فوق مقبرة العجول . وقد عرف هذا المعبد فى العصر اليونانى باسم السرابيوم .

ولهذا الاسم قصة تتعلق بالاعتقادات المصرية القديمة وهى : كما أن الإنسان بعد موته كان يحاكم أمام محكمة « أوزيريس » فإذا زادت حسناته عن سيئاته تحول هو نفسه إلى أوزيريس ودخل حقول السموات اليانعة كذلك كان العجل أبيس بعد موته يتحول إلى أوزيريس — أبيس .

ومن هذا الاسم الأخير اشتق اليونان اسم الإله الأغريقى سرابيس واسم السرابيوم الذى أطلقوه على مقبرة العجول المقدسة .

وفى عهد الملك نخاو الثانى أقيم لهذا المدفن معبد من معابد الوادى .

وحوالى سنة ١٩٤١ عثر الدكتور أحمد بدوى مدرس الآثار بجامعة فؤاد الأول ومعه الأستاذ مصطفى الأمير المهندس ، فى بلدة ميت رهينة التى تقوم حالياً على انقاض منف عاصمة مصر الأولى ، على أربع موائد قربانية من المرمر منها واحدة مؤرخة باسم الملك نخاو . ثم عثرا على سريرين من المرمر الخالص كانا يستعملان لتحنيط العجل أبيس ، وعلى مكيالين للسوائل من المرمر الخالص أيضاً أحدهما سليم ومؤرخ باسم الملك دارا الأول الفارسى وعليه مقدار ما يسع من السوائل (حوالى ٣٢ لتراً) أما الثانى المكسور فسعته ثلاثة أضعاف الأول .

ويعد السرير الأكبر من القطع الفنية المنقطعة النظير فى تاريخ الفن المصرى إذ يبلغ طوله حوالى ٤و٦٠ مترا وعرضه ٢و٨٠ متراً وارتفاعه ١و١٠ متراً ، وهو قطعة واحدة من المرمر .

أما السرير الآخر فهو أقل حجما وأقل قيمة من الأول .

ويظن أن هذا المكان كان متصلا عن قرب أو عن بعد بمعبد العجل أبيس الذى ذكر هيرودوت وأسترابون أنه من غرائب مدينة منف ، ولم يكشف بعد .

وكانت عملية تحنيط العجل أبيس تكلف الدولة نفقات كثيرة . فقد روى بعض المؤرخين من اليونان أن بطليموس الأول سوتير قد أنفق كل ما فى خزانة الدولة واستعان بقرض ليجهز جنازة أحد العجول الذى مات فى عهده .

ولا غرابة فى ذلك ، إذا علمنا أن تابوت الدفن وحده كان يصنع من حجر وحيد وكان طوله ٤ أمتار وعرضه ٢٫٥٠ متراً ووزنه أكثر من ٦٠ طناً .

ثالثاً — دير أنبا أرميا :

بنى هذا الدير فى آخر القرن الخامس الميلادى وخربه العرب حوالى سنة ٩٦٠م، ولحسن الحظ طغت الرمال على خرائبه إلى أن كشفه كويبل سنة ١٩٠٦ ونقل ما به من آثار إلى المتحف المصرى .

وقد ظهر أن هذا الدير بنى بأحجار منقولة من آثار منطقة سقارة القديمة ، إذ وجد على بعض هذه الأحجار نقوش هيروغليفية ومناظر فرعونية اصيد فرس البحر أو العسنت ترجع إلى عهد الدولة القديمة .

ولا تزال أطلال هذا الدير ، الذى يرجع إلى عهد المسيحية الأولى بمصر ، ماثلة فوق تل صغير تقابله فى طريقك إلى الهرم المدرج بسقارة .

هنا تجد المكان غاصاً بالأعمدة المكسرة والأحجار المبعثرة والحوائط المبنية من اللبن .

هنا يريك الدليل معاصر الزيوت والأفران التى كان يستعملها الرهبان قديماً .

ويريك حجراً عليه آثار أقدام قديس زار هذا المكان منذ آلاف السنين .

ويريك الكتابات القبطية والعربية التى لم تزل باقية على الحوائط القائمة كما يريك بعض الصور والنقوش التى كان تزين جدران هذا الدير قديما .

وقد نقلت معظم أحجار هذا الدير المأخوذة من آثار الأسرة الثامنة عشرة إلى المتحف المصرى بالقاهرة .

رابعاً — تمثالا رمسيس الثانى :

فى وسط غابات النخيل التى تحتل الآن موقع مدينة منف العظيمة المندثرة ، وبالقرب من قرية ميت رهينة ، تقابل فى طريقك بين البدرشين وسقارة ، تمثالين هائلين لرمسيس الثانى كانا فيما مضى يقومان عند مدخل معبد فتاح بعاصمة مصر الخالدة .

التمثال الأول :

عثر على هذا التمثال سنة ١٨٨٨ . وهو مصنوع من حجر واحد من الجرانيت الأحمر المحبب وتجده الآن ملقى على ظهره فى العراء على يمين السائر إلى سقارة . ووجه التمثال يتجه إلى أعلى . ويبلغ طول هذا التمثال ٢٦ قدماً

وطول التاج الملق بجواوه ٦ ½ أقدام . أما مكان هذا التاج فظاهر فى رأس التمثال ، يعينه ثقب مربع عميق كان يركب فيه .

وعلى أكتاف وصدر وأذرعة وسروال هذا التمثال تجد نقوشاً هيروغليفية تحمل اسم الملك رمسيس الثانى .

وعلى شمال هذا التمثال تجد تمثالاصغيراً بارزاً للأميرة « نبت آنت » وعلى رأسها لوحة مستديرة رسم عليها الإله فتاح والإله سقر بشكل إنسان يحمل رأس صقر .

التمثال الثانى :

أما التمثال الآخر لرمسيس الثانى بسقارة فكان طوله فى الأصل ٤٢ قدماً . وهو مصنوع من حجر وحيد من المرمر البديع (الألابستر) . وقد أقامت مصلحة الآثار المصرية حوله مظلة بنيت حوائطها من اللبن وجعلت فيها سلماً حديدياً يؤدى إلى شرفة يصعد إليها المتفرج ليرى التمثال من أعلى .

وتقع هذه المظلة على يسار السائر إلى سقارة بعد موقع التمثال الأول بقليل . وترى على كتف هذا التمثال الأيمن وعلى ذراعه نقوشاً هيروغليفية ذكر فيها اسم رمسيس المحبوب من الإله آمون .

وقد عثر كافيليا وسلون على هذا التمثال سنة ١٨٢٠ .

وإلى هنا نكتفى بما ذكرناه عن أهم معالم جبانة سقارة .

ولكن لا بد قبل نهاية هذا الفصل من كلة ختامية عن أهرام الجيزة .

ملاحظات هامة على أهرام الجيزة

١ — تواجه أضلاع الأهرام الجهات الأربع الأصلية بالضبط .

٢ — تقع مداخل الأهرام فى الضلع الشمالى دائماً .

٣ — ضبطت لحامات الأحجار الهائلة التى بنيت منها الأهرام بحيث لا يمكنك إدخال سلاح رقيق بين حجرين من أحجارها .

٤ — لم يستعمل فى بناء الأهرام آلات معدنية بتاتاً . بل كانت ترفع الأحجار إلى مكانها بواسطة البكر والحبال التى عثر عليها فى حفائر جامعة فؤاد الأول .

٥ — دخل لصوص المقابر فى هذه الأهرامات فى عهد الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م) وأعيد إصلاح ما أحدثوه فيها من ضرر فى عهد الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين (٧١٢ — ٦٦٣ ق . م) .

٦ — يقول هيرودوت إن عدد العمال الذين اشتغلوا فى بناء هرم خوفو ١٠٠٠٠٠ عامل ، اشتغلوا ثلاثة أشهر كل سنة ، لمدة عشرين سنة .

٧ — كان ارتفاع هرم خوفو فى الأصل ٤٨١ قدما . أما الآن فيبلغ ارتفاعه ٤٥٠ قدما بسبب تساقط الأحجار .

و يبلغ ارتفاع كل ضلع من أضلاعه الآن ٥٦٨ قدما وكان فى الأصل ٦١٠ قدم .

كما يبلغ طول الضلع الآن ٧٤٦ قدما وكان فى الأصل ٧٥٦ قدما .

٨ — تكفى أحجار هرم خوفو لبناء مدينة حديثة كاملة يبلغ سكانها ١٢٠٠٠٠ نفس .

٩ — إذا أريد بناء هرم مماثل لهرم خوفو الآن تصل تكاليفه إلى ٥١ مليون جنيه .

١٠ — إلى شرق هرم خوفو تجد ثلاثة أهرام صغيرة دفن فيها أولاد الملك .

١١ — يستغرق الصعود إلى قمة الهرم الأكبر ١٥ دقيقة بمساعدة رجلين من الأدلاء الأقوياء .

١٢ — يبلغ مسطح قمة الهرم الأكبر ٣٥ قدما مربعاً . ومن فوق هذه القمة تشرف على أبدع منظر فى وادى النيل فترى النهر ينساب بين الحقول الخضراء وتشرف على القاهرة بمآذنها العالية وعلى جبل المقطم المحاط بجو أثيرى أزرق وضّاح ، ومن الناحية الأخرى ترى الصحراء برمالها الصفراء كبحر من الذهب الوهاج فى وسطه جزائر بارزة هى الأهرام القريبة والبعيدة التى تصعد بقممها العالية فى اتجاه الشمس .

١٣ — وفى داخل الهرم تجد قاعة الدفن الخاصة بالملك خوفو فارغة وتجد التابوت الملكى المصنوع من الجرانيت الوردى . وقد ضاع غطاؤه . و إذا ضربت جوانب هذا التابوت بيدك يرن مثل الجرس . وقد سرق كل ما فى هذا الهرم منذ القدم . وعند ما اقتحم العرب بابه فى عصر المأمون وجدوه خالياً .

١٤ — للدخول إلى الهرم ، اذهب إلى مقابل الباب الشمالى واصعد الدرجات الخارجية حتى تصل إلى علامة حمراء تشير إلى المدخل الذى فتحه لصوص الهرم قديماً فى المدماك السادس . لاحظ أن المدخل الأصلى للهرم يقع فى المدماك السابع عشر ، ولا يزال هذا المدخل مغلقاً لأن نظر اللصوص لم يقع عليه إذ كان الهرم كله مكسواً بطبقة ملساء من الحجر الجيرى الناصع البياض المخلوع من محاجر طره والمعصرة .

١٥ — فى عصر المماليك هدمت هذه التكسية البديعة واستعملت فى بناء جامع السلطان حسن بجوار القلعة وفى جوامع أخرى بالقاهرة .

١٦ — عند المدخل تجد ممراً مائلاً داخل الهرم يقودك إلى غرف الدفن السفلى .

١٧ — على بعد ٦٣ قدماً من المدخل تجد ممراً آخر يقودك إلى أعلى . وعند ملتقى الممر السفلى بالممر العلوى ينتهى النفق الذى نقبه لصوص الهرم .

١٨ — بعد ذلك يتسع الممر العلوى فى العرض والارتفاع ويصبح دهليزاً كبيراً .

١٩ — ينتهى هذا الدهليز بمسطح أفقى يقودك إلى الغرفة الخارجية لقاعة الدفن الملكى .

٢٠ — من هذه الغرفة تصل إلى قاعة الدفن الخاصة بالملك خوفو فتجد تابوتاً فارغاً خالياً من النقوش .

٢١ — تبلغ أبعاد قاعة الدفن ½ ٣٤ قدماً عرضاً و ١٩ قدماً ارتفاعاً .

٢٢ — سقف هذه الغرفة مصنوع من تسع كتل من الجرانيت هائلة طول الواحدة منها ½ ١٨ قدماً .

٢٣ — يوجد أعلى غرفة الدفن خمس غرف فارغة تقع كل منها فوق الثانية على خط رأسى مستقيم .

٢٤ — يمكن الوصول إليها بسلم من السرداب الأكبر

٢٥ — المعتقد أن هذه الغرف جعلت لتخفيف الحمل عن سقف غرفة الدفن الملكية .

٢٦ — تجد اسم الملك خوفو مكتوباً بالبوية الحمراء فى الغرفتين الرابعة والخامسة ويظن أن الحجارين هم الذين كتبوا هذا الاسم فى محاجر طره .

٢٧ — تبلغ ابعاد التابوت ½ ٧ قدماً طولا و ½ ٣ أقدام عرضاً وثلاثة أقدام وأربعة بوصات ارتفاعاً . وهو مصنوع من حجر واحد من الجرانيت ومصمم ليوضع داخله صندوق الميت الذى لا يوجد له أى أثر .

٢٨ — عند تقابل الدهليز بالممر العلوى يوجد ممر أفقى يقودك إلى غرفة دفن الملكة .

٢٩ — أرض هذه الغرفة وسقفها مصنوع من الحجر الغير مهذب .

٣٠ — هناك منفذان للهواء من غرفة دفن الملك ومن غرفة دفن الملكة إلى الخارج ، الغرض منهما إمداد العمال بالهواء الخارجى الصالح للتنفس .

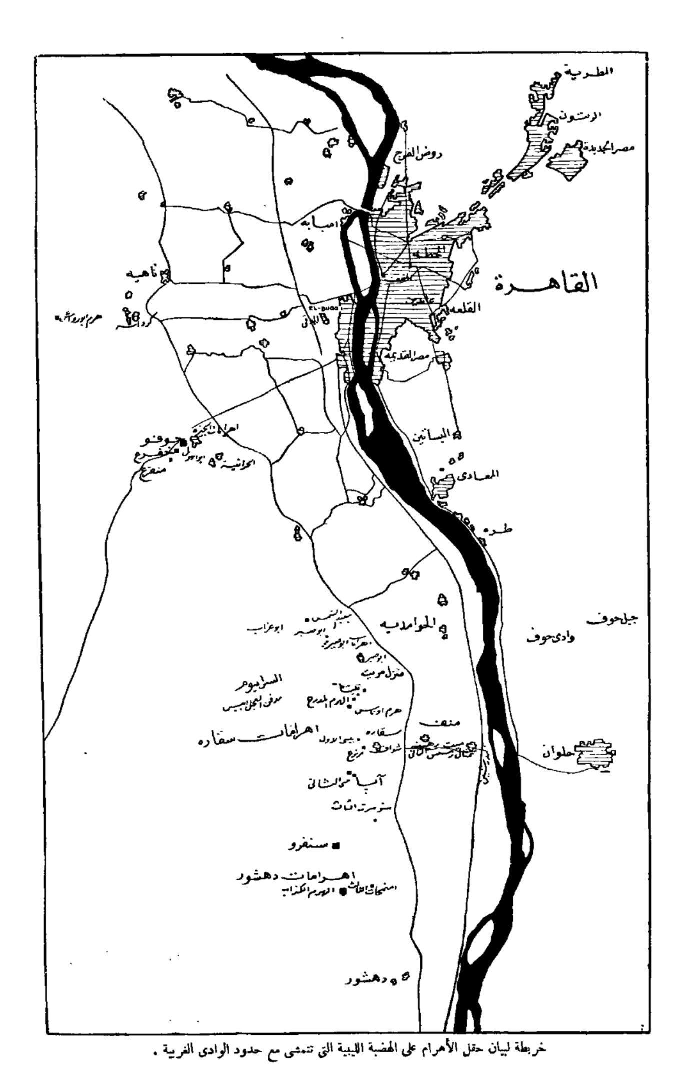
٣١ — يمكن مشاهدة هذان المنفذان على ارتفاع ثلاث أقدام فوق أرضية قاعات الدفن .

٣٢ — أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر وقف هذا القائد أمام جنوده فى معركة امبابة قائلا :

أيها الجنود ، من فوق قمة هـذه الأهرام ، أربعون قرناً تنظر إليكم ، وسوف تكون شاهد عدل على نصركم المبين .

٣٣ — من المؤلم أن ينتصر الفراعنة على كل عناصر الطبيعة فى الاحتفاظ بمومياتهم سليمة إلى يوم البعث داخل هذه الصروح الضخمة ولكنهم ينهزمون أمام جشع لصوص المقابر وسارقى الأكفان والباحثين عن الكنوز ، فتضيع مومياتهم وتنتهك حرمة مقابرهم !

أيها الإنسان يا لك من وحش وأى وحش ! !



خريطة لبيان حقل الأهرام على الهضبة الليبية التى تتمشى مع حدود الوادى الغربية .

الفصل الرابع

مدينـــــة عين شمس

ذكرت مدينة عين شمس فى التوراة باسم « أون » وكانت فى الأزمنة القديمة عاصمة مصر الدينية وقاعدة من قواعد مقاطعات الوجه البحرى .

وكان اسم « أون » هذا لا يزال باقياً يطلقه القبط على هذه المدينة فى القرن السابع الميلادى أيام الفتح العربى ، ومعنى هذا الاسم « مدينة الشمس » . وقد ترجم اليونان هذا المعنى فجعلوا اسمها عندهم « هليوبوليس » واحتفظ العرب كذلك بهذا المعنى فجعلوا اسمها العربى « عين شمس » .

قال أرتور رونيه :

« كانت هليوبوليس قديماً قصبة إقليم « هليوبوليت » وكان اسمها الدينى باللغة المصرية « يون » وعثر عليه فى اللغتين القبطية والعربية « أون » ، واسمها المدنى « بير — رع » ومعناه مدينة الشمس ، وما لفظ هليوبوليس اليونانى إلا ترجمة لهذا الاسم .

وكان فى جوار هليوبوليس عين ماء معروفة سماها العرب عين شمس فغلب اسمها على اسم المدينة وعرفت به خصوصاً وقد كان فى هذا الاسم ذكرى الشمس وهى معبود أهلها القدماء » .

ووصف بتلر ما كانت عليه هذه المدينة عند مجىء العرب فقال :

« لم يكن باقيا من مجدها القديم لما أتى العرب إلا أسواراً مهدمة وتماثيل لأبى الهول نصفها مدفون فى الأرض ، والمسلة الشهيرة الباقية إلى اليوم عند قرية المطرية » .

وكان مرجعه فى ذلك شامبوليون الأصغر . وقد لاحظ أن الخريطة الحربية الحديثة تجعل أون فى موضع تل اليهودية على مرتفع من الأرض وتجعل هليوبوليس فى موضع تل الحصن فى الجنوب من تل اليهودية .

وهذا خطأ بالطبع لأن أون هى نفس هليوبوليس ومكانها تل الحصن بجوار المطرية . أما تل اليهودية بجوار شبين القناطر فهو يقوم اليوم مكان مدينة ليونتوبوليس القديمة إحدى المدن التى بناها اليهود أثناء إقامتهم بمصر فى عهد رمسيس الثانى . وكانت مركز أبروشية قبطية قديمة .

وقال الدكتور حسن كمال :

« مدينة أون (عين شمس) قاعدة القسم الثالث عشر من أقسام أومقاطعات مصر القديمة اسمها المدنى

« بير — رع » أى معبد أو بيت أو مدينة الشمس ، واسمها القبطى « ڤرى » بمعنى مدينة الشمس وهو الأصل فى تسميتها باليونانية هليو بوليس . وقد ذكرت فى التوراة باسم « أون » .

كانت منبع الديانة المصرية ومركزاً لدراسة علم اللاهوت والفلسفة . وقد اختط بجانبها مدينتان شهيرتان هما «أحو» و « حا — بن — بن » والأخيرة هى مدينة بابيلون ومكانها الآن مصر القديمة . وكان لهاتين المدينتين شأن عظيم فى حروب « أوزيريس » .



موقع مدينة أون (عين شمس) والمعبد والمسلة وشجرة العذراء
بجوار المطرية من ضواحى القاهرة .

ومن المعروف أن مدن الوجه البحرى هى التى نشرت الحضارة المصرية ووسعت نطاقها لأن الصلوات والقصائد التى مدحت بها المعبودات وصارت بعد ذلك أصولا للكتب المقدسة كان منشؤها فى مدينة « أون » كما يقال لها أيضاً مدينة « يون » .

ولما انقسمت مصر إلى أعمال إدارية انتهى بها الأمر إلى قسمين مستقلين . فكانت « أون » فى الجهة البحرية مركزاً للحكومة ومنها انبثق نور المدنية على سكان الأراضى الخصبة واهتدى به أهل الأباطح ، وأنشأ فيها الكهنة مدارس وجامعات بحثت أصول الديانات المحلية واعتنت بها ورتبتها وأوجدت التقسيم الذى نجح وانتشر بهمة امراء الوجه البحرى . وعلى ذلك نشأ نظام الملك فى العالم لأول مرة فى مدينة « الشمس » على أساس أن الملك ابن الإله رع وممثل الآلهة على الأرض ، وشخصه مقدس ، و إرادته فوق كل إرادة ، وكلمته العليا يجب على الشعب إطاعتها بدون مناقشة .

وكانت مدينة الشمس فى الجهة الشمالية من المعبد حيث نشاهد الآن أطلالها عالية . ولم يبق من آثارها ما يستحق الذكر غير أنه أقيم فى مكانها قرية عرفت باسم « تل الحصن » وربما سرى إليها هذا الاسم لمجاورتها لحصن المدينة الأصلية .

وكان حول المدينة ومعبدها سور مبنى من اللبن كما كان الحصن يقوم فى شمالها . وكان للسور أبواب على أبعاد متساوية . وكان لكل باب برجان من الحجر الأبيض الجيرى مشحونان بالكتابة الهيروغليفية كما رواه مكسيم ديكان فى كتابه « النيل » . وقد ظهر حديثاً عند ما قامت وزارة الأشغال العمومية برفع الأحجار التى ألقيت خلف وتحت مبانى بئر مقياس النيل بالروضة لتقويتها أن كثيراً من هذه الأحجار عليها كتابات هيروغليفية تثبت أنها منقولة من معابد وأبواب مدينة أون القديمة (عين شمس) .

وقد نقل ابن سعيد عن كتاب « لذة اللمس فى حلى كورة عين شمس » أنها كانت فى قديم الزمان مدينة عظيمة الطول والعرض ، متصلة البناء بمدينة مصر (القديمة) حيث قامت مدينة الفسطاط فيما بعد .

ومعنى ذلك أنهم كانوا يطلقون اسم « عين شمس » على موقعها الحقيقى وعلى ما يليه من الأماكن إلى بابليون وحصنها .

وكانت المسافة بين المدينتين قصيرة على أن أرباضهما كانت فى القرن السابع الميلادى عبارة عن منازل وكنائس متفرقة .

وكانت المدينة فى ذلك العصر تقع على نهد من الأرض يمتد فى نهر النيل الذى كان يمر فى هذا العهد بها .

وفى أول العصر التركى وقعت المعركة الحاسمة بين السلطان سليم الأول والمماليك فى الحقول المحيطة بمسلة عين شمس سنة ١٥١٧ م وانتهت باحتلال الترك للبلاد المصرية .

وفى عصر الحملة الفرنسية تغلب القائد « كليبر » فى نفس هذه الحقول على الجيش التركى فى واقعة عين شمس وأخرج الترك من البلاد المصرية فى سنة ١٨٠٠ م .

معبد رع بعين الشمس

تدقق النصوص المعروفة باسم متون « الأهرام » فى الكلام عن معبد « رع » بمدينة « أون » ، وتسمى هذا المعبد « هيت سار » ومعناه « قصر الأمير » . وتشير إلى الممر المعروف باسم طريق الكباش الذى يؤدى إلى الأبواب المحروسة بتماثيل العجول .

أما هذا المعبد فقد بناه سنوسرت الأول من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، الذى عرفه اليونان باسم سيزوستريس ، سنة ٢٤٣٣ ق . م . بمناسبة عيد الأله ست إله الصحراء . ولم يبق منه الآن سوى مسلة واحدة من الجرانيت لا تزال ماثلة فى مكانها الأصلى يبلغ ارتفاعها ٦٦ قدماً وهى تحمل كتابات هيروغليفية على وجهاتها الأربع ذكر بها اسم الملك سنوسرت المحبوب من رع إله أون . كما ذكر بها بناء المعبد بمناسبة عيد الأله ست إله الصحراء ويحيط بهذه المسلة الآن سياج حديدى فوق حوائط أربعة أقيمت حول قاعدتها بشكل حوض صغير يمتلئ بمياه الرشح التى ترتفع مع فيضان النيل وتنخفض مع انخفاضه .

وقد كان بهذا المعبد هيا كل لتأدية الفروض الدينية ، كما كان به معاهد وجامعة للعلوم الدينية ومراصد لمراقبة النجوم ، لأن رئيس كهنة عين شمس كان يحمل من أقدم العصور لقب « الراصد الأكبر » .

وكان يوجد به أيضاً أماكن مخصصة للحيوانات المقدسة مثل عجل « منافيس » والطائر « مالك الحزين » الذى سماه اليونان « الفنكس » واسمه المصرى « بنو » ويعرفه الفلاح المصرى الآن باسم « البلشون » .

وكانت مدينة عين شمس مقر عبادة وتقديس هذا الطائر . وكان كهنة هذه الجهة يرون فيه إما الإله « أوزيريس » أو روح الإله « رع » . والفكرة الأخيرة كانت هى السائدة .

والمعروف عن هذا الطائر على وجه التحقيق أنه يلد على شجرة فى معبد عين شمس ، ومن المحتمل أنها الشجرة القديمة المقدسة التى كانت الآلهة تكتب على أوراقها أسماء ملوك مصر تخليداً لذكراهم . وهى شجرة الجميز المقدسة .

ويقال إن الشجرة التى كانت تزار بجهة عين شمس والمعروفة الآن باسم شجرة العذراء بناحية المطرية هى من نسل هذه الشجرة المقدسة .

فلما جاءت عائلة السيد المسيح أو العائلة المقدسة إلى مدينة أون ، حين هروبها إلى مصر فى عصر هيرودوس حاكم فلسطين الرومانى ، استراحت تحت ظل هذه الشجرة القديمة المورقة . ومن هذا الوقت وهى تعرف باسم شجرة العذراء .

وتحت هذه الشجرة ضرب الطفل يسوع الناصرى الأرض بقدمه فانفجرت عين من المياه العذبة المنعشة فشربت مريم وطفلها ويوسف وحمارهم حتى ارتووا . وغسلت العذراء ملابس طفلها بمياه هذه العين ثم ألقت بالمياه المتخلفة على عصا يوسف النجار التى كان قد غرسها فى الأرض فتحولت إلى شجرة البلسم المعروف أيضاً باسم البلسان ثم أينعت هذه الشجرة وفاحت منها رائحة ذكية . ولما نمت زارعة البلسم وغدا عصيره دواء ناجعاً لجميع الجروح وللأمراض الجلدية المستعصية ، أصبح البلسان من أثمن ما يقتنى ويعتنى به .

وفى العصر العربى أحيط هذا الموضع بسور متين وجعل الشرطة حول مزرعة البلسان لحراستها فى زمن الحصاد ، وأحياناً كان يعهد بهذه الحراسة إلى الأسرى المسيحيين .

وكانت طريقة حصاد البلسان هى فصد فروع الشجرة وجمع السائل المتخلف من هذا الفصد فى أوانٍ فضية . وتعمل هذه العملية فى فيضان النيل .

أما عين المياه التى انفجرت تحت شجرة العذراء فلا تزال للآن بالمطرية من ضواحى القاهرة . وقد ركبت فوقها ساقية تروى بستاناً من أملاك الحكومة . ومن المدهش أن تكون المياه الجوفيه فى هذه المنطقة كلها مياه ملحه ما عدا مياه هذه العين فإن مياهها عذبة منعشة ! ! .

وتريد الأساطير أن ترينا الآن كيف أن سكان ضاحية المطرية لا يختمر لهم خبز نظراً لما أظهروه من البخل قبل العائلة المقدسة حين قصدت إلى هذا المكان جائعة .

جامعة عين شمس :

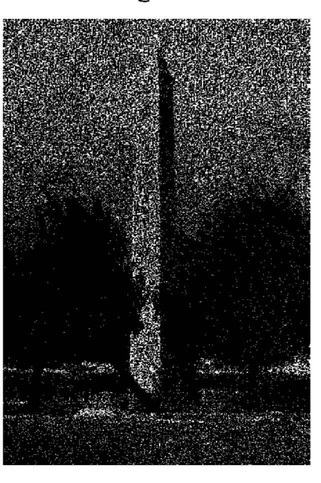
قلنا إنه لم يبق من مدينة « أون » القديمة شىء للآن فيما عدا شجرة العذراء بالمطرية التى استراحت الأسرة المقدسة بجوارها ، وفيما عدا العين التى انفجرت تحتها ، ثم مسلة منفردة من المسلتين اللتين أقامهما سنوسرت الأول عند مدخل معبد « رع » ، أما المسلة الثانية فقد سقطت سنة ١١٩٠ م .

بقيت هذه المسلة المنفردة وسط الحقول كشاهد حزين على مجد عين شمس الذى زال واندثر ! ! ولا يزال فى تل الحصن المجاور لهذا المكان آثار سور قوى قديم ارتفاعه حوالى عشرين قدما .

وقد علا سطح السهل ، الذى كانت تقوم عليه مدينة « أون » ، بضعة أمتار منذ القرون الماضية ، ويدل على ذلك العمق الذى توجد فيه المسلة اليوم ، والعمق الذى توجد فيه الآثار الأخرى تحت مستوى سطح السهل .

وكانت مدينة « أون » معروفة بعظمة آثارها كما كانت معروفة بأنها قبلة لأهل العلم وكعبة الدين .

فهنا بجوار هذه المسلة الوحيدة التى بقيت على الزمن شاهداً على ما كان لهذا الموقع من روعة وفخامة ، كانت تقوم جامعة عين شمس ضمن معبد رع .



المسلة التى أقامها سنوسرت الأول عند مدخل معبد « رع » بمدينة عين شمس منذ ٤٠٠٠ سنة تقريباً . ولا تزال موجودة بالقرب من المطرية وعلى أقدامها تجد أكواخ عربان تل الحصن القرية البائسة التى تقوم اليوم على أطلال مدينة عين شمس القديمة .

هنا فى مدينة عين شمس كانت تقوم أقدم جامعة عرفتها المدنية فى العالم وهى أم الجامعات كلها ، خلفتها جامعة الاسكندرية فى العصر اليونانى والرومانى والمسيحى ثم جامعة الفسطاط فجامعة القطائع فالجامعة الأزهرية فى العصر العربى و بعد ذلك جامعة فؤاد الأول بالقاهرة وجامعة فاروق بالاسكندرية فى العصر الحديث .

هنا فى جامعة أو معبد « رع » العظيم بمدينة أون القديمة تمت مراسم حفلة زواج يوسف الصديق ، بعد أن صار وزير مصر الأكبر ، بابنة الكاهن الأكبر لمعبد عين شمس .

هنا فى هذا المعبد الجامعى أقام تحوتمس الثالث فى عهد الأسرة الثامنة عشرة مسلتين نقلتهما الملكة كليوبترا فيما بعد إلى الاسكندرية وأقامتهما أمام معبد السيزاريوم . وظلت هاتان المسلتان بالاسكندرية إلى أن نقلت إحداهما إلى مدينة لندن سنة ١٨٧٧ ونصبت على ضفاف نهر التاميز ، ثم نقلت الثانية إلى الولايات المتحدة بأميريكا ونصبت فى سنترال بارك بنيويورك .

هنا فى جامعة عين شمس تلقى موسى الكليم عليه السلام ، حكمة المصريين وعلومهم على أيدى كهنة معبد « رع » .

هنا فى هذه الجامعة تناقش هيرودوت مع أكبر الكهنة علماً وثقافة .

هنا فى هذه الجامعة تلقى أفلاطون علومه ، ودرس أدوكسيس الرياضى الحكمة والفلسفة وعلم الفلك ، وتخرج كلود بطليموس الجغرافى الخالد الذكر .

هنا رأى أسترابون المنازل التى كان يقيم بها هؤلاء العلماء فى العصر اليونانى .

هنا فى هذه الجامعة تعلم الناس قياس الزمن على أساس أن السنة الشمسية وحدة فى التوقيت .

هنا قسم الكهنة السنة إلى ٣٦٥ يوماً ، ولكنهم لم يتمكنوا من معرفة أن هذا العدد ينقصه ربع يوم . وهذا التقصير فى الإدراك مكّن المؤرخين من معرفة عدة عصور هامة فى العهد الفرعونى كانت معرفتها متعذرة من دونه .

هنا قسم الكهنة السنة اثنى عشر شهراً ، وقسموا الشهر ثلاثين يوماً ثم أضافوا إليها فى آخر العام خمسة أيام كى تصبح ٣٦٥ يوما .

هنا قسم الكهنة السنة ثلاثة فصول : فصل الزرع وفصل الحصاد وفصل الفيضان .

هنا أطلق الكهنة أسماء الآلهة على شهور السنة ، وظلت هذه الأسماء محفوظة للآن فى أشهر السنة القبطية : فشهر توت مأخوذ من اسم الإله توت إله المعارف ورب القلم ومخترع الكتابة ومقسم الزمن ، وهو المعروف عند اليونان باسم هرمس ، وعند العرب باسم إدريس ، وعند اليهود باسم أخنوخ . ويقابل هذا الشهر شهر « تهوتى » فى الشهور المصرية القديمة ومعناه شهر الرخاء لأن عيد تكامل الفيضان يوافق اليوم الأول من هذا الشهر .

وكان الاحتفال بهذا العيد يبقى أسبوعا كاملا فى العصر الفرعونى .

وفى العصور التالية سمى اليوم الأول من شهر توت بالنيروز ، وهى كلمة فارسية معناها اليوم الجديد أو رأس السنة.

وكانت الحكومات المصرية تحتفل بهذا العيد رسميا من أقدم العصور المعروفة ، وظل الاحتفال الرسمى حتى أيام السلطان برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، فأمر بإبطاله فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى . ولكن هذا الأمر لم يمنع نصارى مصر ومسلميها من الاحتفال بهذا العيد القومى احتفالا شعبيا عظيما فى الماضى . فعند تكامل الفيضان يمتلئ النهر بالسفن والزوارق ، وينزل فيها الرجال والنساء ويختلط الحابل بالنابل وتدور كئوس الراح على النغمات الموسيقية ويظل القوم فى سرور وانشراح حتى يسدل الليل ستاره ، فينصرفون إلى دورهم . وظل هذا الاحتفال الشعبى حياً حتى استبدل فى العصور الحديثة بعيد وفاء النيل المعروف .

أما شهر بابه فاسمه مأخوذ من اسم إله الزراعة « بى — بيت » وهو شهر عيد آمون وفيه يضرب المثل « بابه خش واقفل الدرّابه » .

أما شهر هاتور فاسمه مأخوذ من اسم الإلهة هاتحور إلهة الحب والجمال وملكة السماء والفرح والمحبة التى يقابلها عند اليونان « أفروديت » .

ويزرع القمح فى هذا الشهر فى الوجه البحرى ولذا يقال فى الأمثال « هاتور أبو الذهب المنثور » .

أما شهر كيهك فقد قيل إن اسمه من « كا — ها — كا » إله الخير ، وهو الثور المقدس المعروف عند العامة باسم العجل أبيس . وفيه يبلغ الليل نهايته من الزيادة ولذلك يقولون فى الأمثال : « كياك صباحك مساك » .

أما شهر طوبة فقد قيل إن اسمه مشتق من لفظة « دُبَه » المصرية القديمة بمعنى غسل أو تطهر كما قيل إنه

مشتق من «طو بيا الأعلى» إله المطر ، ومن إسمه سميت مدينة طيبة (الأقصر والكرنك) . و يقع عيد الغطاس عند النصارى يوم ١١ طو به ، و يبدأ نضج القمح فى هذا الشهر وفيه يضرب المثل : « طو بة تخلى العجوزه كركو بة ».

أما شهر أمشير فيقابله « ماج — يبر » ومعناه إنتهاء البرد ، وقيل إن اسمه أخذ من اسم إله الشياطين لحصول الزوابع والتقلبات الجوية الحادة فيه ، ولذلك يقولون « أمشير أبو الزعابيب الكثير ، فيه الزرع القصير يحصل الزرع الطو يل » .

أما شهر برمهات فينسب إلى « با — منحات » إله الحرارة . وفيه يقال : « برمهات روح الغيط وهات » .

أما شهر برموده فينسب إلى إلهة الحصاد « نوت » . و يقابل هذا الشهر شهر « بارنوت » فى الشهور المصرية القديمة . وفيه يتم حصاد القمح والشعير والفول والحلبة . وفيه يقال : « برموده دق بالعمودة » .

أما شهر بشنس فينسب إلى الإله « خونسو » ابن الإله « آمون » والإلهة « موت » . وفيه يقال : « بشنس يكنس الغيط كنس » .

أما شهر بؤونة الحجر فينسب إلى الحجر لشدة القيظ فيه . و يقابله فى الشهور المصرية القديمة « با أنت » ومعناها مقابر طيبه . وفيه يزور الناس موتاهم . وفيه أيضاً نزول النقطة وهى علامة بدء الفيضان . وكانت نساء منف وعين شمس يتنبأن ببدء الفيضان بوضع قليل من العجين فوق أسطح منازلهن . فإذا نزلت النقطة تخمر العجين وكان هذا فألا حسنا لهن ولأهل منازلهن طول العام .

أما شهر « أبيب » فقيل إن أصله « هور با » إله الفرح ، و يقابله الشهر المصرى « أبيب » وهو شهر قطع الأحجار وفيه يقال « أبيب طباخ العنب والزبيب » .

أما شهر مسرى فنسبة إلى « ميسورع » ومعناه ولادة الشمس . وفيه يقال : مسرى تجرى فيه كل ترعة عسره ».

وهكذا بقيت علوم جامعة عين شمس القديمة إلى الآن فى أسماء الشهور القبطية أو شهور الفلاح والزراعة ! !

والآن تفكر وزارة المعارف العمومية فى إنشاء جامعة جديدة بمدينة القاهرة .

فما أجمل إحياء ذكرى جامعة عين شمس القديمة !

وما أروع هذه الفكرة وأسماها ! ! لو انشئت هذه الجامعة الجديدة فى نفس الموقع الذى كانت تقوم فيه جامعة عين شمس القديمة أوبالقرب منه !

وجدير برجل المعارف ووزيرها الجليل احمد نجيب الهلالى باشا أن يعيد إحياء ذكرى جامعة عين شمس فى عهد وزارة الشعب تحت رئاسة صاحب المقام الرفيع الزعيم الجليل مصطفى النحاس باشا . وتحت كنف حضرة صاحب الجلالة مليك النيل المفدى فاروق الأول حفظه الله ! !

الفصل الخامس

مدينـــة مصر

الظاهر أنه منذ القدم ، انتشرت على الشاطىء الشرقى للنيل ، مقابل مدينة منف وضواحيها ، مجموعة من القرى أطلق عليها القدماء اسم مدينة « منف الشرقية » .

وظلت هذه القرى تنمو مع الزمن وتمتـد وتتلاحق حتى أوشكت أن يتصل بعضها ببعض من فرط اتساعها وانتشارها .

ولما وصلت هذه المجموعة إلى هذا الحد من الاتساع أطلق عليها اسم مدينة « كيمى » ومعناها مدينة « مصر » وإلى هذه الحالة القديمة يرجع السبب فى إطلاق اسم مدينة « مصر » على القاهرة وضواحيها لغاية اليوم .

وقد تداولت على هذه القرى أسماء كثيرة فى العصور المتتالية . وكانت أهمها القرى الآتية :

أولاً — قرية « تندونياس » التى سماها العرب فى عصر الفتح «أم دنين» وموقعها الآن فى قلب القاهرة ، وهى التى عرفت أيضاً باسم المقس ، وقد تكلمنا عنها فى الصفحات ١٦٩و١٧٠ من الجزء الأول من هذا الكتاب ، وكانت تشمل المواقع التى فيها اليوم جامع أولاد عنان بشارع ابراهيم باشا وجزء كبير من قسم الأزبكية .

ويقوم جامع أولاد عنان اليوم مكان كنيسة قديمة كانت تعرف فى العصر المسيحى باسم كنيسة مار جرجس ، ولذا يقصده النصارى والمسلمون على السواء لغاية الآن للتبرك .

ثانياً — قرية الخندق وكانت تشمل المواقع التى فيهـا اليوم دير أنبا رويس والكنيسة البطرسية بشارع الملكة نازلى وتمتد حتى دير الملاك البحرى بشارع الملك بحدائق القبة وتشمل فوق ذلك جزءاً كبيراً من قسم الوايلى .

ثالثاً — قرية بابليون وقلعتها وكانت تشمل المواقع التى فيها اليوم الحصن الرومانى المعروف باسم «قصر الشمع» وهذا الاسم تحريف ظاهر لاسم قصر كيمى أو قصر شيمى ومعنى ذلك حصن مدينة مصر .

رابعاً — قرية دير الطين وكانت تعرف أولا باسم قرية دير مار حنا ولكن شهرتها بتصدير الطين الأصفر الذى كان يستعمل فى صناعة الخزف بمصانع العدوية وغيرها جعل اسم قرية دير الطين يتغلب على اسمها الآخر .

وكانت الأرض الزراعية التابعة لهذه القرية مقيدة حتى عهد محمد على باشا باسم بركة الحبش . وكانت بركة الحبش

هذه من النواحى المالية القديمة ثم قسم زمامها على قرية دير الطين وعلى قرية بساتين الوزير المعروفة اليوم باسم البساتين فقط واختفى اسم بركة الحبش .

خامساً — قرية العدوية المنسوبة إلى سيدة مغربية تسمى العدوية وهى التى أنشأت بها دير النسطور نسبة إلى الطائفة النسطورية المعروفة . وفى عهد احمد بن طولون أقطعت هذه القرية لاثنى عشر ألفاً من غلمانه السود فسميت منية السودان . وتعرف هذه القرية اليوم باسم معادى الخبيرى نسبة إلى الريس حسين بن حماد الخبيرى المتوفى سنة ١٢٢٤هـ وكان متعهد المعادى فى النيل بهذا الموقع .

سادساً — قرى الحجارة أو مرافىء طره وشهران (المعصرة الحالية) التى ذاع صيت معاصرها القديمة فى العصر المسيحى .

وكانت طره وشهران تطلان على النيل مباشرة ، وكانت بها مرافىء معدة إعداداً تاماً لتحميل السفن بالأحجار الضخمة الناصعة البياض المعروفة باسم الحجر السلطانى . وقد خلعت هذه الأحجار من محاجر طره والمعصرة لتكسية واجهات اهرامات الجيزة ولبناء حجرات الدفن الداخلية .

سابعاً — قرى الاستشفاء حيث حلوان البلد وحلوان الحمامات وكفر العلو الآن . وكانت هذه القرى تقع قديماً فى شبه جزيرة بين فرعى النيل الرئيسيين لأن الدلتا كانت تبدأ عند قرية كفر العلو الحالية فى عهد من عهود منف الطويلة .

وربما ترجع تسمية كفر العلو وحلوان أو علوان إلى هذا المعنى أى الأرض العالية الواقعة بين فرعى النيل .

كل هذه المجموعة من القرى — وقد تكلمنا عنها بالأسهاب الكافى فى الجزء الأول من هذا الكتاب . كان يطلق عليها قديماً اسم مدينة « منف الشرقية » . و بعد ذلك عرفت باسم مدينة « كيمى » أو مدينة « مصر » .

وفى العصر المسيحى وصلت هذه المدينة لأن تكون مدينة هامة لها خطرها فى الحرب ولها مركزها بين المدن المصرية العريقة فى القدم وكان مركزها الرئيسى حول حصن بابيلون ولذا طغى هذا الإسم على المدينة كلها وعرفت باسم مدينة بابيلون . وكان لموقعها أهمية خاصة إذ أنها تسيطر على طرق القوافل الآتية من الوديان المنتشرة فى الصحراء الشرقية كما كانت تسيطر على رأس الدلتا وتتبعها فى تنقلاتها من الجنوب إلى الشمال وتشرف هكذا على طرق الملاحة فى النيل المؤدية للوجهين القبلى والبحرى ، وتحمى مدينـــة منف ، وكانت لها بمثابة حصن أمامى .

قلنا سابقاً إنه بعد تأسيس مدينة الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق . م ابتدأت مدينة منف فى الاضمحلال إذ نقلت أحجارها وأعمدتها لاستعمالها فى تشييد مبانى عاصمة البطالمة الجديدة .



ولما صدر مرسوم الأمبراطور تيودوسيوس سنة ٣٧٩ م الذى جعل المسيحية الدين الرسمى للبلاد تعرضت مدينة منف للتخريب والنهب ، ولم ينج من الهدم والحريق لا معبد « فتاح » ولا « معبد أبيس » ولا معبد « أفروديت » . . وتكسرت تماثيل الآلهة الوثنية وقام أنصار الدين الجديد بهدم و إخفاء معالم المدينة الشهيرة ، ثم استعملت الأحجار المنحوتة والأعمدة المصقولة المتخلفة من معابد منف فى بناء الكنائس والحصون وسواها بمدينة مصر .

ولما أنشأ العرب مدينة الفسطاط فى القرن السابع الميلادى فى عهد الفتح العربى ، ظلت نفس هذه العملية — عملية نقل أحجار وأعمدة منف — مستمرة واستعملت هذه الأحجار وهذه الأعمدة فى بناء المساجد ودور الحكم والتحصينات بعاصمة الإسلام الجديدة .

وقد استمرت هذه العملية أيضاً فى بناء العواصم الإسلامية التالية وهى : العسكر والقطائع والقاهرة المعزية . حتى اندثرت مدينة منف تماماً واختفت من الوجود .

ولا تزال أحجار وأعمدة معابد منف الوثنية موجودة للآن فى بعض كنائس وجوامع القاهرة الحالية .

وقد حصل فى العصر العربى أن هدمت كنائس كثيرة من الكنائس المسيحية القديمة ، إما بسبب هجرة أصحابها للدين القديم واعتناقهم الإسلام أو لأسباب سياسية أخرى ، واستعملت أحجارها وأعمدتها مرة أخرى فى بناء المساجد والقصور الأسلامية وهى هى نفس الأحجار التى سبق نقلها من المعابد المصرية ، واستعملها فى بناء هذه الكنائس . وهكذا يعيد التاريخ نفسه ! !

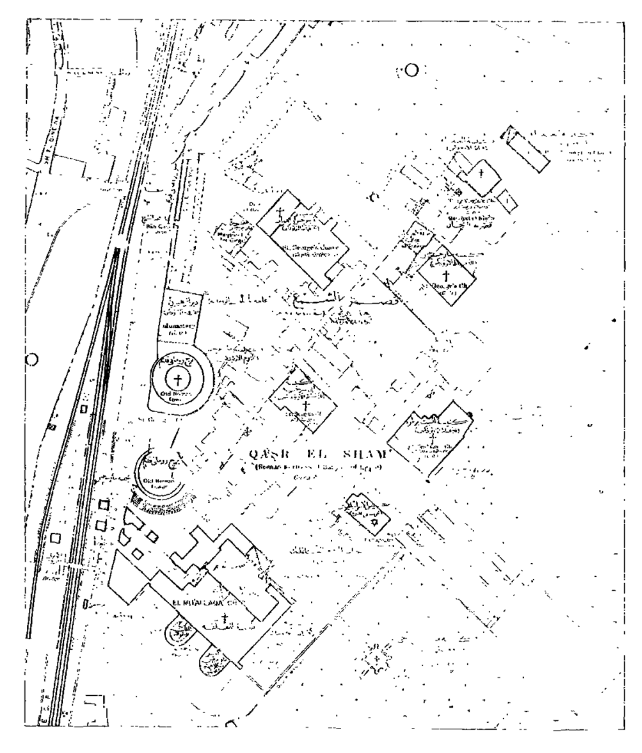
ولا زال الباحثون يعثرون لليوم فى كثير من أحياء القاهرة القديمة على حجارة كبيرة عليها نقوش هيروغليفية من عهد منف وعين شمس .

حصن بابليون أو قصر الشمع :

طغى اسم بابليون على اسم مدينة مصر فى العصر الرومانى كما قلنا . ولكن اسم مدينة بابليون لم يعلو إلا فى العصر المسيحى حيث كانت مركز الحكومة المحلية كما كانت قلعتها المعروفة باسم حصن بابليون والمطلة على شاطىء النيل الشرقى مقراً لأقوى رباطات جيش الاحتلال الرومانى بالقطر المصرى .

وقد بلغ طول أسوار هذا الحصن فى عهد استرابون ٣٠٠ متر وعرضها ٢١٥ متراً .

وقد قاومت هذه الأسوار الغزوات الأجنبية قروناً عديدة حتى سقطت سنة ٦١٧م فى أيدى الفرس تحت قيادة كسرى أنوشروان . ثم ما لبثت أن سقطت مرة ثانية سنة ٦٤١ م فى أيدى العرب تحت قيادة عمرو بن العاص بعد حصار دام ثمانية أشهر تقريباً .



خريطة تبين موقع حصن بابليون أو قصر الشمع بقسم مصر القديمة بالقاهرة .

وقد ترك لنا حنا النقيومى الأسقف القبطى الذى كان معاصراً لزمن الفتح العربى ديوانا ممتعاً عن حوادث هذا العهد ذكر فيه تاريخ حصن بابيلون باسهاب طويل .

ويعرف هذا الأسقف باسم حنا النقيومى نسبة إلى مدينة نقيوس التى لا تزال أطلالها باقية للآن فى كوم مانوس الواقع شمالى قرية زاوية رزين بمركز منوف على الشاطىء الشرقى لفرع رشيد .

وقد جاء فى ديوان هذا الأسقف — وقد كتب فى أواخر القرن السابع الميلادى — أن أول من بنى حصن بابيلون هو الامبراطور تراچان فى العام المتمم للمائة بعد الميلاد ، وذلك أن اليهود ثاروا بالإسكندرية مرة فأرسل إليهم تراچان جيشاً عظيما تحت قيادة « مرقيوس تربو » ثم جاء بنفسه إلى مدينة مصر وبنى بها حصناً وجعل فيه قلعة منيعة قوية وجعل فيها ماء كثيراً . ولعله يقصد بالماء الكثير ما حفر من الآبار عند الصرح المستدير وفى مواضع أخرى من الحصن .

ثم قال فى مكان آخر من نفس هذا الديوان :

« إن أصل ذلك الحصن كان بناء أقامه بختنصر وذلك حين استيلائه على مصر ونفى اليهود إليها عقب هدم أورشليم وسماه بابيلون باسم عاصمة بلاده آشور . فأقام تراچان أسوار الحصن على أساسه وزاد فى بنائه » .

قال بتلر : « وعلى كل حال فلا شك فى أن البناء القائم اليوم بناء رومانى . ولا نظن أن تراچان جعل بناءه على نسق بناء كان فى ذلك الموضع من قبل . مع أنه من المحقق أنه كان فى تلك الجهة حصن قديم . فقد جاء أسترابون إلى مصر قبل عهد تراچان بنحو ١٣٠ سنة ، وقد ذكر أنه رأى حصناً قديماً على نهد من الصخر . وقال إن السبب فى تسميته أن جماعة من أسرى بابل كانت مقيمة فيه . وكان هناك طريق مائل للنزول من الحصن إلى شاطىء النيل . وكان حول هذا الطريق آلات لرفع المياه إلى الحصن يشتغل فيها ١٥٠ أسيراً » .

وقال ديودور الصقلى : « إن ملك مصر سيزوستريس جاء بجماعة من أسرى بابل وأنزلهم فى قصر ، فأطلقوا على القصر اسم المدينة التى جاءوا منها » .

ويقول المؤرخ يوسفوس : « إن الحصن لم يبن إلا فى أيام غزوة الفرس فى حكم الملك قمبيز » .

وقال ابن بطريق : « إن آخوس وهو أرتخشيارش أو خوس هو الذى بنى الحصن »

وأقول : يتبين مما ذكر أنه كان على مقربة من موضع حصن بابيلون المعروف الآن باسم قصر الشمع بمصر القديمة حصن قديم كانوا يطلقون عليه أيضاً اسم بابيلون مدة قرون طويلة قبل أيام تراچان — وكان ذلك الحصن القديم على نهد صخرى كما قال أسترابون . ولا يزال ذلك النهد الصخرى إلى اليوم ماثلا ويرى داخلا فى مصر (القديمة) فى المكان الذى يعرف باسم اسطبل عنتر .

وقد هجر هذا الحصن منذ القدم بسبب صعوبة وصول المياه إليه كما يتبين من قول أسترابون أيضاً ، وأنشىء بدله قصر الشمع وهو أهم ما تركه الرومان من الآثار بالديار المصرية بعد أن حكموها أكثر من ٦٠٠ سنة ! !

ويعرف الحصن الآن باسم قصر الشمع وكان اسمه باللغة القبطية فى وقت الفتح العربى بابيلون — آن — كيمى، ومعناها بابيلون مصر .

وليس من السهل أن نعرف أصل تسميته بقصر الشمع باللغة العربية . فقد تكون لفظ « الشمع » تحريف للكلمة المصرية « كيمى » ومعناها مصر كما قلنا ، فصارت جيمى ثم شمع ويكون اسم قصر الشمع تحريفاً لاسم قصر مصر أو حصن مدينة مصر .

ولكن قد نصت الأخبار على أنه كان فى حصن بابليون القديم هيكل للنار ، وأنه قد بنى هيكل آخر مثله فى صرح من الصروح بالحصن الرومانى وذلك فى مدة حكم الفرس للبلاد فى القرن السابع .

ونجد فى كتاب « ياقوت » ذكر « قبة الدخان » ولعل منشأ ذلك أن الصروح العالية كانت تتخذ فى وقت الحروب مراقب تبعث منها الإشارات . فلعله قد جعل على أحد الصرحين أو عليهما معاً منائر توقد فيها النيران للاشارة فنشأ عن ذلك اسم قصر الشمع .

وهنا يجدر بنا أن نقول : إن فكرة الصروح منقولة عن قدماء المصريين . ففى صدر كل معبد مصرى قديم كان يوجد برجان أو صرحان شاهقان كانا يستعملان فى وقت الحرب للاستكشاف ومعرفة حركات جنود العدو وإرسال الإشارات المناسبة إلى الجنود المدافعين . وفى وقت السلم كانت تستعمل لمراقبة حركات الكواكب فى السماء وللأرصاد الفلكية .

ومن الأسباب الأخرى التى ذكرت عن أصل تسمية الحصن باسم قصر الشمع باللغة العربية ما قاله ابن اسحاق : « لأنه كان لا يخلو من الشمع » . ونقل عنه ذلك الواقدى فى فتوح الشام . وذكر المقريزى ذلك فى خططه عن الواقدى . قال : كان هذا القصر يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر فيعلم الناس أن الشمس انتقلت من البرج الذى حلت فيه إلى برج آخر غيره .

وذكر المقريزى فى مكان آخر : « أنه عرف بقصر الشمع لأن الفرس بنوه وجعلوا فيه بيت النار وكان له باب يقال له باب الشمع » .

قال بتلر : « ومهما يكن من أمر العرب وتحريفهم لاسم الحصن فقد ظل كتاب أوربا فى القرون الوسطى يطلقون على ذلك الموضع اسم بابيلون وليس اسم مصر وحفظوا تلك التسمية إلى ما بعد بناء قاهرة المعز فصاروا يطلقون على مدينة مصر اسم « بابيلون » ويسمون حاكمها « سلطان بابيلون » .

أهم معالم الحصن القديم :

استعمل فى بناء هذا الحصن أحجار أخذت من مبانى مدينة منف ومدينة عين شمس الفرعونيتين ، ولم يزل على بعضها نقوش هيروغليفية ، كما استعمل فى بنائه أيضاً طوب كبير الحجم يبلغ مقاس الطوبة منه ٣٠ × ٢٠ × ١٥ سنتمترا ، مداميك منتظمة خمسة من الحجر وثلاثة من الطوب .

ولم يبق من هذا الحصن العظيم الآن إلا الباب القبلى يكتنفه برجان كبيران يبلغ إرتفاعهما نحو ٢٠ متراً و يبلغ سمك جدرانهما مترين ، و بوسط أرضية الممر المؤدى لداخل الحصن قناة لتصريف مياه الأمطار فى النيل ، وهذه الأرضية مرصوفة بالحجر ، وهى على عمق عشرة أمتار تقريباً تحت منسوب سطح الشارع الخارجى .

وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بإزالة ما كان يطمس هذه المبانى من الأتربة والرمال ورممتها على يد المرحوم هرتس باشا والمسيو باتريكولو .

ولم يزل باقياً أيضاً بعض أجزاء أسوار هذا الحصن فى الجهات الشرقية والقبلية والغربية ، و برجان مستديران أحدهما أمام باب المتحف القبطى والآخر مقابل له فى حيازة الروم الأرثوذكس من قديم الزمان وعلى قمته كنيسة لهم تعرف باسم كنيسة مار جرجس تجدد بناؤها بعد أن احترقت ١٩٠٠ .

ولا يعلم إتساع الحصن بالضبط اليوم ، غير أنه يمكن تقديره قياساً على ما ذكره القدماء بنحو نصف الكيلومتر المربع ، و بداخله الآن عدا كنيسة مارجرجس المشار إليها ، المتحف القبطى وست كنائس قبطية وهى :

١ — كنيسة المعلقة التى تراها اليوم بعد أن أتى عليها من العمر ثلاثة عشر قرنا وهى معلقة على قمة البرجين الجنوبيين من أبراج الحصن القديمة بطريقة تختلف عن الطريقة التى أقام بها الروم كنيسة مارجرجس فوق قمة البرج الثالث الغربى ، ولكن الظاهر أن نفس الفكرة التى حدت بالقبط إلى إنشاء كنيسة المعلقة فوق الأبراج القبلية هى هى نفس الفكرة التى حدت بالروم إلى أنشأ كنيستهم فوق البرج الغربى . وربما كانت هذه الفكرة هى جعل بيوت العبادة أعلا منسوباً من بيوت الناس المحيطة بها . أو إمكان الإحتماء بها على اللزوم .

٢ — كنيسة أبو سرجة و بها مغارة ينزل إليها الإنسان بدرجات كثيرة ، ومنسوب أرضها منخفض عن منسوب أرض الشارع الخارجى بحوالى عشرة أمتار . و يقال أن العائلة المقدسة ، عائلة السيد المسيح ، لجأت إلى هذه المغارة أثناء هروبها إلى مصر . ومن المدهش أن الانسان يتمتع داخل هذه المغارة بنسيم عليل مهما كان الجو حارا أو باردا فى الخارج ! !

٣ — كنيسة الست بر باره

٤ — كنيسة مارجرجس للقبط وهى غير كنيسة مارجرجس الرومانى المقامة فوق البرج الغربى للحصن وهى مملوكة للروم كما قلنا سابقا .

٥ — كنيسة قصرية الريحان

٦ — كنيسة دير البنات .

وسنتكلم عن هذه الكنائس الستة وعن المتحف القبطى بتوسع فى نهاية هذا الفصل .

وهناك أيضاً بيعة لليهود كانت فى الأصل كنيسة من كنائس الأقباط باسم كنيسة الملاك غبريال ، بيعت لليهود الذين يعتقدون أنها بنيت على مكان أقام به أرميا النبى ، والذى باعها لهم ميخائيل البطريرك السادس والخمسون بين ما باعه من العقار ليتمكن من دفع عشرين ألف دينار فرضها على الأقباط أحمد بن طولون فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، وقد ورد ذكر ذلك فى كتاب الخطط والآثار للمقريزى . وقد هدم اليهود جزءاً من الكنيسة الأصلية وأقاموا محله بيعتهم المذكورة ، كما هدموا جانباً عظيماً من سور الحصن .

وكان بالحصن خلاف الكنائس المذكورة مقياس للنيل بقيت آثاره إلى أيام المقريزى . قال : « وكان هذا المقياس يقع بصدر زقاق غير نافذ يسمى زقاق القنارية . ثم عمر الشيخ شمس الدين أبو عبد الله ابن النعمان مسجد النصر وقيل مسجد الفتح الذى عرف فيما بعد بزاوية الشيخ شمس الدين بن نعمان الفاسى بالقرب من الكنيسة المعلقة واشتهر بأنه موضع مبارك . وقد بقيت هذه الزاوية بيد أولاد النعمان إلى ما بعد سنة ٧٩٣ هـ . وكان بأسفل المسجد سقيفة تعرف به تجاور كنيسة الروم الملكيين »

وذكر ابن المتوج : إن عمود المقياس موجود فى زقاق مسجد ابن النعمان .

وأضاف المقريزى : وهذا العمود باق إلى يومنا هذا (يعنى سنة ٨٢٠ هـ) .

وقد عين « أبو المحاسن » فى « النجوم الزاهرة » موقعه بأنه بالقصر خلف الباب عنة من يدخل منه فى داخل الزقاق . وإن أثره كان لا يزال قائماً فى زمنه وقد بنى عليه وحوله .

ولما ذكر المقريزى دير البنات بقصر الشمع قال : وهو على اسم بوجرج وكان به مقياس النيل قبل الإسلام ولا يزال به آثار ذلك .

وأقول : أنه يوجد لغاية الآن بمدافن الروم الأرثوذكس بدير مارجرجس بمصر القديمة كتل كبيرة من الحجر على عمق أربعة أمتار من أرض الدير ، يرجح أن تكون من بقايا بئر مقياس النيل القديم !

الحصن منذ عهد الحملة الفرنسية :

ولما زار « أرتور رونيه » قصر الشمع عقب قدومه إلى مصر سنة ١٨٦٤ لم يكن باقياً منه غير مدخله الرئيسى ويتكون من الباب الكبير تكتنفه من الجانبين بدنتان بارزتان .

وقد ذكر هذا الرحالة أن إحدى لوحات كتاب « وصف مصر » لعلماء الحملة الفرنسية مرسوم فيها الباب الكبير وثلاثة أبراج . وقد تهدم منها البرج الغربى وأصبح باب القصر مطموراً فى الأرض أكثر مما كان عليه

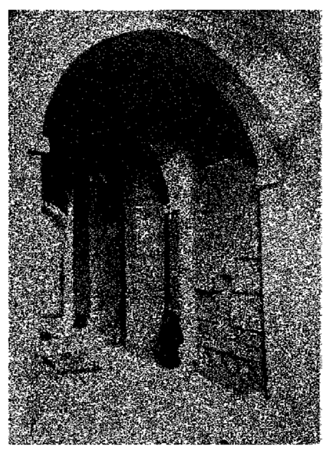
ولما أزاحت لجنة حفظ الآثار العربية ما تراكم من الأتربة والأنقاض على هذه المواقع التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ الفتح الإسلامى ظهر الباب الحديد المذكور وظهر درب المعلقة وهو درب أسفل كنيسة المعلقة يؤدى إلى داخل القصر الرومانى .

وكانت للقصر أبواب أخرى منها الباب الشمالى الشرقى المعروف باسم «باب درب الحجر» والباب الشمالى المعروف باسم «باب محط القرب» لأن السقايين كانوا يردون عليه بالقرب يستقون الماء من النيل .

وكانت المسافة بين باب الحديد و باب محط القرب فضاء . وكان الرومان يسمون هذا الفضاء «بروبونيا كولوم» وكان يستخدم للمقاومة إذا تمكن العدو من اقتحام الباب الأول .

وكان بدائر الجدران فى أعلى الحصن ممر يتجمعون فيه لضرب العدو المقتحم .

وقد أصبح هذا الفضاء مسقوفاً منذ توسيع كنيسة المعلقة . وكانت فى الأصل راكبة على جزء من الحصن فقط شرقى الباب الجنوبى .



بقايا الحصن الرومانى .
دهليز بداخل باب الحديد تحت الكنيسة المعلقة
يصل إليه الزائر بسلم من حديقة المتحف القبطى .

وكانت بالجهة الشرقية من الحصن فى وقت الفتح مزارع و إلى شماله حدائق وكروم وفيما يليها إلى الجبل الشرقى كنائس وأديرة متصلة إلى الموضع الذى به اليوم جامع ابن طولون وقلعة الكبش .

حصن بابليون اليوم :

قال بتلر : بقى من حصن بابليون إلى نحو أوائل القرن العشرين ما يدل على ما كانت عليه هيئته وعظمة خطره . وكان الفضل للقبط فى حفظ تلك البقية إذ اجتمعت لهم كنائس عدة فيه منذ أول عهد المسيحية لأنهم وجدوا وراء أسواره منعة لهم فى أيام المحنة والشدة . وكانت كل أسوار الحصن للقبط إلا ما كان منها للروم الملكانيين وهو موضع كنيسة مار جرجس و إلا ما كان منها لليهود وهو موضع بيعتهم .

والظاهر أن المسلمين لم يحفلوا بالمحافظة على ذلك الأثر مع ما كان له من الخطر فى أيام فتحهم ومع كثرة ما كتبه مؤرخوهم عنه .

وقد خرّب الحصن تخريباً يرثى له فى السنين التى تلت الاحتلال الإنجليزى لمصر . إذ شعر أهله بالاطمئنان والأمن بعد أن استقرت الأمور فى مصر وأصبح الأمر فى غير حاجة إلى الأسوار المنيعة فشرع القبط واليونان واليهود وكأنهم يتبارون فى هدم أسواره كلما بدا لهم فتح باب فى ناحية أو إقامة بناء فى جانب منه .

وقد تكون السنوات الثمانية عشرة بين سنة ١٨٨٤ وسنة ١٩٠٢ قد شهدت من تهدم هذا الحصن أكثر مما شهدته القرون الثمانية عشر التى قبلها .

فلما انتهى الأمر إلى ذلك وحدث الضرر الذى كان يخشى حدوثه تدخلت الحكومة و بسطت حمايتها على ما بقى من الحصن .

ولكن ما أقل ما قد بقى منه ! !

ومع ذلك تدل البقية الباقية من هذا الحصن الآن على ما كان لسا كنيه من المصريين المسيحيين المعروفين باسم القبط من شخصية تتجلى فى تمسكهم بلغتهم إبان حكم الدولة البيزنطية فى مصر و بعده ، وفى الخواص التى تميز فنهم عن الفن البيزنطى فهم بلا نزاع حلقه الاتصال بين مصر الفرعونية ومصر الإسلامية .

وفى المتحف القبطى الذى أنشأته الحكومة المصرية بفضل مساعى العالم الجليل مرقص سميكه باشا بجوار كنيسة المعلقة داخل أسوار حصن بابيلون القديم وأفتتحه جلالة الملك فؤاد الأول رحمه الله سنة ١٩٣٠ بدائع رائعة لهذا الفن ! !

و يتصل هذا البحث بتاريخ القبط فلا بد هنا من كلمة عن القبط وعن الفن القبطى فنقول :

القبط والفن القبطى :

ليست لفظ « قبط » فى الواقع إلا تحريف ظاهر لكلمة « جبت » التى سميت بها مصر فى العصر اليونانى .
وهذه الكلمة اليونانية نفسها مأخوذة من أحد أسماء جبانة منف باللغة الهيروغليفيته بعد تحريفها . وهذا الإسم هو « هت — كا — بتاح » ومعناه أرض قرينة الأله فتاح ، فنطقه الوافدون من الإغريق محرفاً هكذا « أيجبتاه » ثم انتقل هذا الإسم بعد ذلك إلى اللغات الأخرى ونطق هكذا « أيجيبت » وأطلق على مصر التى عرف أهلها عند العرب باسم « جيبت » أو « قبط » .

وقد أجمع العلماء على أن القبط هم سلالة قدماء المصريين وأن تسعة أعشار المصريين الحاليين متناسلون من القبط الذين اعتنقوا الدين الإسلامى . .

ولذا تعرف الكنيسة المصرية فى أوربا وفى الخارج الآن باسم الكنيسة القبطية .

لقد كان فتح اليونان لمصر سنة ٣٣٢ ق . م . حداً فاصلاً بين عهدين فى تاريخ مصر السياسى ، عهد العظمة والاستقلال وعهد العبودية والاستعمار .

كانت مصر قبل العهد اليونانى والعهد الرومانى أمة واحدة يحكمها المصريون بحكمة ووطنية وتدبير و إحكام وكرامة وفن ، أما بعد الاحتلال اليونانى والرومانى فقد حكمها الروم بالعنف والصرامة ، ورغم ذلك احتفظت بقوميتها وحاطتها بمذهب دينى مستقل حافظت عليه أشد المحافظة .

وما كانت محافظتها على مذهبها الدينى إلا صورة من صور الحرص على بقاء شخصيتها ودوام استقلالها .

فلما اشتد ساعد المقاومة السلبية للمحتلين ، الذين فرضوا على البلاد دينهم ولغتهم ، ظهرت اللغة القبطية وهى لغة قدماء المصريين ، استعيض فيها عن الرموز الهيروغليفية بالحروف اليونانية بعد أن أضيفت إليها سبعة حروف أخذت من الديموتيقية .

وكان ظهور هذه اللغة هو رمز الثورة على الروم وعلى أساليبهم التعسفية فى حكم البلاد .

وفى سنة ٢٨٤ م لما اشتد الإمبراطور دبوكلسيان فى اضطهاد القبط ليردهم عن النصرانية إلى الوثنية ، فقتل منهم من قتل وعذب من عذب بأشد قساوة عرفت فى التاريخ ، سمى القبط هذا العهد عهد الشهداء واتخذوه بداية لسنتهم القبطية المعروفة باسم سنة الشهداء ، تماماً كما كان يفعل أسلافهم قدماء المصريين فى اتخاذ الحوادث المهمة بداية لتواريخهم . ولا تزال النتيجة القبطية معمولا بها للآن فى الكنيسة القبطية وهى تقل ٢٨٤ سنة عن السنة الميلادية التى أرخها الرومان .

فبفضل هذه المقاومة السلبية من شعب أعزل للاحتلال الأجنبى المسلح ، بفضل هذه الرغبة عن الامتزاج بالروم ثم الفناء فيهم ، بقيت لمصر حتى اليوم الآثار القبطية التى نراها للآن ماثلة بمدينة مصر القديمة أو بمدينة بابيلون القديمة ، والتى تعتبر حلقة الاتصال بين الفن الفرعونى والفن الإسلامى .

ومن المعروف أنه فى عهد النصرانية الأولى ، أيام حكم الرومان ، كان القبط الذين اعتنقوا المسيحية يرزحون تحت عبء اضطهاد ثقيل ، ولم يكن مسموحاً لهم حتى بإقامة الشعائر الدينية ، فكانوا يجتمعون سراً للصلاة بالمغاور والمقابر المهجورة بأنحاء البلاد كافة كما يتضح ذلك من كتابات قبطية لا تزال موجودة على جدران تلك الأماكن.

ولما اعتنق الإمبراطور « تيودوسيوس » الدين المسيحى سنة ٣٨٩م ، أصبحت المسيحية هى الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية . ولما كانت مصر فى هذا العهد جزءاً من هذه الإمبراطورية ، وكانت من أول الدول التى انتشرت فيها المسيحية سراً بسرعة مدهشة ، فإنها قابلت مرسوم تيودوسيوس بترحاب وحماس . وعلى أثر ذلك قام القبط بتحويل المعابد الوثنية القديمة إلى كنائس فنقشوا الصلبان على أبوابها وأعمدتها ، وحطموا تماثيل الآلهة وغطوا

ما كان منقوشاً على جدرانها من صور الملوك والآلهة والكتابات الهيروغليفية بطبقة من الجبس رسموا عليها صور لسيد المسيح والرسل والقديسين و بنوا عليها مذابح لإقامة القداس . ولا تزال آثار ذلك ظاهرة إلى يومنا هذا معابد الوجه القبلى خصوصاً بأسوان والأقصر والكرنك ودندره .

ولكن لما كان الشعب المصرى لا يميز كثيراً بين الوثنية والدين الجديد ، وكان يسجد أمام آلهة أجداده القديمة كما كان يسجد أمام المسيح على حد تعبير قياصرة الرومان، رأى زعماء المسيحية إبعاده عن المعابد الوثنية، فقرروا منذ لقرن الرابع الميلادى تشييد كنائس وأديرة جديدة بقى منها للآن، دير سمعان بأسوان ، وكنيسة دندرة بجوار معبد ندرة بالقرب من قنا ، وآثار دير أنبا أرميا بسقارة الذى أنشىء فى آخر القرن الخامس وخرب حوالى سنة ٩٦٠ م لحسن الحظ غطت الرمال خرائبه إلى أن استكشفه كويبل سنة ١٩٠٦ ونقل ما به من آثار إلى المتحف المصرى ، آثار كنيسة أنبا مينا بمريوط بجوار الإسكندرية التى استكشفها كاوفان سنة ١٩٠٧ ، وهى أقدم كنيسة عرف اريخ إنشائها بالضبط ، فقد بدأ عمارتها الإمبراطور أركاديوس سنة ٣٩٥ م وتم بناءها الأنبا تيموثاوس البطريرك سادس والعشرون ، ودفن بها الأنبا مينا الذى كان يؤم ضريحة الحجاج المسيحيين من جميع أقطار العالم و يعودون ن هناك ومعهم أوانى خزفية عليها صورة هذا القديس و بها مياه مقدسة كانوا يعتقدون أنها تشفى الأمراض .

وقد نقلت كثير من أعمدة هذه الكنيسة وأحجارها المنقوشة وصور القديسين المرسومة بالألوان التى وجدت ، حفائرها إلى المتحف اليونانى الرومانى التابع لبلدية الإسكندرية ، و إلى المتحف المصرى بالقاهرة ، و إلى بعض تاحف أوربا وأمريكا .

ومن هذه الكنائس والأديرة القديمة جداً مالم يزل معداً لإقامة الشعائر الدينية رغم تصاريف الزمن وتقلباته ثل كنيستى الديرين الأبيض والأحمر بجوار سوهاج ، وكنيسة العذراء بدير الطير بمركز سمالوط ، وديرى طونيوس و بولا بصحراء العرب بالقرب من البحر الأحمر، وأديرة وادى النطرون التى سبق تكلمنا عنها بإسهاب ، الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٦٦ وما يليها ، وكنائس مدينة مصر القديمة موضوع هذا البحث

طراز كنائس مدينة مصر :

شيدت هذه الكنائس على طراز يجمع بين البازيليكى والبيزنطى .

أما الطراز البازيليكى فمأخوذ عن المبانى الرومانية بمدينة الإسكندرية ومدينة بابيلون أعنى عن المبانى الرومانية ى أقيمت بمدينة مصر نفسها .

وقد وجد مهندسو هذه الكنائس الجديدة من القبط نماذج جاهزة لمعابدهم الحديثة فى الكنائس التى شيدها مهندسو الإمبراطور قسطنطين بمصر وفلسطين وسوريا .



مدينة مصر — منظر طواحين حجرية كانت تطحن فيها الغلال وبجوارها فرن . وتدل هذه المبانى على أن إنشاء العقود فى فتحات الأبواب والشبابيك كان منتشراً فى مدينة مصر منذ القدم .

ومن مميزات هذه الكنائس أنها كانت تبنى على شكل مستطيل وتنقسم — من اليمين إلى اليسار — إلى ثلاثة أقسام كما هو الحال فى كنائس أبو سرجه والسيدة بربارة وأنبا شنودة بمصر القديمة ، أو إلى أكثر من ثلاثة أقسام ، كما يشاهد ذلك فى كنيسة المعلقة أو فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة بقسم باب الشعرية .

ويفصل هذه الأقسام عن بعضها ، صفوف من الأعمدة يرتكز عليها سقف صحن الكنيسة وهو غالباً على شكل جملون . وهذا هو الطراز البازيليكى .

أما الطراز البيزنطى — وأهم أنموذج باق له للآن هو كنيسة أجياصوفيا بالقسطنطينية — فيمتاز بأن كنائسه كانت تبنى على شكل صليب وتغطيها القباب المبنية من الطوب .

وقد نقلت بيزنطة استعمال القبـاب على الأرجح عن المصريين وهم أول من استعملوها سقوفاً فى مبانيهم لقلة الأخشاب فى بلادهم .

فلما قام القبط بتشييد كنائسهم بمصر القديمة بنوها على الطراز البازيليكى المذكور سابقاً . مع استعمال القباب التى كانت شائعة فى بلادهم وهى من أهم مميزات الطراز البيزنطى . فطراز هذه الكنائس إذن يجمع بين البازيليكى والبيزنطى .

وقد كسيت جدران هذه الكنائس وأعمدتها وقبابها من الداخل بطبقة من المصيص النقى وزينت بصور مشرقة الألوان للقديسين والشهداء تماماً كما كان يفعل قدماء المصريين فى تزيين معابدهم وبرابيهم .

كنيسة المعلقة

عرفت هذه الكنيسة بالمعلقة لأنها شيدت ، فوق أبراج حصن بابيلون ، الذى تكلمنا عنه سابقاً ، على ارتفاع ١٣ متراً فوق سطح الأرض الأصلية لهذا الحصن . ولم يزل جزء منها و به المعمودية بأعلى أحد البرجين القائمين على جانبى الباب القبلى المعروف عند العرب باسم باب الحديد .

بنيت هذه الكنيسة على الأرجح فى القرن الرابع كما يتضح ذلك من لوحة من أحشاب العمارة الأولى المحفوظة بالمتحف القبطى وهى تمثل دخول السيد المسيح إلى أورشليم، فى أحد الشعانين ، وقد ركب أتاناً وفرشت أمامه الطريق بغصون النخيل واستقبلته الجماهير على أبواب المدينة بالتهليل والفرح . وقد كتب على هذه اللوحة بالحروف اليونانية تاريخ سنة ٣٤٩ م . ومن هذا يتضح أن هذه الكنيسة أقدم كنيسة بنيت فى حصن بابليون .



كنيسة المعلقة وكنيسة مار جرجس .
الواجهة المطلة على شارع مار جرجس بمصر القديمة .

وقد كانت فى الأصل متسعة جداً ولكنها صغرت من كثرة ما أدخل عليها من تعديلات كان آخرها على يد المعلم عبيـــد أبى خزام سنة ١٤٩١ قبطية (١٧٧٥ م) . وبعد ذلك على يد المرحوم نخله بك الباراتى سنة ١٨٩٠ تقريباً . وهو الذى يرجع إليه الفضل فى المحافظة على كثير مما كان بهـا من الأحجبة النفيسة والإيقونات والمنبر الرخامى .

و يبلغ طول هذه الكنيسة اليوم ٢٣و٥ متراً وعرضها ١٨و٥ متراً وارتفاعها ٩و٥ متراً . و ينقسم الصحن إلى أربعة أقسام يفصلها عن بعضها صفوف ثلاثة من الأعمدة الرخامية يبدو من طراز تيجانها أنهـا ترجع إلى القرن الثالث . والغالب أنها منقولة من المعابد الرومانية الوثنية القديمة .

و يغطى صحن الكنيسة والهيا كل جملون من الخشب . وهى الوحيدة فى الكنائس القبطية القديمة بحصن بابيلون التى لم تغط هيا كلها بالقبـاب .

ولهذه الكنيسة شهرة عظيمة منذ القدم فقد ظلت مركزاً لأبروشية بابيلون المعروفة أيضاً باسم أبروشية مصر منذ عهد البطريرك بنيامين سنة ٦١٧ م إلى عهد البطريرك يوساب سنة ٨٢٣ م . ثم أصبحت مقراً للكرسى البطريركى منذ قرر أنبا خريستودولوس البطريرك السادس والستون نقل مقر البطريركية القبطية من الاسكندرية إلى مدينة مصر سنة ١٠٣٩ م . وهو أول من أقام بها صلاة القداس ، بعد وصوله إلى مصر مخالفاً فى ذلك العادة التى جرى عليها البطاركة السابقون فى إقامة القداس بكنيسـة أبو سرجه بعد الإسكندرية ودير أبى مقار بوادى النطرون . وقد لاقى معارضة شديدة من كهنة كنيسة أبو سرجه لمـا أعلن عن هذا العزم ولكنه تغلب عليهـا .

ومنذ ذلك العهد وكنيسة المعلقة قبلة طالبي العلم من رجال اللاهوت وعلماء الدين . وقد اشتهر رجالها أيضاً بالتعمق فى علم الفلك .

وفى القرن العاشر الميلادى كان بها مكتبة تحوى من كتب الفلك ما كان مرجعاً لرجال البحث فى القرون الوسطى لتقرير مواعيد أعياد النصارى فى العالم كله .

وظلت كنيسة المعلقة مقراً للكرسى البطريركى مدة طويلة إلى أن نقل منها إلى كنيسة أبى السيفين فى القرن الرابع عشر للميلاد .

وتحوى هذه الكنيسة للآن بدائع رائعة من بدائع الفن القبطى ففيها تسعون أيقونة يرجع أقدمها إلى القرن الخامس عشر الميلادى وأغلبها مؤرخ فى سنة ١٤٩٣ قبطية (١٧٧٧ م) والباقى صور من أيام نخله بك الباراتى حوالى سنة ١٨٩٠ وهى موزعة على جدران الكنيسة فيجد الزائر على الحائط الغربى صفين منها ، ويرى على الحائط القبلى أيقونات أخرى من صناعة يونانية .

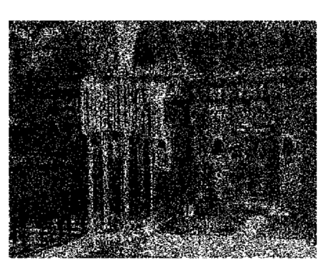
ثم يمر الزائر من باب من خشب الصنوبر مزخرف بنقوش بارزة ومطعم بصفائح شفافة من العاج ، يرجع تاريخه إلى القرن الحادى عشر الميلاد ، ونقش بأسفله بالخط الكوفى : « العز الدايم والسعادة الداية لصاحبها » ، فيجد إلى يمينه حجاب هيكل مار مرقص وهو مطعم بالعاج والأبنوس المنقوش نقوشاً بارزة جميلة ، يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر . وقد نقل من أعلى البرج إلى مكانه الحالى محافظة عليه وقد فقدت بعض حشوات الباب . وعلى يسار الحجاب نافذة تطل على مدخل الحصن الرومانى أى باب الحديد وأمامها « المعمودية » وهى من حجر الجرانيت عليها نقوش على شكل خطوط متكسرة رمزاً للماء فى اللغة الهيروغليفية . ولم تزل بجدران هذه المعمودية الفسيفساء الجميلة التى كانت فى الماضى تزين كل جدران الكنيسة ، ولكنها أزيلت للأسف فى العمارات الأخيرة .

وقد كتب على حجاب هذه المعمودية بالقبطية والعربية اسم المعلم عبيد أبو خزام وتاريخ سنة ١٤٩٣ للشهداء (١٧٧٧ م) مع دعوات أخرى .

ويجد الزائر بعد ذلك هيكلا باسم القديس تكلا هيمانوت الحبشى وفيه صور لبعض القديسين يرجع تاريخها إلى القرن الخامس الميلادى مع بعض كتابات قبطية من الإنجيل . أما حجاب هذا الهيكل فيرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر وهو مطعم بالعاج المنقوش وفوقه وتحته كتابات بارزة من آيات الإنجيل .

أما الهياكل التى فى صدر الكنيسة فبها مدرجات نصف دائرية وأمامها المنبر الرخامى الدقيق الصنع المرتكز على خمسة عشر عموداً كل عمودين منها من طراز يختلف عن الطراز السابق وأحجبتها محشوة بالنقوش ومطعمة بالعاج .

ولم يبق من الصور التى كانت فى الزمن الماضى تزين جدران هذه الكنيسة وأعمدتها ، والتى محيت فى أزمنة الاضطهادات ، إلا التى بالجدار الشرقى لهيكل تكلا هيمانوت بجانب المعمودية وصورة شماس على أحد الأعمدة التى تفصل الخورس القبلى عن صحن الكنيسة .



كنيسة المعلقة من الداخل . وترى أحجبة الهياكل فى صدر الكنيسة وهى مطعمة بالعاج والأبنوس بدقة ورشاقة . كما ترى المنبر الرخامى الدقيق الصنع المرتكز على خمسة عشر عموداً كل عمودين منها من طراز يختلف عن الطراز السابق .

وقد ذكر الأب فانسليب الذى أوفده لويس الرابع عشر ملك فرنسا لدرس حالة كنائس وأديرة القطر المصرى حوالى سنة ١٦٧١ م ، أنه رأى على أحد جدران كنيسة المعلقة كتابة بخط يد عمرو بن العاص يوصى بها المسلمين بألا يتعرضوا لهذه الكنيسة بأذى .

ومما يذكر بمناسبة هذه الكنيسة ، أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، استحضر الأنبا ابرآم البطريرك الثانى والستين سنة ٩٦٩م وطلب منه نقل جبل المقطم عملا بما جاء بالإنجيل : « لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل » (متى ١٧ : ٢٠) .

فوقع البطريرك فى حيرة ما بعدها حيرة ولكنه رجع إلى ربه وقضى ثلاثة أيام فى الصلاة والصوم ، ويؤثر أن السيدة العذراء ظهرت له فى رؤيا وطمأنته . ويذكر التاريخ أنه فى اليوم المحدد حصل فعلا زلزال شديد تشقق منه المقطم ، فأكرم الخليفة ذلك البطريرك ، وسمح له بترميم هذه الكنيسة وإعادة بناء كنيسة أبى السيفين أيضاً .

وتعتبر كنيسة المعلقة أم الكنائس القبطية فناً وجمالا وصناعة . ففى أبوابها المحشوة المطعمة بالعاج والأبنوس بدقة ورشاقة وهندسة ونظام ، وفى هياكلها المصنوعة من خشب الصنوبر المخروط والمحشو ، وفى صورها المشرقة وفى منبرها البيزنطى الرشيق بدائع تستحق عناية الفنان .

رموز كنائس مدينة مصر :

وهناك رموز كثيرة تستحق الوقوف عندها .

فالحمامة فى الرسوم الكنائسية طائر يرمز به إلى الطهارة والوداعة وقد أراد الفنان بوضعه فى صور كثيرة من صور هذه الكنائس أن يشير إلى هذا المعنى .

أما الكرمة والكرام فتشير إلى السيد المسيح و إلى الكنيسة المسيحية التى أسسها و يرعاها .

أما غصن الزيتون فرمز السلام الذى أراد السيد المسيح أن تنتشر مبادئه فى هذا العالم بتعاليم الإنجيل .

أما الزعف وغصون النخيل فرمز النصر فى مواقف كثيرة من مواقف المسيحية .

وأما الصليب ، وهو شعار المسيحية الأول ، فيرمز إلى مفتاح الحياة ، وهو مشتق من الرمز المصرى القديم « أونخ » ☥ الذى يعرف أيضاً باسم مفتاح النيل .

أما بيض النعام الذى يعلق فى الكنائس والجوامع أيضاً فرمز الثبات فى العقيدة لما يؤثر عن هذا الحيوان من أنه يظل ثابتاً أمام بيضة فى الصحراء ينظر إليه باستمرار حتى يفقس فإذا تحول نظره عنه فسد البيض .

أما الأعمدة فى الكنائس وكان عددها فى الأصل اثنى عشر عموداً فيرمز بها إلى تلاميذ السيد المسيح الاثنى عشر الذين قامت على أكتافهم و بمجهوداتهم الكنائس المسيحية وانتشرت فى العالم .

أما الزيوت والطيب فيرمز بها إلى الحالة النفسية التى يجب أن تكون عليها نفس المؤمن .

أما أحجبة الهياكل فى الكنائس القبطية فترجع فكرتها إلى ما كان متبعا فى معابد قدماء المصريين من فصل الهيكل عن الجماهير ، ثم استعملت بعد ذلك لحماية القبط من القتل حين كان يعتدى عليهم فى الطرق العامة من إخوانهم المصريين الذين اعتنقوا الإسلام ، فمجرد التجاء القبطى إلى الهيكل كان يكفى لوقف زميله عن قتله سواء لتأثير قديم فى نفس المعتدى أو غير ذلك من الاعتقادات القديمة . ولذا يلاحظ أن أحجبة الهياكل لا توجد فى الكنائس الغربية قط إنما توجد فقط فى الكنائس المصرية .

كنيسة أبى سرجه

شيدت هذه الكنيسة فى المكان الذى أقامت به العائلة المقدسة ، عائلة السيد المسيح ، لما هربت إلى مصر من وجه هيرودوس ملك اليهود المعين من قبل روما . ولهذا السبب يحج إليها الزائرون من جميع أنحاء العالم المسيحى . ولا يزال هناك مغارة على عمق عشرة أمتار تقريباً تحت منسوب سطح الشارع الخارجى يقال إن العائلة المقدسة أقامت فيها مدة وجودها بمدينة مصر . وقد حولت هذه المغارة الآن إلى كنيسة صغيرة طولها ستة أمتار وعرضها خمسة أمتار وارتفاعها متران ونصف متر تقريباً ، و بها صفان من الأعمدة الرخامية يقسمانها إلى ثلاثة أقسام : فى القسم الأيمن مذبح بتجويف فى الحائط القبلى عليه صليب بارز ومعمودية فى الشرق ، وفى القسم الأوسط مذبح بتجويف فى الجدار الشرقى ، وفى القسم الأيسر مذبح بتجويف فى الجدار البحرى . ويحتفل فيها كل سنة بتذكار دخول السيد المسيح أرض مصر فى ٢٤ بشنس الموافق أول يونيو .

وبالمغارة سلم يؤدى إلى الهيكل البحرى ، وبهذا الهيكل بئر ، وحجابه من الخشب المطعم بالسن البسيط كتب على بابه بالقبطية والعربية آيات وأدعية . ومما يلفت النظر النسيم العليل الذى ينتشر فى جو هذ المغارة صيفاً وشتاء .

وفوق هذه المغارة تقوم كنيسة أبى سرجه ، وقد أنشئت فى أواخر القرن الرابع باسم القديس سرجيوس الذى استشهد فى عهد الإمبراطور مكسيميان سنة ٢٩٦ م . ويبلغ طولها ٢٧ متراً وعرضها ١٧ مترا وارتفاعها ١٥ مترا تقريباً ، وهى على عمق ثلاثة أمتار من منسوب الشارع الخارجى . ولا تقل فى الأهمية عن كنيسة المعلقة من الوجهة التاريخية والفنية .

وتقع هياكل هذه الكنيسة فى القسم الشرقى وتحت هذا القسم توجد « المغارة » . ويحيط صحن الكنيسة من الجهات الشمالية والجنوبية والغربية ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية لا يزال ظاهراً على بعضها صور القديسين . وتربط هذه الأعمدة ببعضها من أعلى بعوارض خشبية مكتوب عليها آيات من المزامير بالقبطية والعربية . ويغطى صحن الكنيسة والهيكل الأوسط جملون من الخشب ، أما الهيكل الشمالى فقد شيدت فوقه قبة مرتفعة .

وكان الدور العلوى المحيط بصحن الكنيسة مخصصاً للسيدات ، أما الآن فقد خصص لهن القسم الشمالى لصحن الكنيسة . ويرى الزائر بهذه الكنيسة كثير من الأيقونات الكبيرة الحجم ، وأحجبة الهياكل المطعمة بالعاج البسيط والمنقوش عليها آيات عربية وقبطية من الإنجيل وأدعية كثيرة أخرى . ويرجع تاريخ هذه الأحجبة إلى القرن الثالث عشر . وتقع المعمودية إلى غرب صحن الكنيسة ويقابلها الهيكل الأوسط وداخله مذبح تعلوه قبة من الخشب مرتكزة على أربعة أعمدة مزينة بالصور . وخلف المذبح مدرّج نصف دائرى من الرخام كان يجلس عليه القسوس حسب درجاتهم أثناء قراءة الرسائل وبأعلى المدرّج كرسى البطريرك . والجدار المحيط به مزين بالفسيفساء . وبصحن الكنيسة منبر رخامى يرتكز على عشرة أعمدة جدد حديثاً .

كنيسة الست برباره

كانت الست برباره ابنة ديفوروس أحد أغنياء مدينة نيكوميدا بآسيا الصغرى . وقد اعتنقت المسيحية على يد العلامة أوريجانس المصرى فى أوائل القرن الثالث الميلادى . وكان أبوها وثنياً يعبد الأوثان ، فعابت على أبيها عبادته لها فغضب عليها وقتلها .

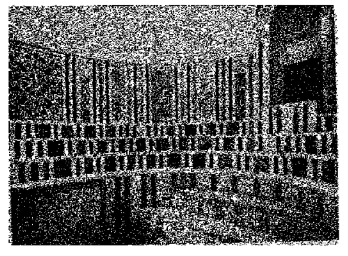
وقد شيدت هذه الكنيسة فى القرن الرابع الميلادى باسم هذه السيدة الشهيدة داخل حصن بابليون . ويبلغ طولها ٢٦ مترا وعرضها ١٤و٥ مترا وارتفاعها ١٥ مترا . وهى تعد من أجمل كنائس الأقباط . وقد تهدمت فى القرن العاشر الميلادى وأعاد بناءها هى وكنيسة أبى سرجه المذكورة سابقاً الوزير يوحنا ابن الأبح أو الأمح وزير أحد

الخلفاء الفاطميين . ويروى أنه كانت له حظوة عظيمة عند الخليفة . فاتهمه حساده بالخيانة . ولما تبينت للسلطان براءته أجابه إلى طلبه أن يعيد بناء كنيسة أبى سرجه . وبعد أن بناها تبقى من الأدوات ما يكفى لبناء كنيسة أخرى ، فأعاد بناء كنيسة الست بربارة بدون تصريح من السلطان . فشكاه أعداؤه . ولما تحقق السلطان الأمر حكم عليه بهدم إحدى الكنيستين ، فصار الوزير ينتقل من الواحدة إلى الأخرى ليختار إحداها غير مستقر على حال . ولما أعياه التعب سقط ميتاً . ولما بلغ خبر موته إلى مسامع السلطان عدل عن هدم الكنيسة الثانية قائلا أنا أمرت ببناء الواحدة وقد وهبت الثانية دية له .

وقد عثر العلامة مرقص سميكة باشا على بعض أحجار منقوشة من آثار الكنيسة الأصلية ، كما عثر على باب يعد آية من آيات الفن القبطى فى القرن الرابع ، فنقلها جميعها إلى المتحف القبطى كما نقل أيضاً بعض أبواب وأحد أحجبة العمارة الثانية .

وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بترميم هذه الكنيسة الجليلة وأعادت لها رونقها القديم فغدت من أشهر الكنائس وأجملها .

يحيط بصحنها ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية من الشمال والجنوب والغرب . أما الجانب الشرقى فتقع فيه الهياكل .



كنيسة الست بربارة
مدرج نصف دائرى مزين بالفسيفساء خلف المذبح .

ويغطى صحن الكنيسة والهيكل الأوسط جملون . وكان الدور العلوى المحيط بصحن الكنيسة مخصصاً للسيدات . وبهذه الكنيسة كثير من الأيقونات الجميلة والأخشاب المطعمة بالعاج والمنقوش على حشواتها نقوش بارزة وآيات من المزامير بالخط العربى الجميل من القرن الثالث عشر .

وبداخل الهيكل المذبح وخلفه مدرج مزين أعلاه بالفسيفساء كالموجود فى كنيسة أبى سرجه . وفى صحن الكنيسة يوجد المنبر الرخامى وهو يرتكز على عشرة أعمدة ومزين بنقوش بارزة يتخللها الصليب . وبأرضية الصحن لقان مستدير الشكل .

وتقع بالجهة الشمالية من هذه الكنيسة ، كنيسة أخرى باسم القديسين أبى قير ويوحنا رممتها لجنة حفظ الآثار العربية أيضاً . وبجوارها أيضاً كنيسة مار جرجس .

كنيسة مارجرجس المعروفة أيضاً باسم قاعة العرسان

كانت هذه الكنيسة من أجمل كنائس الحصن الرومانى ، شيدها كاتب ثرى اسمه اثناسيوس حوالى سنة ٦٨٤ م ولكنها حرقت لسوء الحظ منذ حوالى تسعين سنة و بنى مكانها كنيسة جديدة ليس فيها شىء يستحق الذكر .

ولم يبق من الكنيسة القديمة إلا قاعة استقبال بخارجها تعرف باسم قاعة العرسان يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر .

و يبلغ طول هذه القاعة ١٥ مترا وعرضها ١٢ متراً وتنقسم إلى درقاعة و إيوانين . بالإيوان القبلى بعض نوافذ من الخشب عليها نقوش بارزة وتزين جدرانه نقوش بارزة من الجبس وعلى سقفها رسوم ملونة .

وقد قامت لجنة حفظ الآثار العربية بإعادة هذه القاعة إلى رونقها القديم .

كنيسة قصرية الريحان

تقع هذه الكنيسة بزقاق بنى حصين . أقام بها البطريرك أنبا خائيل حوالى سنة ٨٦٥ م لما أتى يفاوض الوالى فى أمر خراج الكنائس .

وقد تهدمت وأعيد بناؤها فى القرن الثامن عشر . ويبلغ طول هذه الكنيسة ١٦ متراً وعرضها ١٤ متراً وارتفاعها عشرة أمتار . و يغطى صحنها وهياكلها قباب من الطوب مرتكزة على أعمدة رخامية . وبها كثير من الأيقونات والأخشاب المطعمة بالعاج البسيط وعليها نقوش وكتابات بارزة .

دير مارجرجس للراهبات :

يقع دير مار جرجس للراهبات بجوار كنيسة قصرية الريحان و إلى يمينها . و بهـذا الدير أربعون راهبة . و به مقصورة شاهقة البناء يرجع تاريخها إلى القرن العاشر . طولها ٢٣ متراً وعرضها ٩ أمتار تقريباً . زال سقفها وقد استبدلته لجنة حفظ الآثار العربية بسقف جديد . ولحسن الحظ توجد للآن كثير من نجارتها الأصلية أهمها باب ارتفاعه سبعة أمتار و بجانبه بابان صغيران . جميعها مزينة بنقوش بارزة آية فى الاتقان تمثل طيوراً وحيوانات .

و بجوار هذا الدير باب الحصن الرومانى الغربى وهو مصفح بحديد وله متراس على شكل ضبة كبيرة ويبلغ هنا سمك جدار الحصن مترين تقريباً .

وتقع جميع الكنائس المذكورة سابقا داخل أسوار هذا الحصن .

كنائس مدينة مصر الواقعة خارج أسوار الحصن الرومانى .

دير أبى السيفين :

فيما عدا كنائس حصن بابيلون لم يبق من الكنائس القديمة التى ذكرها أبو صالح الأرمنى والقريزى بمدينة مصر ، إلا أربع كنائس ، ثلاث منها بدير أبى السيفين وواحدة بدير مار مينا .

ويقع دير أبى السيفين بشارع جامع عمرو بقرب مزلقان سكة حديد حلوان . ويحيط به سور عال . وكان له فى الزمن الماضى مدخل واحد بالجهة الغربية بابه من خشب الجميز المصفح بالحديد وقد نقل إلى المتحف القبطى وفتح للدير باب آخر بالجهة الجنوبية .

وكان النيل يصل قديما إلى هذا الموقع . وكان شاطئه يعرف إذ ذاك باسم ساحل الشعير .

ولا يزال اسم الطريق الرئيسى بداخل هذا الدير يعرف لليوم باسم « حارة البطريرك بدرب البحر » . وفى داخل هذا الدير ثلاث كنائس :

(١) كنيسة أنبا شنوده (٢) كنيسة أبى السيفين (٣) كنيسة العذراء الدمشيرية .

وفيه أيضا دير للراهبات على اسم القديس مرقوريوس جدد بناءه الأنبا كيرلس الخامس .

كنيسة أنبا شنوده :

يدخل الزائر من الباب القبلى للدير فيجد على يمينه كنيسة أنبا شنوده ويرجع عهدها إلى القرن الخامس . وقد بنيت على الطراز البازيليكى . ويبلغ طولها ٣٥ متراً وعرضها ١٥ متراً وارتفاعها ١٥ متراً تقريبا . وهى منخفضة مترين عن منسوب سطح الشارع . وتقع هياكلها فى الجهة الشرقية كالعادة ويحيط بصحن الكنيسة ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية فى الجهات الأخرى . ويغطى الصحن جملون من الخشب . أما الهيكل الأوسط ففوقه قبة من طوب يرجع عهدها إلى القرن الثانى عشر .

وكان بالدور الأعلى المحيط بصحن الكنيسة عدة كنائس صغيرة اندثرت كلها ونقلت أحجبتها إلى كنيستى حارة السقايين والست دميانه ببولاق بأمر الأنبا كيرلس الخامس .

أما الصور والأخشاب المطعمة بالعاج والمذبح والمدرّج الموجودة بهذه الكنيسة فتماثل ما سبق ذكره فى كنائس الحصن الرومانى .

والأنبا شنوده صاحب هذه الكنيسة راهب ولد بقرب أخميم فى أوائل القرن الرابع ووصل إلى مركز رئيس الرهبنة بمصر .

وقد حضر مجمع أفسس الذى عقد سنة ٤٣١ م مع الأنبا كيرلس البطريرك الرابع والعشرين لمحاكمة نسطور المجدّف صاحب المذهب النسطورى المعروف .

وقد عاش الأنبا شنوده ١٢٠ سنة وترك مؤلفات كثيرة عثر عليها بكنيسة لدير الأبيض بسوهاج ، ونقلت إلى دار الكتب الأهلية بباريس .

وقد عنى أميلينو وريڤيو من أعضاء المعهد الفرنسى للآثار بمصر بترجمتها ونشرها . وتوجد بمكتبة المتحف القبطى بمصر القديمة نسخة منها الآن .

كنيسة أبى السيفين :

بعد الانتهاء من زيارة كنيسة أنبا شنوده يتجه الزائر إلى كنيسة أبى السيفين .

وأبو السيفين هذا كان ضابطاً فى الجيش الرومانى استشهد حوالى سنة ٣٦٢ م فى عهد الامبراطور يوليانوس الذى جحد الدين المسيحى وارتد إلى عبادة الأوثان بعد أن كان نصرانياً واضطهد المسيحيين .

وترسم صورة هذا القديس بملابسه العسكرية ممتطيا جوادا وقد شهر سيفين فوق رأسه وأخذ يدوس يوليانوس تحت سنابك جواده .

واسم هذا القديس الأصلى مرقوريوس وينتسب إلى عائلة شريفة .

ويبلغ طول هذه الكنيسة ٣١ متراً وعرضها ٢١ متراً وبها أكبر مجموعة صور وايقونات فى كنائس القبط .

أنشئت هذه الكنيسة فى القرن السادس الميلادى ، وتعتبر من أهم كنائس مدينة مصر من الوجهتين التاريخية والفنية . وقد هدمت ضمن ما هدم من الكنائس فى القرن الثامن وحولت إلى شونة قصب ثم أعيد بناؤها فى عصر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى سنة ٩٧٠ م على يد الأنبا ابرآم السريانى البطريرك الثانى والستين وصاحب أعجوبة نقل جبل المقطم التى ذكرناها سابقا . فعقب الزلازل التى حصلت فى هذا العهد وشقت جبل المقطم سمح الخليفة لهذا البطريرك باعادة بناء الكنائس . فأعيد بناؤها على نفقة الشيخ أبى اليمن قرمان بن مينا الذى كان وزيرا فى عهد الأخشيد وأقره المعز فى الوزارة وأولاه ثقته .

وفى سنة ١١٦٨ م أحرقت هذه الكنيسة فى عهد شاور السعدى وزير العاضد لدين الله ثم رممت سنة ١٨٧٦م . أما عن جمال صور هذه الكنيسة وعن جمال أخشابها المطعمة بالعاج والأبنوس وعن قيمتها الفنية والتاريخية فحدث ولا حرج .

وبعد الانتهاء من زيارة كنيسة أبى السيفين يميل الزائر إلى شماله فيجد دير أبى السيفين للبنات الذى جدد بناءه الأنبا كيرلس الخامس البطريرك الأسبق . وبه مقصورة بديعة وقد وصفه الدكتور بتلر فى كتابه عن الكنائس وصفا بديعا .

ثم يخرج الزائر من الدير ويتجه إلى الشمال الغربى فيجد كنيسة العذراء الدمشيرية .

كنيسة العذراء الدمشيرية :

سميت بالدمشيرية لأن الذى قام بترميمها فى القرن الثامن عشر أحد أعيان دمشير إحدى قرى مديرية المنيا .

ويبلغ طول هذه الكنيسة ١٩ متراً وعرضها ١١ متراً وارتفاعها ٩ أمتار ويغطى صحنها جملون من الخشب ، أما الهيكل فتغطية قبة من الطوب . وفوق الهيكل القبلى كنيسة مهملة باسم الملاك .

وحجاب هذه الكنيسة من الخشب المطعم بالعاج يرجع تاريخه إلى سنة ١٤٧٧ قبطية (١٧٦١ م) . أما منبرها فخشبى ومثبت بالحائط الشمالى وعلى يساره المعمودية .

وبعد زيارة هذه الكنيسة يتجه الانسان شمالا فى شارع أبى السيفين وشارع الديوره حتى يصل إلى ميدان الطابى حيث يجد كنيسة مار مينا بفم الخليج

كنيسة مار مينا :

كان الخط الذى تقع فيه هذه الكنيسة الآن يعرف قديماً باسم الحمراء .

قال أبو صالح : كانت الحمراء تقع بين الفسطاط (مصر القديمة) والقاهرة .

واختلف المؤرخون فى أصل هذه التسمية فذهب الكندى إلى أنه اسم القبائل التى كانت تقيم به وهى بنو نبيه وبنو الأزرق وبنو ربيل وكانوا من الروم واليهود ودعاهم عمرو بن العاص « بالحمرا » لأنهم من العجم الذين أسلموا .

وذهب غيره من المؤرخين إلى أن هذا الاسم أخذ عن الراية الحمراء التى نصبت بهذه النقطة عند فتوح العرب ليستظل بها من يريد أن يستأمنهم .

وكانت الحمراوات تنقسم إلى ثلاثة أقسام الحمراء القصوى ، والحمراء الوسطى ، والحمراء الدنيا .

أما أنبا مينا صاحب هذه الكنيسة فكان جندياً فى الجيش الرومانى ، ولد فى نقيوس (زاوية روزين بمركز منوف) فى القرن الثالث الميلادى ، وكان والده أودكس حاكماً لإفريجيا ببلاد المغرب .

ولما خالف مينا أمر الإمبراطور دقلديانوس ورفض أن يترك الدين المسيحى ويعبد الأوثان ، قطع رأسه بعد أن سامه العذاب ألوانا وهو ثابت على الإيمان ، ودفن بمريوط ، واكتشف أحد رعاة الغنم بالقرب من ضريحه ينبوع ماء يشفى الأمراض الجلدية المستعصية لم يلبث أن ذاع صيته فكان الناس يؤمونه من كل البلاد للاستشفاء . وكان من بين من شفى منه ابنة أحد ملوك الرومان ، فأنشأ الإمبراطور اركاديوس فى أواخر القرن الرابع على هـذا الضريح كنيسة أنبا مينا التى اشتهرت فى العصر المسيحى وكان يؤمها الحجاج من كافة أقطار العالم . ولا تزال آثارها ماثلة فى ضواحى الإسكندرية الغربية بالقرب من العجمى .

ويعتبر أنبا مينا من أشهر قديسى الكنيسة القبطية ، وقد شيدت كنائس فى كثير من بلاد القطر المصرى على اسمه أقدمها كنيسة أنبا مينا بمريوط سنة ٣٩٥ م ثم كنيسة مار مينا بفم الخليج فى آخر القرن الخامس وهى موضوع هذا البحث . وقد هدمت هذه الكنيسة وتجددت عمارتها عدة مرات .

ذكر أبو صالح الأرمنى أن كنيسة مار مينا هدمت فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وولاية ابن رفاعة سنة ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) وتجددت فى عهد الأنبا يوحنا البطريرك الرابع والسبعين سنة ١١٨٠ م باهتمام أعيان قبط الحمراء .

ثم حرقت فى وزارة شاور السعدى فى الخلافة العاضدية حوالى سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٨ م) وجددت بعد ذلك باهتمام الشيخ الأسعد صليب بن الإيغومانوس .

وقد أدخلت على الكنيسة تعديلات كثيرة فى أزمنة مختلفة أهمها التنزول للأرمن عن الجانب الشمالى منها ليقيموا الشعائر الدينية بلغتهم وحسب طقوسهم . وفصل هذا الجانب عن باقى الكنيسة وظل فى حيازة الأرمن إلى أن ردوه بطريق الاستبدال سنة ١٩٣٦ . وقد انتهزت لجنة حفظ الآثار العربية الفرصة وأعادت الكنيسة إلى رسمها الأصلى .

ومن المعلوم أن الأرمن استوطنوا مصر فى القرن الحادى عشر الميلادى فى خلافة المستنصر بالله ووزارة بدر الدين الجمالى الأرمنى الجنس . ذكر أبو صالح الأرمنى أن بطريركى القبط والأرمن اجتمعا بحضور جمع غفير من رجال الدين والأعيان وأعلنا اتفاق الأقباط والأرمن والسريان والأحباش وأهل النوبة فى العقيدة الأرثوذكسية وتنازل القبط للأرمن عن جملة كنائس منها واحدة بدير الخندق لعسكر الأرمن الذين أقطعوا خط الحسينية وكنيسة يوحنا بأعلى العذراء بحارة زويلة والجانب الشمالى لكنيسة مار مينا موضوع هذا البحث .

ومن التعديلات التى أدخلت على هذه الكنيسة عمارة المعلم لطف الله لها سنة ١٧١٠ م وعمارة المعلم ابراهيم وأخيه المعلم جرجس الجوهرى سنة ١٧٧١ م . وكان المعلم جرجس الجوهرى زعيم الأقباط فى زمن الحملة الفرنسية وتوجد صورته مع صور معاصريه الشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ السادات بقصر فرساى بالقرب من باريس . وقد نقلت عنها الصورة الموجودة الآن بمكتبة المتحف القبطى بمصر القديمة .

ويبلغ طول هذه الكنيسة ٢٠ متراً وعرضها ١٥ متراً وارتفاعها ١٣ متراً . وتقع هياكلها فى الجهة الشرقية كالعادة وقد استبدلت أعمدتها الرخامية بأكتاف حجرية بمعرفة لجنة حفظ الآثار العربية لقلة المال اللازم لإعادة حالتها إلى أصلها .

ويغطى صحن الكنيسة جملون من الخشب . وكان القسم الأعلى المحيط بالصحن مخصصاً للسيدات . وبهذه الكنيسة كثير من الصور والأيقونات القبطية واليونانية . أما منبرها الرخامى وأحجبتها المصنوعة من الخشب المطعم بالعاج فتماثل الصناعة القبطية التى سبق ذكرها فى الكنائس السابقة .

المتحف القبطى :

يقع هذا المتحف بجوار الكنيسة المعلقة بحصن بابليون بمصر القديمة .

ويدين بوجوده إلى مساعى واهتمام حضرة صاحب السعادة العالم الجليل مرقص سميكة باشا ، الذى بذل واستهان بكل الصعاب حتى وصل إلى تحقيق أغراضه فى إقامة هذا الصرح الضخم الذى يضم الآن البقية الباقية من آثار الفن القبطى الذى كاد يندثر لولا همة هذا العالم الشجاع .

بدأ مرقص سميكة باشا فى جمع ونقل ما عثر عليه من الآثار القبطية من الكنائس والأديرة بمصر القديمة والقاهرة والإسكندرية وبالوجهين البحرى والقبلى سنة ١٩١٠ ، وخصص لعرضها غرفة واحدة بجوار كنيسة المعلقة بموافقة أنبا كيرلس الخامس البطريرك الأسبق . وبمساعده أنبا يؤانس التاسع عشر البطريرك السابق . ثم أخذ المتحف فى الاتساع تدريجاً حتى أصبح الآن مكوناً من أكثر من خمسة وعشرين قاعة أنشئت على الطراز القبطى واستعمل فى بنائها ما جمعه سعادة سميكة باشا من خرائب البيوت القبطية القديمة سواء كانت أسقفاً منقوشة أو مشربيات أو أعمدة رخامية أو فساقى الخ الخ . . .

وقد أنشىء هذا المتحف لسد الفراغ الذى كان ملحوظاً فى سلسلة تاريخ الفن المصرى . ذلك أن المتحف المصرى بقصر النيل يحوى آثار الفن الفرعونى ، والمتحف اليونانى الرومانى التابع لبلدية الإسكندرية يحوى آثار الفن اليونانى الرومانى ، ودار الآثار العربية تحوى آثار الفن العربى الإسلامى ، أما الفن القبطى وهو حلقة الاتصال بين هذه الفنون وبعضها فلم يكن له معهد يجمع أشتات آثاره رغم أهميتها ، فكان لا بد من إنشاء هذا المتحف لتسهيل دراسة الآثار المصرية فى عصورها المختلفة وتتبع تطوراتها مع الزمن .

ولما اكتشف قبر توت عنخ آمون وضاق نطاق المتحف المصرى عن أن يتسع لعرض ما وجد بهذا القبر من الآثار النفيسة ، اقترح سميكة باشا على الحكومة نقل ما بهذا المتحف من آثار العصر اليونانى الرومانى إلى متحف الإسكندرية ، ومن الآثار القبطية إلى المتحف القبطى ليسهل على الزائرين مشاهدة آثار كل عصر على حدة فوافقت الحكومة على ذلك .

وبذا أمكن جمع أشتات الفن المسيحى فى المتحف القبطى وأمكن دراسة هذا الفن وتتبع تطوراته .

تطورات الفن القبطى

يبدأ العصر المسيحى من القرن الرابع الميلادى الذى أصبحت فيه المسيحية دين الحكومة المصرية الرسمى وينتهى فى القرن السابع بعد الفتح العربى لمصر سنة ٦٤١ م .

وتبدو فى آثار هذا العصر مبلغ تأثر الحضارة القبطية بالفن اليونانى المتمصر الذى نشأ وترعرع بمدينة الإسكندرية . فالمسيحية الأولى التى انتشرت بهذه المدينة وانتقلت منها إلى داخلية البلاد ، تأثرت فنونها بطبيعة الحال بفنون هذه المدينة و بذوقها وتشكلت بتشكيلاتها وترى ذلك واضحاً تمام الوضوح فى مبانى هذا العصر وفى زخارفه وفى قبابه وفى جملوناته وفى صوره وفى تجارته وفى منسوجاته وفى فن الصياغة .

هذا مع العلم بأن الفن اليونانى نفذ إلى مصر حتى قبل فتح الإسكندر المقدونى بزمن طويل ، فى أيام الأسر الفرعونية الأخيرة التى استعانت باليونان فى بعض مصالح الدولة وكونت منهم وحدات فى الجيش المصرى . فبسبب وجود هؤلاء اليونان بمصر كان الفن اليونانى معروفاً لهذه البلاد ، ولـكنه كان مصبوغاً بصبغة محلية مصرية .

وكانت هناك عمارات ومبانٍ وهياكل ومعابد مشيدة على هذا الطراز المختلط مثل هيكل بيتوسيرس بدروه بقرب ملوى . ثم ازداد هذا الفن نفوذاً على الخصوص مدة حكم البطالسة الذى بدأ قبل الميلاد بثلاثة قرون واستمر بعد أن أصبحت مصر إقليماً تابعاً للأمبراطورية الرومانية . فحلت اللغة اليونانية محل اللغة المصرية فى مصالح الحـكومة ، واختلطت الألفاظ اليونانية بالألفاظ المصرية ، واستبدلت الرموز الهيروغليفية بحروف يونانية عدا سبعة حروف تمثل أصواتاً غير موجودة فى اللغة اليونانية ، وترك المصريون فى مبانيهم الطراز الفرعونى الفخم وأعمدة الجرانيت الهائلة والأسقف الحجرية وأخذوا يقيمون مبانى أقل فخامة ذات أسقف خشبية وقباب ويستعملون أعمدة رخامية متوسطة الحجم كانوا يجلبونها من الخارج أو أعمدة من الحجر الجيرى .

وقد عرف هذا الفن فى تاريخ العمارة باسم الفن القبطى .

وظل الفن القبطى هذا حتى القرن السابع الميلادى يونانى الصبغة أدخل عليه تعديل يسير مما ورثه القبط بالتناقل عن أسلافهم قدماء المصريين . فاتخذوا مثلا الأنخ ☥ أى علامة الحياة عند قدماء المصريين أول شكل للصليب ، ورسموا العذراء تحمل الطفل يسوع كما كان قدماء المصريين يرسمون الإلهة إيزيس تحمل طفلها هورس ، ورسموا مار جرجس ممتطياً جواداً وهو يطعن الشيطان بشكل تنين كما كان قدماء المصريين يرسمون الإله هورس ممتطياً جواداً وهو يدوس ست إله الشر تحت أقدام جواده .

ولما فتح العرب مصر فى القرن السابع الميلادى بدأ نفوذ هؤلاء القوم يحل بمصر محل نفوذ الروم ، فحلت اللغة العربية فى مصالح الحكومة محل اللغتين اليونانية والقبطية اللتين استمرتا مستعملتين فى المعاملات الخاصة فقط .

وفى القرن الثالث عشر بطل استعمالها فى المعاملات الخاصة أيضاً إلا فى القرى البعيدة من بلاد الصعيد حيث استمرتا مستعملتين إلى القرن الثامن عشر .

يذكر المقريزى أن نساء القبط فى الصعيد كنّ فى وقته لا يتكلمنّ سوى القبطية وكنّ يُجدن معرفة اللغة اليونانية أيضاً .

أما فى الوقت الحاضر فقد اقتصر استعمال القبطية واليونانية على صلوات القداس فى الكنائس فقط ، وقد بدأوا فى بعض الكنائس يتلون جزءاً من هذه الصلوات باللغة العربية ، فإذا استمر الحال على هذا المنوال لا بد للغة القبط من الاندثار ما لم تتداركها يد الأقدار .

وأن ننس فلا ننسى أن نذكر هنا ، إنه بفضل هذه اللغة ، تمكن شامبوليون من حل طلاسم اللغة الهيروغليفية ، ونشر للعالم أسرار المدنية الفرعونية التى تفاخر بها مصر العالم المتمدين الآن .

على أن الفنون المصرية أخذت منذ الفتح العربى تتدهور تدهوراً محسوساً حتى العصر الطولونى حيث انتعشت قليلاً . فلما فتح الفاطميون مصر فى نهاية القرن العاشر الميلادى هبت بهذه البلاد نهضة غريبة فى جميع فروع الفن ، وتلاحظ ذلك جيداً فى الزخارف وصور الأشخاص والطيور والزهور والنباتات التى لم تزل محفوظة فى الآثار التى نقلت من الكنائس القبطية القديمة إلى المتحف القبطى . فتجد صوراً تمثل رجالاً يصطادون الغزال والخنزير البرى والأرانب ، كما تجد على حجاب كنيسة الست بربارة القديم نقوشاً تمثل رجالاً يمتطون الخيول ويصطادون الفهد والغزال ويستعينون فى الصيد بالصقور والكلاب ، وتجد أيضاً على الأخشاب المنقولة من كنيسة دير البنات بمار جرجس نقوشاً تمثل أشخاصاً يعزفون على آلات الطرب ويرقصون ويلعبون ألعاباً رياضية إلى غير ذلك .

ومن ابتداء العصر الأيوبى منع استعمال صور الأشخاص والحيوانات والطيور فاستعاض الفنانون عن ذلك بأشكال هندسية لا تدخل تحت حصر ووصلوا بها إلى درجة عظيمة من الاتقان .

ومع ذلك فمن المعروف أن فنون العصر المسيحى بمدينة مصر القديمة فنون ضعيفة متأخرة لا يمكن مقارنتها بفنون مصر الفرعونية ، ولا بفنونها اليونانية والرومانية ، وذلك لما انتاب البلاد من الفقر بسبب مساوىء الحكم البيزنطى وانصراف الناس عن الأعمال النافعة إلى المشاحنات الطائفية والمناقشات الدينية العقيمة ، وازدادت الحالة سوءاً فى القرنين الأولين من العصر الإسلامى بسبب طمع وسوء تصرف بعض الولاة الذين كان يوفدهم الخلفاء الأمويون والعباسيون لحكم مصر .

ولما نهضت البلاد نهضتها الملحوظة فى عهد الطولونيين والفاطميين والأيوبيين والشراكسة واستتب الأمن فيها وساد العدل وارتقت الزراعة والتجارة وزادت الثروة ، تقدمت الفنون إلى درجة الكمال كما يشاهد ذلك فى المبانى والجوامع والمساجد والكنائس والقلاع التى ترجع إلى هذه العهود .

وقد قام سميكة باشا بجمع آثار هذه القرون وما سبقها ، وتتبع تطورات الفن القبطى فى خلالها ، ورتبها ترتيباً بديعاً جذاباً فى المتحف القبطى الذى يشمل الأقسام الآتية :

القسم الأول : خاص بالمكتبة التى أنشئت سنة ١٩٢١ بمناسبة زيارة حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول رحمه الله للمتحف القبطى يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٠ وبها مجموعة من المخطوطات القبطية الثمينة المحلاة بالزخارف الجميلة ، وأغلب الكتب التى ظهرت بمختلف اللغات عن تاريخ الأقباط ولغتهم وديانتهم . . . ويقع هذا القسم بالدور الأرضى للمتحف .

القسم الثانى : خاص بأحجار عليها نصوص قبطية عبارة عن شواهد قبور وأحجار كانت مستعملة فى بناء الكنائس بها نقوش بارزة تمثل أشخاصاً وطيوراً وحيوانات وزهوراً ونباتات . ويقع بالدور الأرضى من المتحف .

القسم الثالث : خاص بالمعادن من فضية ونحاسية ويشتمل على أوان وأبواب وصلبان وقناديل وشمعدانات وتقع بالدور العلوى من المتحف .

القسم الرابع : خاص بالأقمشة والمنسوجات القبطية والملابس الكهنوتية المزركشة والستور الحريرية المطرزة بالدور العلوى من المتحف .

القسم الخامس : خاص بالآثار الزجاجية والخزفية وأغلبها من القرن الرابع عشر إلى السادس عشر مما عثر عليه فى أطلال الفسطاط . بالدور العلوى من المتحف .

القسم السادس : خاص بأشغال النجارة على اختلاف أنواعها وأهم ما بها أبواب خشبية وأحجبة بها نقوش بارزة تمثل صور القديسين والشهداء والطيور والنباتات والزهور وهناك كذلك مجموعة من الخزائن والأبواب والصناديق المطعمة بالعاج بأشكال هندسية بديعة بالدور العلوى من المتحف .

القسم السابع : خاص بالصور والأيقونات ويقع بالدور الأرضى من المتحف .

وهناك أيضاً قاعة الأثاث وقاعة الأبواب الملحقتان بقسم الأخشاب وهى بالدور الأرضى .

وبحديقة المتحف سلم يؤدى إلى الباب القبلى للحصن الرومانى والبرجين العظيمين المقامين على جانبيه تحت كنيسة المعلقة .

هذه هى مدينة مصر وفنها فى العصر المسيحى .

أما فى العصر العربى فقد انتقلت الحضارة المصرية إلى العواصم الإسلامية الجديدة التى سنتكلم عنها تباعاً فيما يلى .

الفصل السادس

مدينـــة الفسطاط

جاء عمرو بن العاص القائد العربى إلى مصر فى فرسان أربعة آلاف بايعوا أنفسهم على نزعها من يد الروم . وكان أكثر من مع عمرو من الجند من قبيلة « علك » وإن كان الكندى يقول إن ثلث الناس كانوا من « غافق » . ويرى ابن دقماق أنه كان مع جيش العرب جماعة ممن أسلم من الروم والفرس الذين كانوا باليمن . ولعل هؤلاء جاءوا فيما بعد مع الأمداد التى طلبها عمرو بن العاص من الخليفة عمر بن الخطاب لاقتحام حصن بابيلون .

كان عمرو بن العاص تاجراً فى الجاهلية ، وكان يختلف بتجارته وهى الأدم والعطر إلى مدينة مصر ومدينة الاسكندرية ، فكان ملماً ، والحالة هذه ، بطرق هذه البلاد ومسالكها وأحوالها السياسية والاجتماعية . فلما أسلم فى السنة السابعة أو الثامنة للهجرة وأسندت إليه قيادة الجيوش ، كان على بينة من أمر مصر وضعف جيشها ونفسية جنودها واضطهاد أهلها على يد المقوقس ، هذا البطريرك الملكانى المعين من قبل هرقل ملك الروم والياً على حكومة مصر ورئيسا للسلطة الدينية والمدنية فيها .

كان عمرو بن العاص يعرف جيداً أن هذا الحاكم الغشوم عسف فى الحكم حتى صار اسمه مفزعا للقبط كريها عندهم .

كان عمرو يعرف جيداً أن جيش مصر مكون من كتائب من المرتزقة ومن جنود القبط المتذمرين ، وأن مجرد ظهور جيش العرب سوف يخلق جواً يمهد له السبيل لفتح هذه البلاد ، ولذا لم يتردد فى مهاجمتها بفرسانه الأربعة آلاف المسلحين بالدروع والسيوف فقط ، مع ما أظهره الخليفة عمر بن الخطاب من الخوف والفزع أمام هذه المجازفة الخارقة للعادة .

أما القبط فما إن بلغهم خبر الحركة العظيمة التى ثارت فى بلاد العرب وهزت مدائن بلاد الشام هزاً ، حتى خطر بقلوبهم عند ذلك أن الخضوع للمسلمين قد يخفف من الآلام التى نغّصت عليهم حياتهم ، وأن نير المسلمين قد يكون أخف حملا من نير الملك المسيحى هرقل ملك الروم ، فرأوا فى مجىء المسلمين نازلة أرسلها الله لينتقم لهم بها من ظالميهم . ولذا قاموا بمساعدة جيوش عمرو ضد جيوش الروم فى احتلال بلادهم .

وهكذا دفع سوء الحكم بالبلاد المصرية إلى مأزق ما أضيقه ! !

ولكنها جناية هرقل ملك الروم وجناية المقوقس هذا الرومى المتمصر ! ! فانهما كانا بعملهما يمهدان السبيل لمطلع جنود الاسلام .

وقد كان استقلال القبط فى أمور الدين أكبر ما تتعلق به نفوسهم فى هذا العصر المسيحى المتأخر، لأن استقلالهم القومى كان قد ضاع منذ انتهاء العصر الفرعونى سنة ٣٣١ ق . م . و بقوا مدة ألف سنة تقريباً يرزحون تحت نير اليونان وتحت حكم الرومان والبيزنطيين إلى أن جاء العرب .

وصل عمرو بن العاص بجيوشه من الشام إلى العريش واحتلها سنة ١٨ هـ ثم تابع سيره إلى الفرما فهزم جيوش الروم بها ، ومن ثم سار إلى بلبيس فاستولى عليها ثم إلى أم دنين فاستولى عليها أيضاً ثم تقدم إلى حصن بابليون فحاصره ثمانية أشهر ثم فتحه فى أبريل سنة ٦٤١ م وعقد مع المقوقس صلحاً على أن يدفع المصريون الجزية بمقدار دينارين عن كل شخص ما عدا الشيوخ والصبيان والنساء ، وذلك نظير تركهم أحراراً فى عبادتهم . أما من يسلم فانه يعفى من الجزية .

فتحت جيوش عمرو بن العاص إذن مصر فتحاً سهلا ممهداً ، فلما تم لهم احتلال الإسكندرية سنة ٦٤١ م ، أحب عمرو أن يتخذها مقراً له لا سيما وأنها كانت مقر الحكم فى عهد الروم وكانت بها قصور كثيرة خلت من أصحابها الذين فروا أمام العرب الغزاة إلى بلاد الروم ، تاركين قصورهم وممتلكاتهم غنيمة باردة للفاتحين . فكانت الاسكندرية إذن أخائذ . من أخذ من العرب منزلا سكن فيه هو و بنو أبيه . ورأى عمرو أن بيوتها و بناءها مفروغا منها وهمّ أن يسكنها وقال : « مساكن قد كفيناها » .

ولكن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إليه يقول : « لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى و بينهم شتاءا ولا صيفاً » .

فعاد عمرو إلى حصن بابليون على أن يبنى للمسلمين مدينة فى السهل الذى يلى الحصن الرومانى أى فى السهل الواقع بين الحصن و بين جبل المقطم وكان موضع عسكره حين محاصرته للحصن .

موقع الفسطاط

وقد راعى عمرو فى اختيار هذا الموقع لبناء عاصمة الإسلام الأولى بمصر ما كان يراعيه القدماء فى انتخاب مواقع عواصم الانقلابات السياسية والاجتماعية ، وهى أن تكون عند رأس الدلتا تشرف على جميع طرق الملاحة فى فروع النهر السبعة وعلى جميع طرق القوافل فى الصحراء . و يسهل انتقال الجيوش منها إلى أى جهة فى الوجه القبلى أو الوجه البحرى براً و بحراً ما دامت فى مركز متوسط بين الوجهين ، وذلك لقمع أى فتنة فى البلاد ضد النظام الجديد .

صحيح أن عمرو أراد ، لسهولة الاتصال ببلاد العرب ، أن يبنى العاصمة الجديدة على البحر الأحمر بجوار مدينة القلزم مكان مدينة السويس الحالية ولكنه عدل عن هذه الفكرة وأقامها بجوار حصن مدينة مصر القديمة

لمّا تبين ما فى هذا الموقع من مزايا لحكم هذه البلاد ، مع إمكان الوصول منه إلى بلاد العرب بالسهولة المطلوبة عن طريق القوافل التى تخترق الصحراء إلى القلزم ، وقدعرفت هذه الطريق فيما بعد باسم درب الحج . وتكاد تكون هى طريق مصر — السويس الحالية .

تخطيط مدينة الفسطاط

وقد روى البلاذرى أن الزبير هو الذى اختط المدينة الجديدة واتخذ فيها لنفسه داراً وجعل فيها السلم الذى صعد عليه إلى سور الحصن واقتحمه بواسطته . وبقى هذا السلم بدار الزبير حتى احترق .

ولكن لا شك فى أن الذين خططوا المدينة وبنوها كانوا من مهندسى القبط ، إذ لم يكن عند ذلك فى العرب من له علم بفن إنشاء المدن ولا دراية به .

ومن الجلى أن اسم الفسطاط الذى سميت به المدينة الجديدة اسم أعجمى . وقد قيل فى سبب تسميتها بهذا الاسم إنها شيدت فى المكان الذى عسكر فيه عمرو بجنوده ، حين محاصرته لحصن بابليون ، وكان قد ضرب فيه فسطاطه أى خيمته . ولذا سميت المدينة الفسطاط أى مكان خيمة عمرو . وهناك رواية أخرى عن سبب هذه التسمية وهى أنه لما أتم عمرو فتح الحصن ، وشرع فى المسير إلى الإسكندرية لفتحها ، وجد يمامة قد باضت فوق الفسطاط ، فأمر جنوده أن يتركوا الفسطاط فى مكانه حتى يتم فقس البيض . فترك الفسطاط فى مكانه وعرف المكان لذلك باسم الفسطاط .

ولكن الأرجح أن يكون اسم الفسطاط مشتقاً من كلمة « فوساتم » وهى كلمة رومية معناها « الحصن » ويكون معنى مدينة الفسطاط مدينة الحصن .

وإنه لمن البعيد أن تكون مدينة الفسطاط قد جعلت عند تخطيطها مدينة عظيمة ، أو أنه كان يقصد منها أن تكون عاصمة للمسلمين تضارع عواصم مصر القديمة .

كلا ! فكل ما فى الأمر أن بقاء الجنود فى الحصن كان قد أفسد حالهم ونغّص عليهم عيشهم .

وما كان من العدل ولا من المستحسن أن يُخرج المسلمون أهل مصر من ديارهم ليحلوا فيها محلهم .

وعلى ذلك فقد رأى العرب أنهم يستطيعون البناء خارج أسوار الحصن ، لا يخافون شيئاً بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

بنى عمرو بن العاص إذن مدينة الفسطاط فى السهل الواقع بين الحصن وجبل المقطم متبعاً القواعد التى وضعها قدماء المصريين فى تخطيط مدنهم وهى إنشاء المعبد أولا ثم إنشاء مرافق المدينة ومساكن الأهالى حوله .

فاختط فى أول الأمر مسجداً صغيراً أبعاده لا تزيد عن ٥٠ × ٣٠ ذراعا يقوم مكانه الآن جامع عمرو بن العاص الفسيح بمصر القديمة . وبعد ذلك أذن للقبائل أن تختط حول الجامع . فانضمت القبائل بعضها إلى بعض ، وتنافسوا فى المواضع ، فولى عمرو على الخطط معاوية بن جديح التجيبى وشريك بن سمى وعمرو بن قحزم الخولانى وجبريل بن ناشرة المعافرى ، فأنزلوا الناس فى أماكنهم المعينة وفصلوا بين القبائل وبعضها .

وهكذا نشأت الفسطاط فى أول أمرها على النظام الذى اعتاده العرب فى الصحراء ، لكل قبيلة خطة منفصلة عن سواها ، وهذا النظام يشبه نظام النجوع الذى نراه إلى الآن فى مدينة أسوان وفى ناحية السنانية مقابل دمياط .

ولما كان من حسن الاحتياط ، أن يتمكن العرب من الالتفاف حول مركز رئيسى بأسرع ما يمكن إذا هوجموا مهاجمة مفاجئة ، أقام عمرو لنفسه داراً فى شرق المسجد الجامع وسط هذه النجوع المتفرقة ، وترك أمامها فضاءا أى ميداناً واسعاً لموقف دواب الجند من خيل وجمال وحمير . فكان من السهل على العرب الالتفاف حول قائدهم الأعلى عند اللزوم .

وقد سميت دار عمرو هذه الدار الكبرى ، وكان مدخله إليها من بابها القبلى فى زقاق عرف بزقاق القناديل .

وقد ذكر الكندى هذا الزقاق وقال : « إنه وسم بزقاق القناديل لأنه كان منازل الأشراف وكان على أبوابهم القناديل » .

وقيل : إنما قيل له زقاق القناديل لأنه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمرو .

ثم أقام عمرو لابنه عبد الله داراً أخرى بملاصقة داره ، عرفت أيضاً باسم دار عمرو الصغرى .

واتخذ الزبير بن العوام داره فى غرب هذه الدار .

ولم يتخذ عمرو للامارة داراً مخصوصة بل نزل بداره . واستمر كل أمير بعده ينزل بالدار التى يكون بها سكنه إلى زمن معاوية . ولكن عمرو شيّد بالفسطاط بيتاً للمال ، وجعل من مسجده مقراً لرئيس القضاة ومجلساً ومجمعاً للعلماء ، تماماً كما كان يفعل قدماء المصريين فى معابدهم .

وعمرت مدينة الفسطاط بعد سنة واحدة من إنشائها واتسعت حتى عمت الفضاء الفسيح المعروف فى جنوب القاهرة والمحدود من الشرق بسفح جبل المقطم ومن الشمال بالخليج المصرى عند ميدان السيدة زينب وجبل يشكر ومن الغرب بالنيل الذى كان يمر إذ ذاك محل شارع مار جرجس تحت الحصن الرومانى وتحت جامع عمرو ومن الجنوب ببركة الحبش وقرية دير الطين . وقد قصدها الناس من كل جانب . وكثرت فيها الدور

يزاحم بعضها البعض حول الجامع وعلى مقربة من قصر الشمع . وأطلق عليها اسم فسطاط مصر ، وكانت تسمى أحيانا الفسطاط فقط وأحيانا أخرى مصر وصارت عاصمة هذه البلاد المصرية .

وكانت دورها تتخللها دور كثيرة لجماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مبانى الفسطاط

ولم يكن البنيان فى أول الأمر منيعاً ولا مرتفعاً ، إذ كانت البيوت طبقة واحدة فى الارتفاع ، تبنى من اللبن ، ثم علا فيها البناء حتى صار إلى طبقات أربع أو خمس على غير استواء ولا نظام تدعمها أحجار وأعمدة رومانية لا شىء فيها من الزينة ولا من جمال التنسيق .

ذكر أن خارجة بن حذافة ، ابتنى مشربة أو طنفاً أى غرفة فوق سطح منزله وكتب عنها إلى عمر . فأمر عمر بأن يدخلها عمرو بن العاص وينصب فيها سريراً ويقيم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير ، فإن اطلع من كواها على عورات جيرانه هدمها . ففعل ذلك عمرو ولم يبلغ الكوى فأقرها . وهذه أول طنف بنيت بالدور الثانى بالفسطاط .

وبنى عثمان بن قيس السهمى داراً لضيافة الناس ، فكانت أول ما بنى من دور الضيافة بمصر .

مواقع الخطط بمدينة الفسطاط

قلنا إن عمراً أذن للقبائل أن تختط حول الجامع ، وأنه ولى معاوية بن جديج وآخرين على الخطط ، فأنزلوا الناس فى المواقع المعينة لهم وفصلوا بين القبائل وبعضها على النظام الذى اعتاده العرب فى الصحراء .

وإليك الآن مواقع الخطط والقبائل المختلفة :

أولاً — خطة أهل الراية وكانت تقع على مقربة من جامع عمرو وتمتد إلى قصر الشمع .

قال المقريزى : أهل الراية جماعة من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغير ذلك ، وإنما سموا أهل الراية ونسبت الخطة إليهم ، لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد بدعوة من الديوان ، فكره كل بطن منهم أن يدعى باسم قبيلة غير قبيلته ، فجعل لهم عمرو بن العاص راية ولم ينسبها إلى أحد ، فقال : يكون موقفكم تحتها ، فكانت لهم كالنسب الجامع ، وكان ديوانهم المخصص لحصر الجنود والغنائم وتوزيعها على مستحقيها يعقد تحت هذه الراية .

ثانياً — خطة مهرة — وكانت تقع فى الجنوب الشرقى من خطة أهل الراية . وكان لهذه القبيلة خطة أخرى على جبل يشكر مكان قلعة الكبش الآن .

ثالثاً — خطة تجيب — وكانت تجيء بعد خطة مهرة فتكون إلى الجنوب الشرقى منها إذ كان من بين دروبها ، درب المصوصة الذى يؤدى إلى شرق قصر الشمع أى الشمال الشرقى منه .

رابعاً — خطط لخم وكانت تشمل ثلاثة مواقع :

الموقع الأول فيما يلى أهل الراية مباشرة نحو الشمال فتكون فى الشمال الشرقى من الجامع .

والموقع الثانى فى شرقى دير الملاك القبلى بمصر القديمة .

والموقع الثالث غير بعيد منها .

خامساً — خطة اللفيف وكانت تلاصق خطة أهل الراية .

سادساً — خطط أهل الظاهر وكانت تمتد شرقى لخم فى الشمال الشرقى حتى موقع حائط مجرى العيون الحالى .

سـابعاً — خطة وعلان وكانت تقع إلى جنوب قصر الشمع .

ثامنـاً — خطط الفرس وكانت تقع على مقربة من المرتفعات الصخرية المعروفة باسم جبل الرصد أو جبل اصطبل عنتر .

وكانت قبائل الفرس تشمل بنى وائل وراشده ولهم إلى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين أو مسجد سيدى العجمى بدير الطين .

وكان خليج بنى وائل متصلا ببركة الحبش وكانت بساتين بنى وائل تقوم على شواطىء هذه البركة وقد بقى اسمها فى اسم قرية البساتين الحالية .

ويظهر أنه كان للفرس خطة أخرى بالقرب من جبل يشكر حيث جامع ابن طولون الآن أعنى على الأرض التى أقيمت عليها مدينة العسكر فيما بعد .

تاسعاً — خطط خولان وكانت تشمل موقعين :

الموقع الأول جنوبى قصر الشمع .

والموقع الثانى فى مكان الكوم المشرف على مصلى خولان التى كشفت عنها حفريات الفسطاط .

عاشراً — خطة المعافر وكانت تقع على الشرف أو جبل الرصد المطل على بركة الحبش ومكانه اليوم جبل اصطبل عنتر .

حادى عشر — خطط الروم واليهود وهم الذين أطلق عليهم اسم الحمراء . وكانت خططهم الثلاث تلى الواحدة الأخرى وتمتد من جامع عمرو حتى جبل يشكر . وهذا الجبل مسمى باسم قبيلة بنى يشكر التى سكنته . ويقع عليه الآن جامع ابن طولون . وكانت قبائل الروم واليهود تعرف باسم بنى نبيه و بنى الأزرق و بنى ربيل . وكانت

خططهم تعرف باسم الحمراء القصوى والحمراء الوسطى والحمراء الدنيا . ومكانها اليوم الخط الذى يقع فيه دير مار مينا بميدان الطيبى بقسم مصر القديمة .

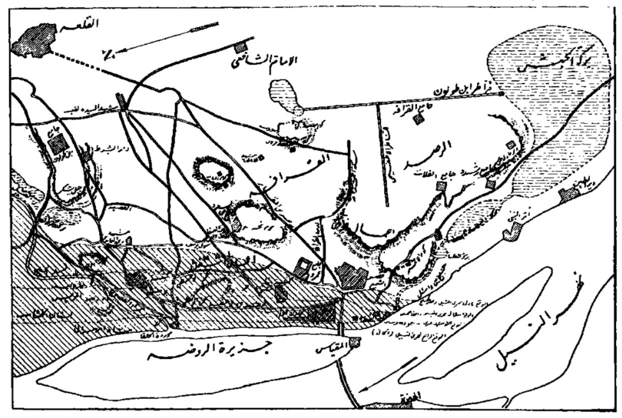
ثانى عشر — خطط القبط وقد أسكنهم عمرو قصر الشمع .

هذا ولم تكن الخطط كلها للسكن بل كان بينها ما خطط للتعليم كخطة عبد الرحمن بن ملجم فإنها أعطيت له بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، يتخذها منزلاً ليعلم الناس القرآن .

وكان عبد الرحمن قد قرأ على معاذ بن جبل باليمن ثم انتقل إلى مذهب الخوارج . وهو الذى قتل على ابن أبى طالب كرم الله وجهه .

وكانت خطة كل قبيلة قائمة على انفرادها منعزلة عن غيرها متوزعة فى السهل ، وكانت الخطط تمتد من النيل فى الغرب حتى عين الصيرة فى الشرق ومن جبل يشكر فى الشمال حتى الشرف وجبل الرصد أو جبل اصطبل عنتر فى الجنوب . وكان أكثرها التصاقا ما كان على مقربة من الجامع ومن قصر الشمع .

وبنيت فى الفسطاط الحمامات ، وأول حمام منها بناه عمرو بن العاص ، ورآه الروم فاستحقروه وقالوا يصلح للفأر فصار يسمى حمام الفأر .



رسم يبين موقع شاطىء النيل الشرقى تجاه القاهرة ومصر القديمة فى عصر الفتح العربى بالنسبة لموقعه فى العصر الحالى . وترى بركة الحبش وخليج بنى وائل وجبل الرصد وأهم المعالم الأخرى . كما تفهم منه مواقع الخطط بمدينة الفسطاط .

أما حمامات الروم فى مدينة مصر القديمة فكانت ديماسات كبارا واسعة ذات ثلاث طبقات يدخل من الأولى إلى الثانية ثم إلى الثالثة .

ولبث المسلمون مقيمين فى الفسطاط لا ينتشرون فى القرى إلى ما بعد عصر الصحابة والتابعين . وكانوا يلتزمون القصد والاعتدال فى عيشهم لأنهم كانوا منصرفين إلى الجهاد والفتح .

هذه كانت حالة الفسطاط فى القرن الأول الهجرى ، ولكنها بعد ذلك ، اتسع نطاقها على توالى القرون ، وارتقت حالها فاستبدلت خططها بغيرها واتسعت حدود الخطط وتلاصقت مبانيها حتى نشأ عن مجموعها مدينة واحدة بلغت أوج كمالها ، حوالى القرن الرابع الهجرى .

وظلت مدينة الفسطاط عاصمة البلاد المصرية من سنة الفتح إلى سنة ١٣٢هـ حين زالت دولة بنى أمية وخلفتها الدولة العباسية . فبنى ولاة مصر من قبل العباسيين إلى الشرق من الفسطاط ضاحية جديدة سموها العسكر ، وصارت العسكر مقر ولاة مصر إلى سنة ٢٥٤ هـ .

أمراء الفسطاط فى عهد الخلفاء الراشدين

و إليك الآن أسماء الحكام العرب الذين تولوا الأمر بمصر وكان مقرهم بمدينة الفسطاط فى عهد الخلفاء الراشدين:

١ — الأمير عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ

٢ — الأمير عبد الله بن سعد سنة ٢٥ هـ

٣ — الأمير قيس بن سعد سنة ٣٦ هـ

٤ — الأمير مالك بن الحارث (الاشتر النخعى) سنة ٣٧ هـ

٥ — الأمير محمد بن أبى بكر الصديق سنة ٣٧ هـ

ومن المعلوم أنه لما قتل عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين سنة ٣٥ هـ ، بايع كثير من المسلمين على بن أبى طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة الزهراء على الخلافة ، ولكن معاوية بن أبى سفيان أحد كتاب الوحى فى أيام النبى ، وأحد قواد الجيش العربى فى حروب الشام ، وحاكم ولاية الأردن وولاية دمشق وما يتبعها فى عهد عمر بن الخطاب ، ثم حاكم بلاد الشام كلها فى عهد عثمان بن عفان ، امتنع عن مبايعته لأنه كان يرغب فى الخلافة ، فاتهم على بن أبى طالب بالتهاون فى أمر عثمان ، و بايوانه قتلته فى جيشه ، وطالبه بدم عثمان . وانحاز إلى جانبه فى ذلك أهل الشام .

ودارت بين الفريقين المواقع الحربية وانتهى الأمر بالتحكيم وخلع على وتثبيت معاوية فى الخلافة .

فتولى معاوية خلافة المسلمين واتخذ دمشق عاصمته للخلافة . أما قبل ذلك فكانت المدينة المنورة حاضرة

المسلمين فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وظلت كذلك فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، فلما ولى على الخلافة ، انتقل إلى الكوفة وجعلها مقر خلافته . ولما آل الأمر إلى معاوية بن أبى سفيان ، اتخذ دمشق عاصمة لملكه ، كما قلنا واستمرت كذلك طوال حكم الدولة الأموية .

عمرو بن العاص

كان عمرو بن العاص أول الحكام العرب الذين تولوا الأمر بمصر بعد أن زال حكم الروم عنها وخضعت المسلمين ، فشرع ينظم شؤونها ويصلح أحوالها ويرفع ظلم الروم عنها ، وعنى بالزراعة ، وحفر الترع ، وأقام المقاييس فى النيل ، وفرض الضريبة التى تتناسب مع ثروة السكان وكانت تقدر باثنى عشر مليوناً من الدنانير أو خمسة ملايين من الجنيهات المصرية وهو نصف ما كان يجبيه الروم . ومهد الطرق البرية فانتعشت التجارة وتوثقت العلائق التجارية بين مصر والأمم الشرقية . وحفر الترعة القديمة التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر وسماها خليج أمير المؤمنين ، وتمتعت البلاد فى عهده بعدل شامل ، لما أنشأه من المحاكم ، واستتب الأمن لعناية الحكومة به ، وأحب المصريون حكم العرب لاشتراكهم سوياً فى إدارة شئون البلاد .

وقد وسع عمرو حدود مصر فأرسل عبد الله بن أبى السَّرْح عامله على الوجه القبلى فغزا بلاد النوبة ، وضرب عليها الجزية وغزا هو نفسه طرابلس وبرقة وضمهما إلى مصر .

ثم عُزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر فى عهد عثمان بن عفان لأن مطامع هذه الدنيا كانت قد غررت به وعصفت بقلبه فاستباح أموال بعض المصريين واستولى عليها . فلما بلغت الشكوى من ذلك مسامع الخليفة عثمان خلعه وولى مكانه على مصر عبد الله بن سعد سنة ٢٥ هـ فكان ذلك سبباً فى تألب عمرو على الخليفة واتهامه له بمحاباة أقاربه وأنصاره . ثم كثر خلع الولاة فى خلافة عثمان فانتشرت الثورة والفتنة فى بلاد العرب وامتدت إلى الأقاليم . فلما قتل عثمان سنة ٣٥ هـ وشرع فى انتخاب خليفة له ، انقسم المسلمون على أنفسهم ، فبايع قوم علياً بن أبى طالب وامتنع عن بيعته آخرون — معظمهم من بنى أمية ، قبيلة عثمان ، أو ممن كانوا ينتمون إليه — وكان على رأس هؤلاء طلحة والزبير ومعاوية بن أبى سفيان ، حاكم الشام من قبل عثمان .

ولما اشتد الأمر بينهم خرج معاوية بن أبى سفيان لمحاربة على فى موقعة صفين ، فانضم عمرو بن العاص إلى صفوف معاوية وحارب إلى جانبه أربعين يوماً ، انهزم فى آخرها معاوية وكاد يلجأ إلى الفرار ، لولا أنه أمر جنوده برفع المصاحف على أسنة السيوف ، كى يخدع جنود على برغبته فى تحكيم القرآن . فلما رفعت المصاحف امتنع جنود على فعلا عن مواصلة الحرب . وانتهى الأمر بين الطرفين على أن ينتخب كل منهما حكما ليتفاوضا فى شروط الصلح .

فانتخب معاوية ، عمرو بن العاص . وانتخب على ، أبا موسى الأشعرى ، وتم رأى الحكمين على أن يخلع كل صاحبه ، ويعاد انتخاب الخليفة من جديد .

ولما جاء وقت إعلان رأيهما ، خدع عمرو أبا موسى . فأعلن أبو موسى خلع على ، وأعلن عمرو تثبيت معاوية فاضطرب حال المسلمين ، وقرر فريق من جيش على أن يخرجوا عليه وعلى معاوية لأنهما فى رأيهم سبب انقسام المسلمين وإضطراب شئونهم فسمى هؤلاء بالخوارج ، فانصرف على إلى محاربتهم وانتصر عليهم .

واتفق فى ذلك الوقت ثلاثة من هؤلاء الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو . فنجح عبد الرحمن بن ملجم صاحب خطة التعليم بالفسطاط المذكورة سابقاً فى قتل على بن أبى طالب وهو قائم لصلاة الفجر سنة ٤٠ ﻫ بينما فشل زميلاه الآخران . وهكذا خلا الجو لمعاوية بن أبى سفيان فتولى خلافة المسلمين وأسس الدولة الأموية وكان قد أعاد عمرو بن العاص على ولاية مصر سنة ٣٧ﻫ ، فاستمر والياً عليها حتى توفى بعد أن جاوز الثمانين ودفن بالمقطم سنة ٤٣ﻫ ولا يزال قبره مجهولا .

أمراء الفسطاط فى عهد دولة بنى أمية

وإليك الآن أسماء الحكام العرب الذين تولوا الأمر بمدينة الفسطاط فى عهد دولة بنى أمية .

١ — الأمير	عمرو بن العاص	سنة	٣٧ ﻫ
٢ — «	عقبة بن أبى سفيان	«	٤٣ ﻫ
٣ — «	« « عامر	«	٤٥ ﻫ
٤ — «	مسلمة بن مخلد	«	٤٧ ﻫ
٥ — «	سعيد بن يزيد	«	٦٢ ﻫ
٦ — «	عبدالرحمن بن جحدم	«	٦٤ ﻫ
٧ — «	عبد العزيز بن مروان	«	٦٥ ﻫ
٨ — «	عبد الله بن عبد الملك	«	٨٦ ﻫ
٩ — «	قرة بن شريك	«	٩٠ ﻫ
١٠ — «	عبد الملك بن رفاعة	«	٩٦ ﻫ
١١ — «	أيوب بن شرحبيل	«	٩٩ ﻫ
١٢ — «	بشر بن صفوان	«	١٠١ ﻫ
١٣ — «	حنظلة بن صفوان	«	١٠٢ ﻫ
١٤ — الأمير	محمد بن عبد الملك	سنة	١٠٥ ﻫ
١٥ — «	الحر بن يوسف	«	١٠٥ ﻫ
١٦ — «	حفص بن الوليد	«	١٠٨ ﻫ
١٧ — «	عبد الملك بن رفاعه	«	١٠٩ ﻫ
١٨ — «	الوليد بن رفاعه	«	١٠٩ ﻫ
١٩ — «	عبد الرحمن بن خالد	«	١١٧ ﻫ
٢٠ — «	حنظلة بن صفوان (ثانياً)	«	١١٨ ﻫ
٢١ — «	حفص بن الوليد («)	«	١٢٣ ﻫ
٢٢ — «	حسان بن عتاهية	«	١٢٧ ﻫ
٢٣ — «	حفص بن الوليد (ثالثاً)	«	١٢٧ ﻫ
٢٤ — «	حوثرة بن سهيل	«	١٢٨ ﻫ
٢٥ — «	المغيرة بن عبيد الله	«	١٣١ ﻫ
٢٦ — «	عبد الملك بن مروان	«	١٣٢ ﻫ

ظل هؤلاء الولاة يحكمون بالفسطاط طول عهد الدولة الأموية التى مكثت ٩٥ سنة هجرية تقريباً ، لم يكف خلالها بنو هاشم — أهل بيت النبي وعلى بن أبي طالب — عن السعى لاسترداد الحكم من بنى أمية ، فكانوا يواصلون السعى سراً خوفاً من بطش الأمويين بهم ، يعاونهم الفرس ، إلى أن دب الضعف فى الدولة الأموية ، فأخذ بنو هاشم يعدون العدة للقضاء عليها ، فتم لهم ذلك فى موقعة اشتبكوا فيها مع مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين قرب الموصل فانهزم وفر إلى مصر ، فاقتفوا أثره وقتلوه .

و بموت مروان بن محمد انقضى حكم الدولة الأموية ، فقامت من بعدها الدولة العباسية التى تنتسب إلى العباس ابن عبد المطلب ، عمّ النبي صلى الله عليه وسلم . وأول خلفائها أبو العباس عبدالله السفاح . وكانت بغدادحاضرتها .

وأهم ما تمتاز به الدولة العباسية انطباعها بالطابع الفارسى ، وسبب ذلك معاونة الفرس فى قيامها ونشأتها ، بينما كانت الدولة الأموية عربية النشأة لاعتمادها فى قيامها على العرب دون غيرهم .

و بعد أن استقرت أحوال مصر فى يد عمرو بن العاص للمرة الثانية سنة ٣٧ ﻫ فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، واستتبت أمورها ، أقام المسلمون فيها حكومة عادلة ، عاملت القبط ، أغلبية سكان القطر إذ ذاك ، معاملة مبنية على العدل والتسامح حتى شعر المسيحيون بالفارق الكبير بين حكام الروم وحكام المسلمين الذين امتاز أغلبهم برعاية القبط والحدب عليهم ، ولم يشذ من هؤلاء الحكام سوى نفر قليل أخصهم بالذكر عبد الله بن الحبحاب عامل يزيد بن عبد الملك على خراج مصر ؛ فقد أمر هذا الحاكم فى سنة ١٠٤ ﻫ (٧٢٢ م) بتحطيم الصور المقدسة فى كنائس النصارى ، ولقد أدى ذلك إلى تمرد القبط فى الفسطاط وغيرها و إعلانهم العصيان وامتنعوا عن دفع الخراج .

حقيقة أن هذا التمرد سرعان ما قمع ولكنه كان يتجدد بين آونة وأخرى حتى اضطر ابن الحبحاب أن يجلب نحواً من خمسة آلاف عربى أقامهم بمصر يخضدون من شوكة القبط .

مدينة الفسطاط فى العصر الأموى :

وقد اتسعت مدينة الفسطاط وارتقت حالها على عهد الخلفاء من بنى أمية، و بقيت مقراً للأمراء الذين بعث بهم الأمويون إلى مصر .

قال القلقشندى : ولم يكن على أيام هؤلاء الأمراء دار خاصة للامارة ، إلا أن عبد العزيز بن مروان الذى كان أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك اتخذ له داراً تعلوها قبة مذهبة . وكانت هذه الدار فسيحة جداً حتى سموها المدينة . ومن ثم يظهر أن بعض الأبنية التى شيدت فى ذلك العصر بلغت من الكبر والزخرف حداً عظيماً .

ولقد جاء مصر فى العهد الأموى اثنان من خلفائهم وهما مروان الأول ومروان الثانى آخر خليفة أموى الذى هبط بعد هزيمته أمام خصومه العباسيين فى واقعة الزاب الأكبر المشهورة . وقد أقام فى طريقه فترة فى الفسطاط

ثم أمر بإشعال النار فى دار الامارة وفى الجسر الذى كان يصلها بجزيرة الروضة وفر إلى الضفة الغربية للنيل . ولكن احتياطاته ذهبت عبثاً لأن القائد العباسى صالح بن على بن عبد الله بن عباس ورجال خراسان عثروا بسرعة على وسائل عبور النيل ودهمته جيوش العباسيين فى بلدة بوصير بإقليم الجيزة حيث لقى حتفه فى ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ وعمره سبعون سنة وحملوا رأسه وطافوا بها المدن لكى يرى الناس أن الخلافة قد انتقلت من البيت الأموى إلى بيت أبى العباس الهاشمى أول خلفاء الدولة العباسية .

ولم يرض رجال العباسيين بالسكن فى بيوت الفسطاط بعد أن عبثوا بالمدينة ونهبوا مساكنها وفتكوا بأهلها بل قرروا إنشاء عاصمة أخرى جديدة لدولتهم فى مصر . وصدر الأمر إلى صالح بن على الوالى الجديد بالتخلى عن دار الإمارة بالفسطاط وبناء الحاضرة الجديدة لدولة العباسيين بمصر .

فأقامها سنة ١٣٣ هـ حيث كان معسكره إلى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط . وعرفت هذه الحاضرة الجديدة باسم مدينة العسكر . وصارت العسكر مقر ولاة مصر إلى سنة ٢٥٤ هـ . ولكنها لم تكن فى الواقع سوى ضاحية جديدة لمدينة الفسطاط .

مدينة الفسطاط فى العصر العباسى

ظلت الفسطاط حتى بعد تأسيس مدينة العسكر مركزاً ممتازاً للصنائع والحرف والتجارة . وكان يطلق على طرقاتها اسم شارع أو حارة أو درب أو زقاق تبعاً لعرض هذه الطرقات واتساعها وطولها .

وكانت الأسواق بمعزل عن بعضها البعض ، يطلق عليها اسم أرباب الحرفة أو الصنعة التى تباع فيها مصنوعاتهم ، فيقال مثلا : سوق العطارين ، وسوق السماكين ، وسوق القشاشين ، وسوق المغربلين كما هو الحال اليوم فى مدن الشرق كله .

وكانت الخطط تنسب إلى صنعة من الصنائع أو تجارة من التجارات . وقد تنسب لبعض الجوامع أو الكنائس .

وكانت القاعدة المتبعة ، منع السير فى الطرقات ليلا بواسطة إغلاق أبواب الدروب ، إلى أن كانت سنة ١٦٢ هـ (٧٧٨ م) رأى الأمير يحيى بن داود عامل مصر ، أن يبطلها من الفسطاط .

وكان لأبواب الدروب مصراعان اكتشفت بعض آثارها فى حفريات الفسطاط .

وعند تلاقى بعض الشوارع كانت توجد رحاب صغيرة وهى عبارة عن اتساع ملتقيات بعض الدروب . وما كان أوسع وأفسح من ذلك كان يسمى ميادين .

وكانت بعض الأسواق والشوارع تضاء بالقناديل نهاراً لأنها مسقوفة لا يصل إليها النور ، كما يشاهد ذلك للآن فى الأسواق القديمة أو القيساريات ببعض المدن كأسوان وسواها ، وذلك لاتقاء حرارة الشمس صيفاً وتلطيف الجو حيث يزداد ازدحام المارة .

قال ابن حوقل الذى زار مصر فى القرن الرابع الهجرى سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) يصف الفسطاط : « والفسطاط مدينة حسنة ، ينقسم النيل لديها ، وهى كبيرة نحو ثلث بغداد ، ومقدارها نحو فرسخ ، وعلى غاية العمارة والطيبة واللذة ، ذات رحاب فى محالها ، وأسواق عظام فيها متاجر فخام ولها ظاهر أنيق و بساتين نضرة ومتنزهات على ممر الأيام خضرة » .

ولما أخذت الدولة العباسية فى الضعف ، جعل خلفاؤها يجلبون الأتراك من الولايات التركية بوسط آسيا ، و يستخدمونهم فى حكومتهم و يستعينون بهم فى الدفاع عن أنفسهم ، ضد أبناء جنسهم العرب ونصرائهم الفرس. وقد نال هؤلاء الأتراك الحظوة عند الخلفاء العباسيين ، وصاروا يقلدونهم أهم وظائف الدولة ، و يولونهم حكومات الأقاليم التابعة لهم .

ومن هؤلاء أحمد بن طولون منشىء الدولة الطولونية بمصر . فقد انتخبه باكباك ، حاكم مصر من قبل الخليفة العباسى المتوكل ، قائداً للقوة العسكرية فى الفسطاط ، ولكن أحمد بن طولون لم يقنع بهذا المركز ، بل عمل على أن تكون له الكلمة العليا فى مصر . فتم له ما أراد منذ موت باكباك وتولية برقوق مكانه . وكان برقوق والد زوجة أحمد بن طولون فأطلق يده فى إدارة شؤون مصر وحكمها .

أخذ عندئذ أحمد بن طولون يجمع لنفسه جيشاً قوياً مدرباً ، ولما تم له ذلك وجد أن الفسطاط وضاحيتها العسكر لا تتسعان لإقامة جيشه وسكن حاشيته ورجال دولته ، فشرع يبنى عاصمة جديدة بين الفسطاط وجبل المقطم . وأسماها القطائع لأنه أقطعها لحاشيته ورجال جيشه وعماله ومن يتبعهم ، وأسكن كل طبقة منهم قطعة سميت باسمها . و بنى لنفسه فيها قصراً عظيماً تقع القلعة الآن مكانه ، وكانت تتصل بهذا القصر حديقة غناء وميدان فسيح لسباق الخيل . و بنى داراً للحكومة ومستشفى للمرضى وخط فى مدينة القطائع الشوارع والطرقات ثم شيد مسجده الشهير المعروف لليوم باسم جامع ابن طولون .

ولما عظمت قوته انسلخ عن الدولة العباسية واستقل نهائياً بالبلاد . فاتسعت مدينة القطائع وانتشرت فى كل اتجاه حتى أصبحت هى ومدينة العسكر ومدينة الفسطاط مدينة واحدة متلاحقة المبانى متصلة العمران . وقد أطلق على هذه المدن الثلاث فيما بعد اسم مدينة مصر أو اسم مدينة مصر الفسطاط . وهكذا عاد اسم مدينة مصر الأصلى القديم إلى الظهورمرة ثانية . على أن اسم مصر فى الواقع ظل مقترناً باسم مدينة الفسطاط منذ تأسيسها ، فكان يقال لها أيضاً فسطاط مصر .

مدينة الفسطاط فى عصر الفاطميين والأيوبيين :

جاءت على الفسطاط أيام كانت فيها مدينة جليلة زاهرة نامية ، ثم عصف بها الدهر فتغيرت أحوالها وزالت محاسنها وأصبحت خرائب غير معمورة سويت بالأرض ، فاندثرت خططها وعفا رسمها واضمحل ما بقى منها وتغيرت معالمه . ولم يبق منها سوى المسجد الذى يحمل اسم عمرو . وهكذا تحولت عاصمة الإسلام الأولى بمصر إلى أكوام من التراب وتلال من القاذورات وظل تاريخها غامضاً حقبة من الزمان ، حتى كشف العالم الأثرى الجليل المرحوم على بك بهجت بين سنة ١٩١٢ وسنة ١٩٢٠ عن آثارها وشرحها فى كتابه النفيس « حفريات الفسطاط » فأزاح الستار عن هذه الغوامض وأخرج للناس صورة واضحة لما كانت عليه هذه المدينة الجليلة فى عهدها الزاهر ثم تابع تطوراتها مع الزمن فرسم خططها ودرس هندسة دورها ومميزاتها وصناعاتها ونظام توزيع المياه فيها وغير ذلك حتى أصبحت معالم الفسطاط القديمة واضحة ظاهرة بفضل هذا المجهود الضخم العظيم .

وقد حاولنا هنا متابعة تطورات هذه المدينة مسترشدين بالنتائج الباهرة التى وصل إليها هذا العالم القدير فى كشف حفائر هذه المدينة ، ونحاول الآن الاستمرار فى تتبع تطورات هذه المدينة فى عصر الفاطميين والأيوبيين .

عرفنا مما سبق بعض تطورات المدينة فى عصر الخلفاء الراشدين وفى العصر الأموى والعصر العباسى أما فى عهد الفاطميين فقد كان تأسيس مدينة القاهرة الضربة القاتلة التى صوبت إلى نحر الفسطاط . صحيح أن الخلفاء الفاطميين اتخذوا القاهرة مقراً لهم ولحاشيتهم دون سواهم ، وصحيح أنهم جعلوها مدينة ملكية منفصلة عن الفسطاط تبعد عنها حوالى فرسخ إلى الشمال . صحيح أن الشعب والعسكر والتجار والصناع ظلوا يسكنون فى الفسطاط دون القاهرة ، ولكن كل ذلك لم يمنع ظهور عوارض الضعف على الفسطاط كلما ارتقت القاهرة وتقدمت . فلما أتى اليوم الذى سمح فيه صلاح الدين الأيوبى للناس بالانتقال إلى القاهرة طغت موجات الهجرة فتدهورت الفسطاط وسقطت .

نسب المقريزى سقوط الفسطاط إلى سببين: السبب الأول هو الغلاء الفاحش الذى حل بالبلاد أيام الشدة العظمى فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى . والسبب الثانى هو حريق الفسطاط فى وزارة شاور بن مجير السعدى سنة ١١٦٨م. ولكن الواقع أن أحوال الفسطاط تراجعت بعد الحريق حتى قاربت ما كانت عليه قبل الشدة، وكل ما لوحظ أن مساحة المدينة الأصلية قلت عن ذى قبل، ولكن موضع العسكر والقطائع وظاهر الفسطاط مما يلى القرافة كان قد تلاشى تماماً ولم يبق مكانه إلا الكيمان المنتشرة إلى موقع بركة الحبش القديمة بجوار قرية البساتين فى جنوب مدينة القاهرة الحديثة .

قال ناصرى خوسرو يصف الفسطاط سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٦ م) : « حينما يرى الإنسان من بعيد مصر الفسطاط يظن أنها جبل ، ففيها دور من أربع عشرة طبقة ، وأخرى من سبع طبقات . وقد سمعت من ثقة أن بعض

الناس كان له بستان على سطح دار له من سبع طبقات . فأصعد إلى هذا السطح عجلا صغيراً ، وغذاه حتى أصبح ثوراً ، وركب فى السطح ساقية يديرها الثور ، فصعد الماء إلى السطح الذى غرس فيه شجر البرتقال من الحلو والمالح ، والموز ، وأشجار أخرى مثمرة ، وزرع فيه الأزهار والرياحين من سائر الأنواع . »

ولكن ما يلفت النظر فى وصف هذا السائح الفارسى ، إنما هو كثرة الثروة فى الأسواق ، والازدحام فيها وجمال الأعياد التى حضرها حيث يقول :

« لو وصفت هذه الأعياد لما وسع كثيراً من الناس أن يصدق كلامى ، ويرمينى بالمبالغة والإغراق ، فإن حوانيت القصابين والصياغ والحوانيت الأخرى مفعمة بالذهب والحلى والبضائع والأقمشة من الحرير والقصب لدرجة لا يجد فيها المشترى محلا يجلس فيه » .

وختم هذا الوصف بقوله :

« رأيت بمصر ثروة جسيمة ، وأموالاً جمة ، لو هممت بوصفها ، لما صدق أحد من سكان بلاد العجم كلامى . »
ومع ذلك ، لم تكن هذه المدينة التجارية تصلح للسكنى ، فإن ابن رضوان المصرى الطبيب الخاص للحاكم بأمر الله فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) قابل بينها وبين القاهرة من حيث الصحة والنظافة فقال :

« وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة وأبنيتها عالية ، ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت فى دورهم من السنانير والكلاب ونحوها من الحيوان الذى يخالط الناس ، فى شوارعهم وأزقتهم فتعفن وتخالط عفونتها الهواء .

ومن شأنهم أيضاً ، أن يرموا فى النيل الذى يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها ، وخرارات كنفهم تصب فيه . وربما انقطع جرى الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء .

وفى خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها فى الهواء دخان مفرط .

وهى أيضاً كثيرة الغبار لسخانة أرضها ، حتى إنك ترى الهواء فى أيام الصيف كدراً يأخذ بالنفس ، ويتسخ الثوب النظيف فى اليوم الواحد .

وإذا مر الإنسان فى حاجة لم يرجع إلا وقد اجتمع فى وجهه ولحيته غبار كثير .

ويعلوها فى العشيات ، خاصة فى أيام الصيف ، بخار كدر أسود وأغبر ، لاسيما إذا كان الهواء سليما من الرياح » .

وهذه الصورة المنفرة ، ربما كانت هى السبب فى تنقل العاصمة من مكان إلى مكان نحو الشمال والبحث وراء الموقع الذى يمكن أن تهب منه الرياح الشمالية . وقد قيل إن الخليفة المعز انتقد جوهر القائد على اختياره موقع القاهرة لأن مكانها لم يعجبه فقال له : « فاتك بناء القاهرة على النيل فهلا كنت بنيتها على الجرف » . وهو يعنى بذلك الشرف الذى عليه الرصد بجوار بركة الحبش . ويريد بذلك مكانا أطيب هواء من موقع العاصمة القديمة .

على أن بعض خطط الفسطاط لم تكن لتخلو من الرياح الطيبــة ولا تجرد عن العفونات ، كما يصفها ابن رضوان ، فإن الجانب الذى يصفه يوافق وسط الأسواق ، ومراكز التجارة ، حيث يبلغ فيها الزحام أقصاه وذلك فيما جاور الجامع والنيل .

أما الخطط الجميلة التى يذكرها ابن حوقل ، فلا شك فى أنها كانت تمتد إلى الشرف ، و إلى حافة بركة الحبش التى كانت على أيام الخلفاء الفاطميين مفعمة بالمناظر العديدة البديعة .

وأما ما جاور الفسطاط فكانت تكثر فيه البساتين الواسعة .

وقد أتى ابن سعيد المغربى على وصف ما بلغته المدينة من العظمة التجارية والصناعية حتى بعد أن ابتدأ أفول نجمها فقال :

« وبمدينة الفسطاط مطابخ السكر ومطابخ الصابون ومسابك الزجاج ومسابك الفولاذ ومسابك النحاس ومعامل القاشانى والفخار والصينى والوراقات مما لا يعمل فى القاهرة ولا فى غيرها من الديار المصرية » .

ولقد كانت كثرة الميرة والحبوب ، فى مطامير الفسطاط ، سبباً فى رخاء العيش فيها ، رخاء يزيد على ما كان عليه الحال فى القاهرة ، لأن القاهرة كانت مسكناً للكبراء ، ومقراً للأمراء ، ولجنود الخليفة الفاطمى فقط .

وفى ذاك الوقت ، كانت ترى أطلال خطط الفسطاط التى هجرت فى شمالى المدينة وشرقيها .

ولقد زار ابن سـعيد المغربى الفسطاط فركب إليها من باب زويلة حماراً . ولـكنه لم يبلغها حتى شاهد منظراً محزناً قال يصفه :

« ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة ، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة . ودخلت من بابها (باب الصـفا) وهو دون غلق ، مفض إلى خراب معمور بمبان سيئة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، وقد بنيت من الطوب الأدكن ، والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة . وحول أبوابها من التراب والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف » .

هذه هى الحالة التى كانت عليها الفسطاط فى العصر الفاطمى ومع مرور الزمن تكدست الأنقاض شيئاً فشيئاً فوق هذه الأطلال الدارسة ، بحيث لم يمض غير قليل حتى تكونت هذه الكيمان العالية ، التى نراها ماثلة فى جنوب القاهرة حتى اليوم .

ومن هذه الكيمان كانت تؤخذ مواد البناء التى يمكن الانتفاع بها فى الأبنية الجديدة من آجر وخشب وأبواب و بلاط وغير ذلك . تماماً كما كانت الحالة أيام إنشاء الفسطاط حين نقلت أنقاض منف للانتفاع بها فى بناء العاصمة الجديدة .

وهكذا فالتاريخ يعيد نفسه ، وسبحان من له البقاء .

دور الفسطاط

وكانت دور الفسطاط ذات حيشان متوسطة تمتاز بأن الغرف كانت تحيط بالحوش بنظام متماثل ، وتتكون من شكل هندسى قائم على محورين متعامدين يلتقيان فى وسط الحوش وتختلف الغرف المحيطة به فى المقاس والنسب. وفى كل جنب من جوانب الحوش رواق ذو ثلاث فتحات ، تختلف فى الضيق والسعة . منها الفتحة الوسطى أوسع من الفتحتين الجانبيتين ويفصلها عنهما كتفان مبنيان بالآجر . وفى سمت الرواق ، القاعة . وهى غرفة كبيرة يزيد طولها عن عرضها . وتكتنفها من جانبيها حجرتان صغيرتان . منعزلتان عنها .

وفى الجوانب الثلاثة الأخرى من الحوش فى محور كل جانب أواوين تختلف فى الامتداد إلى الداخل ، فتتكون منها تارة قاعات وطوراً ، وهو الأغلب ، أواوين صغيرة أو صفف .

ولم يعرف بالضبط على أى حال كان يعيش النساء فى أوائل الفتح الإسلامى وفى العهدين العباسى[1] والطولونى وهل كانت لهن غرف خاصة فى دور الفسطاط أم لا ؟ وكل ما وصل إلى علمنا هو أن الغرف لم تكن معدة لغرض مخصوص ، كما هو الحال فى بيوتنا الآن . فإن القاعة الكبيرة ، والرواق ، والأواوين بل والصحن ، كل ذلك كان يستعمل لاستقبال الزائرين تبعاً لأوقات النهار والفصول .

غير أن المحتمل هو وجود دار للحريم وتخصيص مكان على انفراد لهن فى جميع المساكن الفسيحة المشيدة فى الأراضى المتسعة . وهذا التخصيص ظاهر جداً فى بيوت الأمراء والأكابر . ومن هذا القبيل اتخاذ أحمد بن طولون داراً خاصة بحريمه بجزيرة الروضة .

وكان بجوار السوق الكبيرة زقاق سده قراقوش الأفرمى وأضافه إلى داره من شرقيه وجعله مدخلاً خاصاً إلى حريم داره .

وكانوا يجهزون الطعام على مواقد من الطين يوقدونها فى الحوش أو فى حجرة صغيرة .

وكانوا ينزلون بأسس المنازل إلى الصخر . وكانت الأسس تبنى بالدبش ومونة الطين أو الطين والجير . كما كانت تبنى بالآجر ومونة الجير والرمل وقد يضاف إليها القصرمل أو الحمرة .

كما كانت تبنى أساسات بعض منازل الطبقات الفقيرة من اللبن .

أما حوائط المنازل فكانت تبنى بالآجر الأحمر الداكن المتجانس وهو مستوفى الحريق شديد الصلابة شكله مستطيل ، ومتوسط أبعاده ٠٫٢٢ × ٠٫١١ × ٠٫٠٦٥ متر ، يبنى على مداميك أفقية مقطوعة الحلوق بمونة الطين أو الطين والجير فى المبانى الحقيرة . ومونة الجير والرمل بنسبة ٢ : ١ أو ١ : ١ أو مونة الجير والقصرمل بنسبة ٢ : ١ أو بمونة الحمرة والجير بنسبة ١ : ١ فى المبانى المتينة .

وهناك مون خلط فيها الجبس بالجير على نسب مختلفة . ومون من الجبس الخالص والجير الخالص .

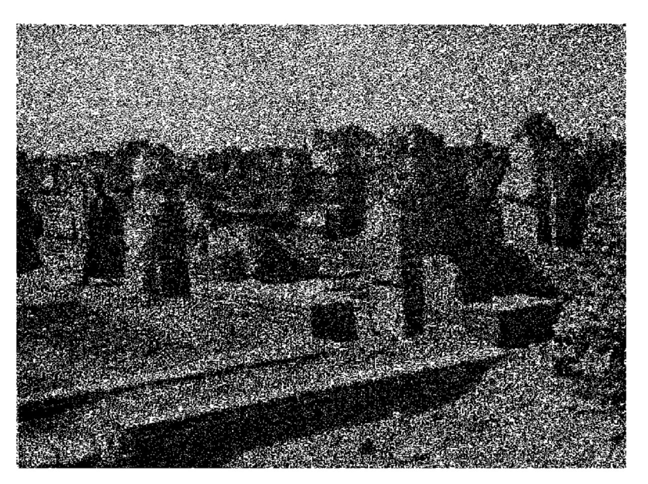
وكانت العراميص الأفقية أعرض من العراميص الرأسية . وكانت هذه العراميص تكحل بعد البناء بمونة من الجبس والجير حتى تبرز نحو ملليمتر أو اثنين عن سطح الآجر بهيئة خطوط بيضاء على أرض حمراء داكنة . ويمكن رؤية هذا الطراز من البناء لغاية اليوم فى منازل رشيد التى احتفظت بها لجنة حفظ الآثار العربية ورممتها .

وفى داخل الدور كانوا يفرّشون الجدران بالجير الخالص أو يبيضونها بالجير المخلوط بالرمل أو بالجير المخلوط بالجبس ، وقد يضيفون إليه التبن .

أما بيوت الفقراء فكانت تدهك جدرانها من الداخل والخارج بالطين المخلوط بالتبن .

وكانت الحوائط المبنية من الطوب الأحمر أو الأخضر تربط بأخشاب توضع وضعاً أفقياً كما هو شائع للآن فى المبانى العادية . كما كانت تدعم بأحجار وأعمدة رومانية ليس فيها شىء من جمال التنسيق .

وكان استعمال العقود معروفاً ومتبعاً فى فتحات الأبواب والشبابيك والقبوات والمجارير والبيارات .



بعض بقايا دور الفسطاط

وكان البياض بالجبس ، وكانت الزخرفة الجصية من الفنون الشائعة بمدينة الفسطاط وقد ورثها الإسلام عن المدنية المصرية والمدنية الأشورية بالعراق .

وكان استعمال البلاط المعصرانى فى الأرضيات ذائعاً فى مبانى الطبقات الغنية . وكان يركب أحياناً بشكل دالات كالبركية فى المبانى الحديثة .

وكانت المعدات الصحية منتشرة فى كل منزل من منازل الفسطاط ، فكانت المجارير منقورة فى الصخر ومسلطة على بيارة تنصرف إليها أيضاً جميع المياه العادمة المتخلفة من المنزل . وكانت هذه البيارات نفسها منقورة فى الصخرة تتجمع فيها المياه ثم تكسح .

آبار الفسطاط

وقد حفرت آبار كثيرة فى الفسطاط ، وكانت تمد بمائها الأحواض العليا فى المنازل . ولما كانت المدينة مشيدة فوق هضبة صخرية سميكة ، فقد نقرت هذه الآبار فى الصخر وتجاوزته إلى الطبقة الرملية حيث المياه الغائرة . ولكن مياه هذه الطبقة كانت مياه أجاج يكثر فيها الملح كلما بعدت عن مجرى النيل ، ولذا كانت مياه هذه الآبار غير صالحة للشرب ، وكانت تستعمل فقط فى الاحتياجات المنزلية الأخرى كغسيل الأوانى والملابس ، وتغذية الفسقيات وغير ذلك .

أما مياه الشرب فكان يأتى بها السقاؤون من النهر بالقرب ، وتحفظ فى أزيار مصنوعة من الفخار كالأزيار المعروفة لدينا الآن أو فى صهاريج صغيرة خاصة معدة من قبل فى الصخر تحت المنازل ، ثم تسحب منها بالدلاء كلما احتاج الأمر ذلك .

السقاء

قلنا إن الآبار كانت تمد بمائها الأحواض العليا فى المنازل ، وكانت ترفع إليها إما بواسطة السواقى أو بواسطة آلات رفع خاصة تدار باليد ، وتشبه إلى حد بعيد طلمبات اليد الحالية . ثم تسير هذه المياه من الأحواض العليا إلى جهات المنزل المختلفة فى مواسير من الفخار تربط ببعضها بمونة الجير والقصرمل أو الحمرة .

وكان فى الحوش بكل دار مهمة فسقية مربعة مبنية بالطوب الأحمر ومبيضة بأشكال هندسية مختلفة .

وكان الغرض من هذه الفساقى هو ترطيب جو المنزل صيفاً كما نستعمل نحن المراوح الكهربائية الآن . فوق أن منظر هذه الفساقى وما يحيط بها من الخضرة كان منظراً جميلا جذابا فى صحن المنزل .

وكان ببعض المنازل أحواض لغسيل الأيدى مصنوعة من الرخام المتخذ من أعمدة رومانية قديمة .

موت الفسطاط

قال المقـــــــريزى :

بلغ طول الفسطاط على ضفة النيل اليمنى ثلاثة أميال . وقد فاقت مدينة الفسطاط كل مدن العرب الشهيرة فى عهدها ، مثل بغداد ودمشق والبصرة والكوفة فى الثروة والترف .

وذكر مؤرخو العرب أنه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠ شارع مسلوك و ١٧٠ حماماً .

ولا شك أن عدد المساجد المذكور هنا مبالغ فيه ، وربما كان المقصود أن كل منزل من منازل المدينة كان به مصلى لصاحب المنزل وضيوفه فحسبت هذه المصلات كمساجد .

وكانت أكثر منازل الأهالى من اللبن تدعمها أعمدة رومانية أو مصرية منقولة من بابليون أو منف لا شىء فيها من الزينة ولا من جمال التنسيق .

وقيل إن بعض المنازل الكبرى كان يسكن فيها حوالى مائتى شخص . وكانت الطبقة الأرضية من المبانى لا يسكنها أحد إلا فيما ندر .

وهذا النوع من المساكن يعرف فى المدن الإسلامية باسم الربع .

وبعد أن اتسعت الفسطاط وبلغت أقصى مراتب العمار ، جاء دور السقوط فحل بها الخراب لسببين :

السبب الأول : هو « الشدة العظمى » التى حلت بالبلاد المصرية فى عهد المستنصر بالله الفاطمى .

والسبب الثانى : هو حريق الفسطاط فى عهد وزارة شاور بن مجير السعدى سنة ١١٦٨ م .

أما « الشدة العظمى » فوقعت سنة ٤٤٦ هـ فارتفعت الأسعار بمصر ارتفاعاً فاحشاً ، وتبع ذلك انتشار الوباء فى البلاد لمدة سبع سنوات .

وكان السبب الأول فى حصول « الشدة العظمى » هو تقصير فيضان النيل لمدة خمس سنوات متتالية ثم توالى القلاقل والثورات الداخلية ، وانصراف الحكومة عن الزراعة . كل هذه الأسباب جعلت الحبوب نادرة جداً ، فبلغ ثمن الإردب الواحد من الحنطة مائة دينار ، فمات الفقراء جوعاً ، وأكل الناس الجيف ، وعم البلاء وانتشر الوباء . وانتهى الأمر باستدعاء بدر الجمالى حاكم سوريا الأرمنى الجنس وتوليته الوزارة بمصر. فقبل بدر مشترطاً أن يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من الأرمن وأهل الشام. ولما تسلم الحكم سعى فى تنشيط الزراعة وأباح الأرض للمزارعين ثلاث سنين حتى تحسنت حال الفلاحين ومهلت سبل التجارة ، وأمر بإنشاء البنايات العظيمة فى القاهرة ، وشاد المساجد فيها وفى جزيرة الروضة ، وأعاد سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية بإعادة الأمن إلى نصابه وبالقضاء على عوامل الفساد . وسرعان ما انتشر الرخاء وعادت المياه إلى مجاريها .

ولكن كان من نتائج « الشدة العظمى » أو البؤس الذى حلّ بمصر من جراء ما منى به الخليفة المستنصر بالله الفاطمى الذى حكم من سنة ٤١١ إلى ٤٨٧ هـ لمدة ٧٦ سنة هجرية من ضعف فى شخصيته ، وما رزىء به من انقسام فى جيشه ، ثم جاء النيل فعجل فى الطامة الكبرى التى عبر عنها « بالشدة العظمى » . أقول كان من نتائج ذلك أن زاد خراب الفسطاط لأن بدر الجمالى أباح للعسكريين من أرمن وسوريين ولمن هاجر من أهلهم للعيش فى مصر تحت ظل هذا الوزير الأرمنى ، أن يبنوا ما شاءوا فى القاهرة ، فأخذوا فى نقل ما كان بمدينة الفسطاط من أنقاض المنازل حتى أتوا على معظم ما هنالك ، وخرب ما بين القاهرة وبينها من المساكن ، ولم يبق من فسطاط مصر شىء عامر سوى جبل يشكر الذى يقوم عليه جامع ابن طولون إلى يومنا هذا .

هذا هو السبب الأول فى خراب الفسطاط .

أما السبب الثانى فى خراب هذه المدينة ، فهو الحريق الهائل الذى أمر بإضرامه شاور وزير الخليفة الفاطمى العاضد فى ٢٩ من شهر صفر سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٨ م) ، لما غزا القائد الصليبى « آمورى » مصر ونزل ببلبيس ، وذلك خوفاً من وقوعها فى أيدى الصليبيين واتخاذهم منها معقلا يهاجمون منه القاهرة .

نادى شاور بأهل الفسطاط ألا يقيم بها أحد ، فهاج الناس واضطربوا وفروا بأولادهم إلى القاهرة والجيزة تاركين أموالهم ومساكنهم وأثقالهم فى المدينة البائسة . وبهذه المناسبة بلغ أجر الدابة من الفسطاط إلى القاهرة بضعة عشر ديناراً وكراء الجمل ثلاثين ديناراً . ونزل الناس بالقاهرة فى المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات ، فانطرحوا عليها مع أولادهم وقد سلبت بقية أموالهم وهم ينتظرون هجوم العدو على القاهرة .

ثم بعث شاور إلى الفسطاط بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار وفرّق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فكان منظراً مهولا . واستمرت النار تأتى على مساكن هذه المدينة من يوم ٢٩ من شهر صفر حتى أتمت ٤٥ يوماً .

ولما انتهى الحريق رحل آمورى من بركة الحبش ونزل بظاهر القاهرة مما يلى باب البرقية وقاتل أهلها قتالاً عنيفاً ، ثم انتهت الحرب بانسحابه من مصر .

ألا ان الفسطاط كانت قد خربت تماماً . ومع ذلك فلما تقلد شيركوه الوزارة بعد مقتل شاور ، نادى فى الناس بالرجوع إلى الفسطاط ، فرجع الناس إليها قليلا قليلا وعمروا ما حول الجامع العتيق إلى أن كانت سنة ٥٦٥ هـ فى عهد الملك العادل أبى بكر بن أيوب حيث حلت المحنة بالمدينة ثالثاً من الغلاء والوباء ، فخرب منها جانب كبير .

ولما جاء صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٦٧ هـ صمم على أن يجمع بين القاهرة وما بقى من الفسطاط بسور واحد

ومن ثم انتقلت حركة التجارة والصناعة إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو المراكب وتكثر المخازن والمصانع التى حفظت للفسطاط بعض عمارها .

وفى أيام الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٣ هـ ، امتدت المبانى بين الفسطاط والقاهرة حتى غدت المدينتان مدينة واحدة .

قال المقريزى : « وفى أيام الناصر اتصلت عمائر مصر (الفسطاط) والقاهرة فصارتا بلداً واحداً يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والرباع والقياسر والأسواق والفنادق والخانات » .

إلا أن الفسطاط ظلت فى تقهقر إلى أن كانت أيام الظاهر بيبرس سنة ٧٠٨ هـ فصرف الناس هممهم إلى هدم ما خلا من المدينة حتى اندثرت وعفى رسمها واضمحل ما بقى منها وتغيرت معالمه .

وعلى هذه الحال تحولت العاصمة الإسلامية الأولى إلى أكوام من التراب ، وتلال من القاذورات ، لا تزال إلى الآن فى جنوب القاهرة الحديثة فى انتظار إتمام العمل العظيم الذى بدأه العالم الأثرى الجليل المرحوم على بك بهجت سنة ١٩١٢ الذى كشف معالم هذه المدينة الهائلة وأخرج لعلماء الحفريات والتاريخ ما ظل غامضاً من تاريخها لمدة عصور طويلة .

فهل لنا الآن ، وقد أصبح مشروع إنشاء بلدية القاهرة ضرورة ملموسة ، أن ننتظر من المدينة الحديثة إحاطة عاصمة الإسلام الأولى بالرعاية الواجبة لهذه العاصمة المندثرة فتزرع حولها غابات من الأشجار والزهور وتحيطها بحلقات من الحدائق والمتنزهات إجلالا لذكرى العاصمة القديمة وحفظاً لصحة سكان العاصمة الحالية .

لقد ماتت الفسطاط حرقا !! ولذا يشبّه السياح خرائبها بخرائب مدينة بومبيه الايطالية التى ماتت هى الأخرى محروقة تحت حمم بركان فيزوف ويسمونها « بومبيه مصر » .

ويصل السياح اليوم إلى هـذه « البومبيه المصرية » عن طريق سكة حديد حلوان ، فينزلون فى محطة مار جرجس ، ويخترقون الأزقة القذرة فى هذه المنطقة التى تؤدى إلى خرائب الفسطاط ! وهناك يمرون بين أساسات المنازل التى لم تزل ماثلة فوق الهضبة الصخرية ، وهى إحدى عروق جبل المقطم التى أقيمت فوقها مدينة الفسطاط ، ويشاهدون الآبار المنقورة فى الصخر التى طالما شرب منها سكان هذه المدينة المندثرة . ثم يعرّجون على المجموعة التى جمعتها دار الآثار العربية من حفائر الفسطاط وتتكوّن من القاشانى المزخرف والأعمدة وشواهد المقابر بكتاباتها الكوفية الجميلة ، والمسارج القديمة المصنوعة من الفخار الخ الخ .... وهناك أمل كبير فى تكوين متحف الفسطاط من هذه الآثار فى الهواء الطلق ! !

على أنه من حق هذه الآثار علينا أن نحث حكومتنا الرشيدة على تمهيد الشوارع والطرق الموصلة إلى آثار الفسطاط وأن نرجو رفع ما هنالك من جيّارات ومقالب وقاذورات ، ثم نشر الدعاية اللازمة لجذب السياح إلى هذه المنطقة أسوة بالآثار المصرية القديمة .

أهم معالم مدينة الفسطاط القديمة وما أصبحت عليه الآن

جامع عمرو بن العاص

جامع عمرو بن العاص أول جامع بنى فى الديار المصرية بعد فتح العرب . وكان يقع على ضفة النيل الشرقية مباشرة شمالى قصر الشمع ، ثم انحسر عنه ماء النيل شيئاً فشيئاً إلى أن كانت سنة ٣٥٠ هـ حيث استقر النهر فى مجراه الحالى تقريباً على بعد نحو اربعمائة متر غرباً .

بناه عمرو بن العاص بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لتجمع فيه الجمعة لجيوش المسلمين الظافرة . وقد اختار لبنائه الموضع الذى كان فيه لواؤه وصار يعرف باسم مسجد أهل الراية . وكان ذلك الموضع بين بساتين وكروم تلى شاطئ النهر . وقد حل فيه قبل بناء الجامع أبو عبد الرحمن قيسبة بن كلثوم فلما طلبه عمرو منه نزل عنه صدقة للمسلمين .

قلنا إن هذا الجامع بنى على ضفة النيل الشرقية ، وكان النيل ، وقت الفتح العربى لمصر ، يجرى حيث يمتد الآن على وجه التقريب شارع مارجرجس وشارع حسن الأنور وشارع السد وما فى امتدادها شمالا وجنوبا .

و بنى عمرو جامعه بطول ٥٠ ذراعا وعرض ٣٠ ذراعا وفرش أرضه بالحصباء وسقفه بسقف مطأطأ من الجريد حمل على ساريات من جذوع النخيل دون أن يجعل له صحناً ودون أن يجعل أمامه رحبة يستنشق المصلون طلق هوائها، كما لم يجعل له مئذنة ولا محراباً مجوفاً ولا منبراً بالمعنى الصحيح .

وقد اشترك فى تحرير قبلته نحو الثمانين صحابياً ممن حضروا الفتح ، ومع ذلك فقد جاءت تلك القبلة منحرفة نحو الشرق أكثر مما يجب . وفتح للجامع فى كل من جوانبه الثلاثة الشرقى والبحرى والغربى بابان .

ثم بنى عمرو لنفسه داراً شرقى الجامع سميت « دار عمرو الكبرى » تجاورها من بحريها دار ثانية لابنه عبد الله سميت « دار عمرو الصغرى » و بنى الزبير بن العوام داراً ثالثة . وأحيط الجامع من جهاته الأربع بطريق كان عرض جزئه الشرقى سبعة أذرع .

و بقى الجامع على هذا الحال إلى أن قدم مسلمة بن مخلد والياً على مصر سنة ٤٧ هـ (٦٦٧ م) من قبل معاوية أول خلفاء بنى أمية فوسعه سنة ٥٣ هـ (٦٧٢ — ٦٧٣ م) من الجهة البحرية وجعل له رحبة أمامه من هذه الناحية و بيضه وزخرفه وفرش أرضه بالحصر لأول مرة بدلا من الحصباء . و بنى أربع صوامع فوق أركانه الأربعة بشكل أبراج مربعة ونقش اسمه عليها وجعل الوصول إليها من مراق خارج الجامع . وهذه الصوامع كانت أول

نماذج للمآذن فى مصر . ثم تطورت هذه المآذن وتهذبت واقتبس لها كثير من تفاصيل منار الأسكندرية القديم حتى بلغت من الرشاقة والجمال ما نشاهده عليها الآن .

ولما ولى مصر عبد العزيز بن مروان من قبل أخيه عبد الملك بن مروان سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) وسع الجامع من الناحية الغربية ، كما أدخل فيه الرحبة التى أنشأها مسلمة فى الجهة البحرية ولم يستطع الزيادة فيه من شرقيه لضيق الطريق .

وفى سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) أمر الوالى عبد الله بن عبد الملك بتعلية سقفه

وقال أبو عمرو الكندى إن عبد العزيز زاد فيه من جوانبه كلها .

وفى سنة ٩٠ هـ (٧٠٨ — ٧٠٩ م) قدم مصر الأمير قرة بن شريك والياً عليها من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فهدم الجامع فى أول سنة ٩٢ هـ (٧١٠ — ٧١١ م) وبدأ فى بنائه فى شعبان من السنة المذكورة (مايو سنة ٧١١ م) وفرغ منه فى رمضان سنة ٩٣ هـ (يونيو سنة ٧١٢ م) ووسعه لأول مرة من الجهة القبلية وللمرة الثانية من الجهة الشرقية حيث أدخل فى مسطحه باقى الطريق وجزءاً من دار عمرو ودار ابنه عبد الله .

وقد أحدث فيه ابن شريك المحراب المجوف المقتبس من التجويفات الموجودة فى هياكل الكنائس المصرية السابقة على الإسلام ونصب فيه منبراً خشبياً جديداً سنة ٩٢ هـ على مثال ما رآه فى كنائس القبط . وأحدث فيه المقصورة .



جزء من معبد الاقصر حول إلى كنيسة فى صدر المسيحية . ولا شك أن المحراب المجوف فى العمارة الاسلامية مقتبس من هذا الشكل .

ثم صحح اتجاه القبلة الأولى ، وحينذاك صار للجامع أربعة أبواب فى جداره الشرقى ومثلها فى جداره الغربى وثلاثة فى الجدار البحرى .

وقد أمر قرة بن شريك بتذهيب تيجان أربعة أعمدة من أعمدة الجامع اثنان منها أمام المحراب فى صف الأعمدة المقابل له و إثنان آخران فى الصف الذى يليه .

وهذه أول مرة استعملت فيها الأعمدة الرخامية بالجامع كما أن التذهيب كان أول نوع من الزخرف الثمين الذى عمل به . وبالطبع كانت هـذه الأعمدة الرخامية منقولة من الكنائس القبطية القديمة ومن المعابد المصرية بمنف وعين شمس .

ولما شاخت الدولة الأموية وخلفتها الدولة العباسية ، وأصبح صالح بن على والياً على مصر من قبل العباسيين ، أسس مدينة العسكر وجامعها ودار أمارة ثانية بدلا من دار الأمارة الأموية التى كانت بالفسطاط ثم زاد فى جامع عمرو سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ — ٧٥١ م) أربعة أساطين ، وعمّر إيوان المحراب ومقدم الجامع عند الباب الأول القبلى ، وقد ساعدت هذه الزيادات على فتح باب جديد بالجدار الشرقى سمى « باب الكحل » لمقابلته لزقاق الكحل وهو الباب الأخير البحرى من الجهة الشرقية فصار عدد أبواب هذا الجانب خمسة أبواب .

وفى سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) زاد فيه موسى بن عيسى أمير مصر من قبل الخليفة الرشيد من الناحية البحرية حيث أدخل فيه نصف رحبة أبى أيوب . وفى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) أمر عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل الخليفة المأمون بتوسيع الجامع فأضاف إلى أرضه مثلها من الجهة الغربية ونتج عن ذلك التوسيع أخذ النصف الغربى الباقى من رحبة أبى أيوب ، و بلغ طول الجامع إذ ذاك ١٦٠ ذراعاً وعرضه ١٥٠ ذراعاً .

وفى صفر سنة ٢٧٥ هـ (يوليو سنة ٨٨٨ م) حدث حريق بالجامع التهم أكثر زيادة عبد الله بن طاهر فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر إذ ذاك بعمارته على يد أحمد بن محمد العجيفى . فتمت هذه العمارة فى السنة نفسها ومن جملتها تزويق أكثر أعمدة الجامع .

وفى عصر الأخشيد سنة ٣٢٢ هـ استعاد جامع عمرو الذى عرف إذ ذاك باسم الجامع العتيق أهميته الأولى .

وفى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨) فى عهد أنوجور بن الأخشيد أنشأ أبو حفص عمر القاضى العباسى غرفة للمؤذنين بالسطح .

وفى عصر الدولة الفاطمية أقيمت بهذا الجامع عمارات كثيرة ، فعملت فيه الفوارة سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨) بأمر العزيز بالله الفاطمى .

وفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) أمر الحاكم بأمر الله وزيره برجوان ، الذى بقى اسمه فى اسم حارة برجوان المعروفة الآن بقسم الجمالية ، بإصلاح الجامع فجدد بياضه وأصلحه .

وفى رمضان سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) أمر هذا الخليفة بإنزال ١٢٩٨ مصحفاً من القصر الكبير ليتمكن الجمهور من القراءة فيها . وكذلك أخرج تنوراً فضياً برسم الجامع به ما قيمته ٢٠٠ ألف درهم من الفضة ، وكان من الكبر بحيث لم يتيسر إدخاله من باب الجامع إلا بعد هدم مصاطبه وعتباته . ثم أضاف للجامع رواقين فى صحنه .

وفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) بنيت المئذنة التى بين مئذنة عرفة و بين المئذنة الكبيرة . وقد هدمت هذه المئذنة فى وقت غير معلوم .

ولما حرقت مدينة الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) تشعث هذا الجامع ، فلما تولى السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى مُلك مصر سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٥ م) جدده ورخمه وأزال تشعثه وجلا عمده .

ثم عمره الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ م) .

وفى سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) عمره السلطان المنصور قلاوون .

ولما حدث الزلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) تشعث الجامع وانفصلت أعمدته بعضها عن بعض فجدده الملك الناصر محمد بن قلاوون .

و بعد نحو مائة عام تضعضع الجامع وتداعى للسقوط فعمره الرئيس برهان الدين المحلى رئيس تجار مصر سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠٢ م) .

ثم عمره الملك الأشرف قايتباى سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م)

ثم عمره الأمير مراد بك محمد المدفون بسوهاج وصليت فيه الجمعة فى آخر رمضان سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) .

ثم حصل فيه ترميم و إصلاح بدون تغيير شىء من حدوده فى عهد الأسرة العلوية الكريمة .

وذكر فى خطط على باشا مبارك « أن جدرانه هى التى كانت عليها سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) وأن الفرنسيين قاسوه زمن استيلائهم على مصر فوجدوا ضلعه ١٢٠ متراً » .

وفى حوادث سنة ١٢١٢ هـ من تاريخ الجبرتى ، أن مرادبك ، لما رأى أن الجامع تخرب ، أقام أركانه وشيده ونصب أعمدته و بنى فيه منارتين وجدد جميع سقفه وفرشه وصليت فيه الجمعة بحفل حافل .

وكان يعقد فى الجامع العتيق اجتماع فى آخر جمعة من رمضان تدور فيه أنواع اللهو ، فبطل ذلك من هذا العهد وأصبح أمراء مصر يؤدون فيه صلاة الجمعة اليتيمة فى كل عام .

وفى سنة ١٩٠٦ عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بهذا الأثر ورممته .

وفى سنة ١٩٢٦ عملت مسابقة عامة لوضع تصميم يطابق حالته فى العهد الذى بلغ فيه مجده وفخامته ، فقدم المتسابقون سبعة مشروعات فصل فيها سنة ١٩٢٧ .

وفى سنة ١٩٣٠ اعتمدت لجنة حفظ الآثار العربية مبلغ ٤٠٠٠ جنيه لإصلاح الإيوان الكبير « إيوان المحراب » إصلاحاً شاملا مع تقوية جدران الأجزاء الأخرى من الجامع ، وقد تم هذا العمل .

وفى أثناء هذه العملية كشفت أبواب الجامع الشرقية الخمسة ، وباب غرفة الخطيب على يمين المحراب الكبير ، وثلاثة من أبوابه الأربعة



جامع عمرو بن العاص من الداخل .
أروقة المحراب كما هى الآن .

بالجنب الغربى ، ولم يبق من أبواب الجامع بدون كشف سوى باب رابع بهذا الجنب يعرف باسم «باب سوق الغزل» .

وكذلك تم الكشف على شبابيك قديمة للجامع محلاة بزخارف من الخشب ترجع إلى العصر الفاطمى .

وتبلغ مساحة هذا الجامع الآن ١٣٢٠٠ متراً مربعاً تقريباً ، وهو مكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة .

ولا يزال هذا الجامع العتيق قبلة أنظار كل ملوك مصر . وقد وجه الملك الراحل فؤاد الأول رحمه الله ، عنايته لهذا الجامع فأمر بإصلاحه وترميمه بحيث يبقى على شكله المعروف به منذ أقدم العصور التاريخية حتى الآن . وتابعه فى هذا العمل الجليل شبله العظيم مولانا الملك فاروق الأول أدامه الله وأبقاه .

وتحيط الآن بالجامع من الجهة الشمالية مقابر للمسلمين ، ومن الجهة القبلية مواقد (فواخير) لعمل الأوانى من الفخار، ومن الجهة الشرقية مدابغ ، ومن الجهة الغربية مقابر للمسيحيين ، وتهب على المصلين فى المسجد روائح كريهة مما يحوطه من جميع نواحيه .

ويروّع داخله اتساعه كما يروّعه تهدمه بمضى الزمان عليه ، فقد ذهبت كل أعمدته الجانبية وتكاد جدرانه تتهدم من فعل السنين . فقد مضى على تأسيس الجامع الأصلى فى هذا المكان ١٣٤١ سنة هجرية .

وخليق ببلدية القاهرة ، عند إنشائها قريباً إن شاء الله ، أن تأمر بوقف الدفن فى المقابر المحيطة بهذا الجامع ، وتحولها بالتدريج إلى متنزهات وحدائق .

خليق بها أن تأمر بنقل الفواخير والمدابغ المحيطة بأول جامع أنشىء بمصر الإسلامية إلى جهة أخرى .

ويا حبذا لو قررت إدارة المعاهد الدينية إنشاء كلية من كليات الجامعة الأزهرية فى هذا الجامع الذى طالما درس فيه العلماء الأجلاء وطالما علّم فيه الإمام الشافعى .

وبهذا يعود للجامع العتيق الأثرى العظيم مكانته وصفته الجامعية القديمة

خليج أمير المؤمنين

رغبة فى سرعة الاتصال ببلاد العرب اهتم عمرو بن العاص بإعادة حفر القناة القديمة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر ، والتى كانت تعرف قبل الفتح باسم خليج تراجان .

وكان خليج تراجان هذا يخرج من النيل إلى شمال بابليون بقليل . وكان فمه وقت فتح العرب لمصر واقعاً بشارع الخليج المصرى فى حذاء مدخل شارع بنى الأزرق بأرض جنينة لاظ الواقعة فى الجهة الغربية من جامع السيدة زينب بالقاهرة . وكان النيل فى ذلك الوقت يجرى فى المكان الذى فيه اليوم شارع بنى الأزرق وما فى امتداده جنوباً إلى قصر الشمع وما فى امتداده شمالا إلى قرية أم دنين .

فلما كان هذا الخليج يخرج من النيل فى هذا المكان فيمر بمدينة عين شمس ثم يسير فى وادى الطميلات إلى موضع بلدة القنطرة الحالية ثم ينحدر جنوباً حتى يتصل بالبحر الأحمر عند القلزم . وقد أهمل الروم أمره حتى سده الطين .

وكان أقدم عهداً من حكم تراجان و إنما سمى باسمه لأنه أعاد حفره وأصلحه كما فعل عمرو بن العاص فى عصر الفتح العربى .

وقد سبق لنا دراسة تطورات هذا الخليج فى الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١٨٧) فظهر أن فكرة إنشائه ترجع فى الأصل إلى انسحاب النيل المستمر إلى جهة الغرب مما هدد بالعطش العواصم القديمة التى كانت تقع على الضفة الشرقية للنهر مباشرة مثل عين شمس . فرأى المصريون — علاجاً لهذه الحالة — إنشاء قناة مكان المجرى القديم للنهر لتوصيل مياه النيل العذبة إلى هذه المدن ، ثم نقلوا فم هذه القناة إلى الغرب كلما أمعن النهر فى انسحابه غرباً .

وفى العصور التالية امتد هذا الخليج حتى اتصل بمكان ترعة الملوك القديمة (راجع تطورات هذه الترعة بكتاب منطقة قنال السويس من ص ١٢٣ إلى ص ١٣٤) .

وقد قامت الملكة حاتشبسوت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية من سنة (١٥٨٠ — ١٠٨٥) ق . م . بتسيير سفنها العظيمة إلى بلاد البونت (الأرتريا و بلاد الحبشة الحالية) فى أثناء حملة مصرية حربية على هذه البلاد لاستجلاب الذهب والبخور وسن الفيل منها . فسارت السفن المصرية من طيبة (الأقصر والكرنك) شمالا فى النيل ثم انحرفت فى سيرها وتابعت القناة التى حفرها ملوك مصر فى الدولة الوسطى بين النيل والبحر الأحمر مخترقة وادى الطميلات فى شرق الدلتا .

ويرجع تاريخ حفر هذه القناة إلى ملوك الدولة المصرية الوسطى ، حفرها الملك سنوسرت الثالث من ملوك الأسرة ١٢ الذى حكم من سنة ١٨٨٧ إلى سنة ١٨٤٩ ق . م . وهو الذى أطلق عليه اليونان اسم سيزوستريس لعظمة مشروعاته . وهكذا اتصل النيل بالبحر الأحمر لأول مرة فى التاريخ .

وقد أصلحت هذه القناة ونقل فمها فى عهد بطليموس الثانى فيلادلفوس الذى جعلها تنفصل من النيل عند فاقوس بعد أن كانت تنفصل عند بو بسطة . ثم أصلحت مرة أخرى فى عهد تراجان . وكان فمها إذ ذاك قد أصبح إلى شمال بابيلون كما قلنا سابقاً .

ولسنا نعرف الوقت الذى حفر فيه جزء هذه القناة الذى بين بو بسطة و بابيلون . على أن هذه الترعة لم تكن ذات غناء كبير ، لأن الماء لم يكن يجرى فيها إلا عند فيض النيل . ولما أهمل أمرها أصبحت من بعد القرن الثانى للميلاد غير صالحة لسير السفن . وكان لا بد للرمل أن يسدها بالسقوط فيها إذا ما قل تعهدها والاعتناء بأمرها .

وقيل إنها كانت فى عصر الفتح العربى خفية الأثر حتى احتاج عمرو إلى من يدله على موضعها من القبط فأجازه برفع الجزية عنه . ولكن سرعة حفرها و إعادتها إلى الصلاح تدلنا على أن بعض مجراها الذى طوله تسعون ميلا كان لا يزال صالحاً . على أن مثل ذلك الإسراع لم يكن عجيباً إذ كان يعمل فيها عدد عظيم من أهل البلاد ،

يساقون إلى ذلك كأنهم أرقاء ، يسوقهم من ورائهم مقدمون وخول على ما جرت به سنة أهل مصر منذ أقدم الأزمان . ويلوح لنا أن العرب لجأوا إلى هذه السخرة بشدة لم تعهد من قبل حتى لقد وصفهم (حنا النقيوسى) وصفاً شديداً وتناولهم بالقول القاذع فقال :

« وكان نيرهم على أهل مصر أشد وطأة من نير فرعون على بنى إسرائيل . ولقد انتقم الله منه انتقاماً عادلا بأن أغرقه فى البحر الأحمر بعد أن أرسل صنوف بلائه على الناس والحيوان . ونسأل الله إذا ما حل حسابه لهؤلاء المسلمين أن يأخذهم بما أخذ به فرعون من قبل » .

ولكن الظاهر أن هذه الشدة إنما جاءت عفواً فى وقت الفتح . ولم تكن صفة ثابتة لحكومة عمرو فى مصر .

وقيل إن عمراً كان ينوى حفر خليج بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض المتوسط ، فيكون بذلك قد قطع البرزخ بين البحرين كما هو اليوم . ولكن عمر بن الخطاب أبى عليه ذلك وأنكره قائلا إنه يمكن الروم من السير إلى البحر الأحمر وقطع السبيل على من أراد الحج .

أعاد إذن عمرو فتح خليج تراجان، وسماه خليج أمير المؤمنين (يعنى عمر بن الخطاب) ، وفرغ من ذلك فى ستة أشهر، وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز فى الشهر السابع محمّلة بالغلال والبضائع وأنواع الطعام لأهل الحرمين .

وما زال خليج أمير المؤمنين ينتفع به حتى زمن عمر بن عبد العزيز سنة ٧٢٣ م ، ثم أهملته الولاة وترك ، فغلب عليه الرمل وانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم أى عند بحيرة التمساح الحالية .

وقيل إن أبا جعفر المنصور أمر بردم هذا الجزء سنة ٧٣٥ م ، حين خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة ليقطع عنه الطعام . وكان قد قضى على حفره حوالى ٩٢ عاماً فقط بواسطة عمرو بن العاص .

وبعد هـذا التاريخ ظل الجزء الأول من الخليج موجوداً واستعمل فى تغذية مدينة القاهرة بمياه الشرب بطريقة الصهاريج الكبيرة تبنى تحت أرض المنازل وتخزن فيها المياه أيام الفيضان وتستعمل مياهها بعد ذلك طول العام .



الخليج المصرى كما كان سنة ١٨٧٠

واستعمل الخليج فى العصر التركى وعصر محمد على لرى أراضى الشرقية والقليوبية تحت أسماء مختلفة .

ففى العصر العربى عرف هذا الخليج باسم « خليج أمير المؤمنين » . و بعد إنشاء مدينة القاهرة عرف باسم « خليج القاهرة » . و بعد وفاة الحاكم بأمر الله الفاطمى أطلق عليه اسم « خليج الحاكمى » بدعوى أن الحاكم هو الذى حفره . ثم سمى أيضاً « خليج اللؤلؤة » نسبة إلى قصر اللؤلؤة الذى كان قائماً فى العصر الفاطمى فى المكان الموجود به الآن مدرسة الفرير بالخرنفش ، وكان يطل على الخليج وكان متنزها للخلفاء الفاطميين . وسمى أيضاً « خليج مصر » أو « الخليج المصرى » .

وكان الخليج المصرى يسير قليلا إلى الشرق ثم ينعطف إلى الشمال حتى نهاية مدينة القاهرة ، ثم يمر فى الأراضى الزراعية إلى أن يلتقى بالترعة الاسماعيلية عند العباسة بمديرية الشرقية ، ثم يسير الخليج شرقاً إلى مدينة الاسماعيلية ومنها إلى السويس حيث البحر الأحمر .

وفى سنة ١٨٩٩ تم ردم الجزء الواقع من الخليج داخل مدينة القاهرة وحل محله الآن شارع الخليج المصرى الذى سنتكلم عنه فى مكان آخر .

دار الصناعة

كان لبناء المراكب عدة دور ينشأ فيها الأسطول والسفن الأخرى الخاصة بأعمال الدولة و يسمونها دور الصناعة .

فأول دار للصناعة أنشئت بالفسطاط كان مقرها جزيرة الروضة على ساحلها الجنوبى الشرقى .

قال الكندى إنها أنشئت سنة ٥٤ هـ (٦٧٣ م) وكانت تبنى فيها السفن حتى أيام ابن طولون . وقد أحرقت فى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٤ م) ، أحرقها أسطول محمد بن طغج الأخشيدى . فلما ولى الملك ورأى أن وجود دار الصناعة على شاطىء الروضة خطر على الفسطاط نقلها إليها فى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) وأقامها مكان بستان الطواشى قال المقريزى :

« إن البستان الذى قامت على أرضه دار الصناعة هو بستان الطواشى ، وهو فى أول مراغة مصر حذاء غيط الجرف على يسار الذاهب من المراغة إلى باب مصر » .

ولما كان ساحل النيل فى ذاك الوقت ينتهى إلى الطريق الذى يمر فيه اليوم شارع الديورة شرقى فم الخليج حيث كان النيل يجرى فى عهد الدولة الأخشيدية تحت ذلك الشارع ، فلا بد أن يكون مكان هذه الدار فى المنطقة الواقعة هناك إلى جنوب مجرى العيون والمعروفة الآن باسم عشش الجيارة .

على أنه يظهر أن دار الصناعة فى عهد الأخشيديين لم تنتقل بأكملها إلى الشاطىء الأيمن للنيل بل بقى بعضها فى جزيرة الروضة يبنى بها الأسطول ، بدليل اتفاق المؤرخين على القول بأنه كان هناك داران للصناعة فى عهد الفاطميين إحداهما فى الروضة والأخرى فى الفسطاط .

وبدليل ما ذكره التاريخ من أن الظاهر بيبرس أنشأ فى الروضة أسطولا كاملاً ليعوّض به ما دمره له الصليبيون فى معركة جزيرة قبرص .

وفى أول حكم الدولة الفاطمية أنشئت دار للصناعة بالمقس حيث كان النيل يجرى مكان ميدان محطة مصر الحالى بجوار جامع أولاد عنان ، فأصبح عدد الدور التى تنشأ فيها مراكب الدولة فى عهد الفاطميين ثلاثاً . وكانت دار الصناعة بالفسطاط منذ إنشائها فى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) أكبر هذه الدور وأكثرها إنتاجا .

ولما طرح البحر وتكونت أرض جديدة بين شارع الديورة وساحل النيل الحالى بفم الخليج ، نقلت دار الصناعة إلى ساحل مصر تجاه دار النحاس (دير النحاس) واستقرت بها مدة طويلة إلى أن نقلت إلى ساحل بولاق فى عهد محمد على باشا الكبير باسم الترسانة . ولم تزل فى ساحل بولاق إلى اليوم وتعرف باسم إدارة الورش الأميرية ، وهى من الادارات التابعة لمصلحة الميكانيكا والكهرباء بوزارة الأشغال العمومية .

ميناء الفسطاط :

لم يمض زمن طويل على تأسيس الفسطاط ، حتى غدت ميناء عظيمة على النيل ، بل أعظم ميناء فى مصر كلها . استمرت فيها حركة الوارد والصادر حتى فى الأيام التى زاحمتها القاهرة فأربت عليها . وفى أواخر أيام الأيوبيين زارها ابن سعيد المغربى ، فاندهش من حركتها حيث يقول : « ثم انفصلنا من هنالك (يعنى نزل بميناء الفسطاط) إلى ساحل النيل ، فرأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف ، ولا متسع الساحة ، ولا مستقيم الاستطالة ، ولا عليه سور أبيض ، إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار الأرض والنيل . ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فانى أقول حقاً . والنيل هنالك ضيق ، لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته ، قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط . وبحسن سورها المبيض الشامخ ، حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل . . . إلى أن قال :

أما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندرانى ، والبحر الحجازى فانه فوق ما يوصف . وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ومنها تجهز إلى القاهرة وسائر البلاد . . . » .

وغنى عن البيان أن الجزيرة التى ذكرها ابن سعيد فى الجملة الأولى إنما يقصد بها جزيرة الروضة التى بنى بها السلطان الصالح أيوب قلعة لجيوشه من المماليك البحرية .

ومن عبارات المؤرخين يعلم أن المراكب كانت ترسو فى الميناء فى أماكن معينة لها حسب شحنتها . فمثلا المراكب المشحونة بالحبوب كانت ترسو فى موردة الحلفاء من الساحل . والمراكب المشحونة بالأخشاب كانت

ترسو فى الناحية المخصصة لبناء المراكب أو لأشغال النجارة . ومراكب الصيد كانت ترسو فى موردة السمك التى كانت تعرف غالباً باسم ساحل البورى . والبورى نوع معروف من السمك .

القرافة :

كان لا بد لمدينة الفسطاط فوق مسجدها ومنازلها وحماماتها أن يكون لها مقبرة . وقد جعلت بأرض المقوقس عند سفح الجبل . ودفن فيها عمرو بن العاص وأربعة من الصحابة . وكانت تمتد فيما بين مصلى خولان إلى المعافر . وخصص فى جنوب هذه المقبرة جهة لدفن موتى الأقباط . وظلت مستعملة حتى العصر الفاطمى حيث أخذ الخلفاء الفاطميون يدفنون موتاهم فى تربة الزعفران من القصر الكبير ومكانها الآن خان الخليلى . أما الشعب فأبى نقل مقابره من مكانها وظل يدفن موتاه فى جبانة الفسطاط .

ولما اضمحلت الفسطاط بعد تأسيس مدينة القاهرة كانت حدود المقابر تمتد حتى طغت على مساكن خطة المعافر التى خلت من ساكنيها وعلى مساكن خطة بنى قرافة التى هى فرع من الأولى . ومن هنا أطلق اسم القرافة على المدافن بتلك الجهة أولا ، ثم عم سائر المدافن . وعرفت باسم القرافة الكبرى .

وفى عهد الأيوبيين ، أنشئت حول تربة الإمام الشافعى ، جملة قبور أطلق على مجموعها اسم القرافة الصغرى ، وقل الدفن فى القرافة الكبرى ، إلى أن عاد إليها على أيام الناصر بن قلاوون .

وبعد سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) أخذوا يدفنون الموتى تحت المقطم فيما يلى قلعة الجبل .

وبعدئذ انتشرت القرافات فى شرق القاهرة وفى شمالها .

خندق القرافة :

وفى القرن الأول للهجرة حفر حول القرافة خندق وذلك لأن عامل ابن الزبير على مصر ، لما خشى أن يأخذه مروان على غرة فى عاصمة ولايته ، أمر فى سنة ٦٥ هـ بحفر على الفسطاط خندق .

وكان هذا الخندق يبتدئ من المكان الذى دفن فيه فيما بعد الإمام الشافعى ويخترق أرض القرافة إلى بركة الحبش .

وفى سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) كان هذا الخندق قد طمى ، فأعيد حفره عند وقوع الشقاق بين الأمين والمأمون ولدى الرشيد .

وقد ذكر ابن زولاق أن هذا الخندق جدد حفره على يد جوهر القائد سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠ م) خشية من القرامطة الذين كانوا يكثرون الغارة على مصر .

هذه هى أهم معالم الفسطاط القديمة وما أصبحت عليه الآن .

الفصل السابع

مدينة العسكر

قلنا إن رجال العباسيين لم يرضوا بالسكنى فى الفسطاط بعد أن عبثوا بالمدينة ونهبوا مساكنها وفتكوا بأهلها بل قرروا إنشاء عاصمة أخرى جديدة لدولتهم فى مصر .

وكانت الفكرة فى إنشاء العاصمة الجديدة هى أولا السعى وراء الهواء النقى جهة الشمال وثانيا الإشراف من فوق مرتفعات زين العابدين الحالية على مدينة الفسطاط وثالثاً متابعة تنقلات رأس الدالتا من الجنوب إلى الشمال حتى تسهل دائماً السيطرة على مدن الوجهين القبلى والبحرى وسرعة التمكن من إرسال الجنود فى أفرع النيل المختلفة إلى أى جهة من هذه البلاد .

صدر الأمر إذن إلى صالح بن على الوالى الجديد على مصر عن قبل العباسيين بالتخلى عن دار الأمارة بالفسطاط و ببناء الحاضرة الجديدة لدولة العباسيين بمصر ، فأقامها حيث كان معسكره إلى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط فى مكان عرف فى صدر الإسلام باسم الحمراء .

وقد نزلت به ثلاث قبائل عقب الفتح الإسلامى وهى بنو الأزرق وبنو ربيل من قبائل الروم واليهود الذين اعتنقوا الإسلام وحاربوا مع جيوش عمرو وبنو يشكر بن جديله وهى من قبائل العرب التى سمى جبل يشكر حيث يقوم جامع ابن طولون الآن باسمها . ثم دثرت خطط هذه القبائل بعد العمارة وصارت صحراء وأصبح مكانها قفراً .

فى هذا المكان بنيت مدينة العسكر سنة ١٣٣ هـ أو سنة ٧٥٠ م .

قال ابن عبد الحكم : « أصل العسكر المعسكر » .

وكان العسكر يحده جنوبا كوم الجارح حيث تمتد الآن حائط المجرى (العيون) ، وشمالا خط بعضه شارع الخليج المصرى و بعضه ميدان السيدة زينب و بعضه شارع مراسينا إلى جامع الجاولى ، وشرقاً خط يبدأ بجوار الجامع الجاولى و يمر بشارع الأشرف إلى السيدة نفيسة ، وغرباً شارع الخليج المصرى من قنطرة السد أمام دير مار مينا بميدان الطيبى إلى جنينة لاظ .

فى هذا المكان أقام العباسيون عاصمتهم و بنى صالح بن على دار الأمارة وثكنات الجنود ثم بنى الفضل بن صالح ابن على مسجد العساكر كما ذكر المقريزى .

ولم تمض سنة واحدة حتى انتشر العمار فى العسكر ، و بعد قليل اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحت مدينة كبيرة فيها الشوارع والدور والبساتين والأسواق .

وظلت العسكر عاصمة الديار المصرية لمدة ١١٨ سنة من سنة ٥٧٠ م إلى ٨٦٨ م وحكم بها الخمسة والستون والياً المبينة أسماؤهم بعد من قبل الخلفاء العباسيين ببغداد وهم :

١ — الأمير صالح بن على سنة ١٣٣ هـ
٢ — » أبو عون » ١٣٧ هـ
٣ — » موسى بن كعب » ١٤١ هـ
٤ — » محمد بن الاشعث » ١٤١ هـ
٥ — » حميد بن قحطبة » ١٤٣ هـ
٦ — » يزيد بن حاتم » ١٤٤ هـ
٧ — » عبد الله بن عبدالرحمن » ١٥٢ هـ
٨ — » محمد بن عبد الرحمن » ١٥٥ هـ
٩ — » موسى بن على » ١٥٥ هـ
١٠ — » عيسى بن لقمان » ١٦١ هـ
١١ — » واضح المنصورى » ١٦٢ هـ
١٢ — » منصور بن يزيد » ١٦٢ هـ
١٣ — » يحيى بن داود » ١٦٢ هـ
١٤ — » سالم بن سواده » ١٦٤ هـ
١٥ — » ابراهيم بن صالح » ١٦٥ هـ
١٦ — » موسى بن مصعب » ١٦٧ هـ
١٧ — » عسامة بن عمر » ١٦٨ هـ
١٨ — » الفضل بن صالح » ١٦٩ هـ
١٩ — » على بن سليمان » ١٦٩ هـ
٢٠ — » موسى بن عيسى » ١٧١ هـ
٢١ — » مسلمة بن يحيى » ١٧٢ هـ
٢٢ — » محمد بن زهير » ١٧٣ هـ
٢٣ — » داود بن يزيد » ١٧٤ هـ
٢٤ — الأمير موسى بن عيسى (ثانياً) سنة ١٧٥ هـ
٢٥ — » ابراهيم بن صالح » » ١٧٦ هـ
٢٦ — » عبد الله بن المسيب » ١٧٦ هـ
٢٧ » اسحاق بن سليمان » ١٧٧ هـ
٢٨ — » هرثمة بن أعين » ١٧٨ هـ
٢٩ — » عبد الملك بن صالح » ١٧٨ هـ
٣٠ — » عبد الله بن المهدى » ١٧٩ هـ
٣١ — » موسى بن عيسى (ثالثاً) » ١٧٩ هـ
٣٢ — » عبدالله بن المهدى (ثانياً) » ١٨٠ هـ
٣٣ — » إسماعيل بن صالح » ١٨١ هـ
٣٤ — » إسماعيل بن موسى » ١٨٢ هـ
٣٥ — » الليث بن فضل » ١٨٢ هـ
٣٦ — » أحمد بن إسماعيل » ١٨٧ هـ
٣٧ — » عبد الله بن محمد العباسى » ١٨٩ هـ
٣٨ — » الحسين بن جميل » ١٩٠ هـ
٣٩ — » مالك بن دلهم » ١٩٢ هـ
٤٠ — » الحسن بن البجباح » ١٩٣ هـ
٤١ — » حاتم بن هرثمة » ١٩٤ هـ
٤٢ — » جابر بن الاشعث » ١٩٥ هـ
٤٣ — » عباد بن محمد » ١٩٦ هـ
٤٤ — » المطلب بن عبد الله » ١٩٧ هـ
٤٥ — » العباس بن موسى » ١٩٧ هـ
٤٦ — » المطلب بن عبدالله (ثانياً) » ١٩٩ هـ

٤٧ —	الأمير	السرى بن الحكم	سنة ٢٠٠ هـ	٦١ —	الأمير	على بن يحيى	سنة ٢٢٦ هـ
٤٨ —	«	سليمان بن غالب	« ٢٠١ هـ	٦٢ —	«	عيسى بن منصور (ثانياً)	« ٢٢٩ هـ
٤٩ —	«	السرى بن الحكم (ثانياً)	« ٢٠١ هـ	٦٣ —	«	هرثمة بن نصر	« ٢٣٣ هـ
٥٠ —	«	محمد بن السرى	« ٢٠٥ هـ	٦٤ —	«	حاتم بن هرثمة (ثانياً)	« ٢٣٤ هـ
٥١ —	«	عبيد الله بن السرى	« ٢٠٦ هـ	٦٥ —	«	على بن يحيى «	« ٢٣٤ هـ
٥٢ —	«	عبيد الله بن طاهر	« ٢١١ هـ	٦٦ —	«	اسحق بن يحيى	« ٢٣٥ هـ
٥٣ —	«	عمير بن الوليد	« ٢١٤ هـ	٦٧ —	«	عبد الواحد بن يحيى	« ٢٣٦ هـ
٥٤ —	«	عيسى بن يزيد	« ٢١٤ هـ	٦٨ —	«	عنبسة بن إسحاق	« ٢٣٨ هـ
٥٥ —	«	عبدويه بن جبلة	« ٢١٥ هـ	٦٩ —	«	يزيد بن عبد الله	« ٢٤٢ هـ
٥٦ —	«	عيسى بن منصور	« ٢١٦ هـ	٧٠ —	«	مزاحم بن خاقان	« ٢٥٣ هـ
٥٧ —	«	كيدر نصر بن عبد الله	« ٢١٧ هـ	٧١ —	«	أحمد بن مزاحم	« ٢٥٤ هـ
٥٨ —	«	المظفر بن كيدر	« ٢١٩ هـ	٧٢ —	«	ارخوز بن أولوغ طرخان	« ٢٥٤ هـ
٥٩ —	«	موسى بن أبى عباس	« ٢١٩ هـ	٧٣ —	«	أحمد بن طولون	« ٢٥٤ هـ
٦٠ —	«	مالك بن كيدر	« ٢٢٤ هـ				

ومما يجب ملاحظته أن بعض الولاة حكموا البلاد مرة ثانية وأحياناً مرة ثالثة فى فترات متقطعة فاذا أسقطنا الأسماء المكررة يكون عدد الولاة الذين حكموا بمدينة العسكر من قبل الخلفاء العباسيين ٦٥ والياً من سنة (١٣٣ — ٢٥٤) هـ أو من سنة (٧٥٠—٨٦٨) م أى لمدة ١٢١ سنة هجرية أو ١١٨ سنة ميلادية كما قلنا سابقاً .

وقد أقام الوالى حاتم بن هرثمه الذى حكم لأول مرة من سنة (١٩٤ — ١٩٥) هـ من قبل الخليفة الأمين محمد — القبة المعروفة باسم قبة الهواء حيث كان الأمراء يقضون وقتاً طويلا للترفيه عن أنفسهم فوق جبل المقطم وحيث بنى صلاح الدين قلعته العظيمة. كما أقام رجال الدولة وحكامها وقضاتها مساكنهم بمدينة العسكر الجديدة حول دار الأمارة ومسجد العسكر ولكن ذلك لم يؤثر فى مدينة الفسطاط التى ظلت محتفظة بالتجارة وظلت مركزاً زاهراً للصناعة .

ولم يبق من مدينة العسكر أى أثر، وذلك لأن الثورات الداخلية لم تقف بزوال الدولة الأموية ، بل كانت أكثر التهابا فى عهد العباسيين ، حتى أن الوالى العباسى «أبو صالح يحيى بن داود بن سرور» سنة (١٦٢ — ١٦٤) هـ وهو أول الولاة من العنصر التركى، وقد عرف بالشدة وقوة المراس وعظمة الهيبة، اضطر إلى أخذ الأهالى بالبطش والعنف لأن الكثيرين منهم تحولوا بسبب سوء الحكم إلى قطاع طرق لا يأمن المارة معهم على حياتهم وأموالهم . فأقام ابو صالح يحيى بينهم حراساً مسئولين عن الأمن وعن المتاع

ولقد بلغ من شدة ثقته بنفسه ونشاطه أن أمر بأن تظل أبواب المنازل والحوانيت والحانات بالفسطاط مفتوحة طول الليل ، فكان الناس ينشرون شباكا على أبواب منازلهم لتمنع دخول الكلاب إليها .

وفى عهد موسى بن مصعب الذى حكم من سنة (١٦٧ — ١٦٨) هـ ضوعفت الضرائب على أهالى الفسطاط فثاروا فى وجه الوالى و بلغ من شدة الثورة أن تغلب الأهالى على الوالى وقتلوه .

وتلا ذلك تغيير كبير فى نظام الحكم بمدينة العسكر ، إلا أن ذلك لم يقلل من فرض المكوس على المتاجر ودواب الحمل مما ترتب عليه رفض الأهالى دفع الضرائب المقررة وشق عصا الطاعة ثم انقلاب بعضهم إلى نهب المسافرين والماشية والعمل على امتداد لهيب الثورة إلى سائر بلاد الدولة العباسية .

وعلى أثر وفاة الرشيد ونشوب الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون عاد المصريون وغالبيتهم من القبط إلى ثورتهم القديمة لأن الأمين كان قد تحبب إلى بعض منهم وعهد ببعض الوظائف الكبرى إلى رؤساء بعض العشائر القبطية فضمن بذلك ولاءهم له حتى ثاروا فى وجه نائب المأمون عليهم وتغلبوا عليه وقتلوه .

ولكن ذلك لم يمنع المأمون من الفوز فى النهاية .

فلما استتب الأمر المأمون ، عين عبد الله بن طاهر والياً على مصر سنة (٢١١ — ٢١٤) هـ فاستطاع بحزمه وسداد رأيه أن يقف ثورات القبط عامة ويعيد الهدوء إلى ربوع القطر بأجمعه حتى أن المأمون أهداه خراج مصر البالغ ثلاثة آلاف ألف دينار (تقريباً مليون ونصف مليون جنيه مصرى) تقديراً لحسن صنيعه .

وعند ما نقل ابن طاهر إلى خراسان عاد القبط مرة أخرى إلى ثورتهم فكمنوا عند المطرية وانقضوا على الوالى الجديد « المعتصم » أخى الخليفة وأحرقوا أمتعته واختبأوا بمنازل الفسطاط ، ولكن المعتصم فتك بكثير من زعمائهم ونجح فى إخماد الثورة .

ثم قرر المأمون أن يحضر بنفسه إلى مصر ليقمع الثورات المتأججة التى لم تكن لتقف عند حد .

وعند وصول المأمون إلى مدينة العسكر فى ١٠ محرم سنة ٢٤٧ هـ (٨٣٢) م أرسل جيشاً تحت إمرة أحد القواد الأتراك لقمع الثورة . فأوقع جيش المأمون بالقبط وأحرق مساكنهم وسبى نساءهم وأطفالهم حتى فنى الكثيرون منهم . ومنذ ذلك التاريخ زاد عدد المسلمين على عدد القبط واستقر العرب فى القرى والمزارع بعد أن كانوا يلازمون المدن وخصوصاً الفسطاط والعسكر .

وشاهدت الفسطاط الكثير من مناظر تعذيب القبط والعسف بهم إذ كان منظر الرءوس المفصولة من أجساد أصحابها الزعماء من المشاهد العادية كل يوم . وكان الكثير منها يعلق على جدران جامع عمرو .

وظلت الثورة والشغب والمؤمرات والفتن الداخلية مستمرة فى البلاد جميعها . إلا أن ذلك كله لم يعرقل رفاهية العاصمة ، بل كان سبباً فى أثارة ضغائن الحكام ونزق بعضهم مما أدى إلى تعكير صفو أهالى البلاد كلهم .

وقد بدأت أهمية مدينة العسكر تقل تدريجاً منذ ما بنى أحمد بن طولون عاصمته الجديدة القطائع .

فصار يذكر اسم الفسطاط والقطائع وترك اسم العسكر فأصبحت كأنها لم تكن ، وإن كان أحمد بن طولون نفسه قد شيد فيها مارستانا عظيما بالقرب من بركة قارون التى بنى عليها كافور الأخشيدى فيما بعد داراً صرف فى بنائها مائة ألف دينار وسكنها .

وظل أمراء مصر يقيمون فى دار الأمارة بمدينة العسكر حتى انتقل أحمد بن طولون إلى قصره الذى شيده بجوار جامعه بالقطائع . ثم جاء جوهر الصقلى قائد جيوش المعز ، وبنى مدينة القاهرة . فأخذت مدينة العسكر فى الانحطاط حتى تخربت فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى على أثر المجاعة التى حدثت فى ذلك الحين وعرفت باسم « الشدة العظمى » .

ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وشرع يعمر القاهرة أخذ الناس فى نقل ما كان بالعسكر والقطائع من أنقاض المبانى حتى أتى على معظم ما فيهما وصار مكان هاتين الضاحيتين موحشاً مقفراً .

ولم يبق إلى الآن من العسكر والقطائع سوى جبل يشكر الذى بنى عليه جامع ابن طولون . أما الدور والمنازل والمساجد والأسواق والحمامات والبساتين والبركة العجيبة والمارستان فاندثرت وحتى مواقعها أصبحت محل شك .

وتخلفت عن مدينة العسكر ، تلك العاصمة العباسية ، تلال زين العابدين الواقعة إلى جنوب المدينة الحديثة . وهى وصمة فى جبين القاهرة الحالية عروس الشرق يتحتم على مجلسها البلدى ، بعد إنشائه قريباً إن شاء الله ، إزالتها ونقل ما بها من مدابغ ومصانع سماد عضوية إلى مكان آخر . ثم إعادة تخطيط موقعها تخطيطا يتناسب مع ما كان لهذا المكان من روعة وجمال .

وقد أدت الحفريات الحديثة التى قامت بها دار الآثار العربية فى تلال زينهم بجوار جامع أبو السعود إلى كشف بعض منازل مدينة العسكر القديمة وحماماتها .

ويجد الباحث هناك الآن ما يسمى « بالمنزل الطولونى » وهو منزل محتفظ إلى درجة كبيرة بتفاصيله المعمارية المهمة ، وتنم طريقة بنائه على أنه بنى فى عصر أحمد بن طولون وبنفس الطريقة التى بنى بها جامعه .

وبجوار هذا المنزل ، تجد ما يسمونه « الحمام الفاطمى » وهذا أيضاً حمام محتفظ بتفاصيله المعمارية احتفاظاً مدهشاً فترى فيه مكان بيت النار وطريقة وصول المياه الباردة من البئر المنقورة فى الصخر إلى مكان الدماسات القديمة وطريقة سير المياه الساخنة إلى أجزاء الحمام المختلفة .

وأعجب ما فى هذا الحمام هى صور النساء العاريات فى سقف قبة المغطس مما يثبت أن التصوير لم يكن محرّماً فى العصر العربى بل كان فناً ممتازاً يزدهر مع تقدم البلاد ويختفى فى عصور الانحطاط والتأخر ! !

الفصل الثامن

مدينـــة القطائع

فى غضون القرن الثالث الهجرى انقطع ما بين مصر ودولة بنى العباس من أسباب ، وانفصم ما كان يربط مصر بمركز الخلافة ببغداد من عرى الروابط . وتربع على عرش مصر إذ ذاك أحمد بن طولون الذى أنشأ لنفسه فى مصر دولة دانت لها الشام و بعض أقطار أخرى ، وخشى بأسها الخليفة العباسى الذى راض نفسه على الاعتراف بالدولة الطولونية فى مصر .

أحمد بن طولون

الأمير أبو العباس احمد بن طولون صاحب الديار المصرية والشامية قدم مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) نائباً عن الأمير « بكباك » فمين على الفسطاط وأسيوط وأسوان فتغلب بحسن تدبيره على من كان حوله . فعظم شأنه بينهم وخضعوا لسطوته .

ولما توفى « بكباك » وهبت مصر للأمير « ماجور » حمى ابن طولون أى والد زوجته فأبقاه فى منصبه .

وفى سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) قلده الخليفة المعتمد على الله العباسى الخراج على مصر والولاية على الثغور الشامية ، فكان لقسوة ابن طولون وسطوته خير أثر فى مصر فسادت السكينة البلاد ونمت ثروتها .
ثم نجح ابن طولون فى الاستيلاء على حكم مصر وجعله وراثياً فى أسرته ، وظلت البلاد خاضعة له ولذريته من بعده حوالى ٣٨ عاماً هجرياً تجلى فيها الترف والبذخ .

وتوفى احمد بن طولون إلى رحمة الله سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) وقبره مجهول الآن .

وكان محباً للعلم كثير الصدقات شغوفاً بالعمارة فقد أصلح منار الأسكندرية ومقياس النيل وأنشأ حصن جزيرة الروضة ومسجد التنور ومدينة القطائع والقصر والميدان وقناطر المياه والمارستان والجامع الكبير .

سياسته الداخلية والخارجية

وقد استأثر أحمد بن طولون بالحكم بعد أن أبعد « احمد بن المدبر » أمير المال عن منصبه بالطريقة الآتية :

أرسل إليه الخليفة المعتمد بن المتوكل يستحثه فى جمع الخراج فأجابه « لست أطيق ذلك والخراج فى يد غيرى ». فأحيل الخراج إليه وأصبحت جميع أعمال مصر الإدارية والعسكرية بيده ، وعزل ابن المدبر الذى خرج لسوريا.

وتغلب احمد بن طولون على مثيرى الفتن بمصر ، وأخضع ثلاث ثورات شبت فى البلاد ، ثم سار إلى الشام واحتلها ووصل بجيوشه إلى طرسوس والفرات وحارب جنود الخليفة وجنود الروم ووحد تحت سلطته امبراطوريه تمتد من برقة غربا إلى بلاد الروم شرقا ومن نهر الفرات إلى بلاد النوبة .

وسار أحمد بن طولون فى تنفيذ سياسته الداخلية بنفس الخطوات التى أتبعها فى تنفيذ سياسته الخارجية وهى سياسة الإصلاح والإنشاء والعمران .

كانت مدينة العسكر وقت وصول ابن طولون إلى مصر قد نمت وازدهرت لـكثرة ما شيد فيها من الأحياء العامرة والأسواق الرائجة والشوارع الجميلة والعمارات الفخمة . وكانت الطبقة الراقية من رؤساء الجيوش وولاة الأمور تقيم بها .

نزل ابن طولون فى أول الأمر فى بيت الأمارة بالعسكر وشرع بعد أن استتب له الأمر خارجياً وداخلياً فى بناء الاستحكامات وتحصين البلاد ثم أخذ يبحث عن مكان يتسع لجنوده وعبيده وأتباعه وأسلابه وتحفه ومهماته لأن العسكر كانت قد ضاقت عن أن تسع كل ذلك . فصعد إلى المقطم ونظر إلى ما حوله فرأى بين العسكر والجبل بقعة من الأرض مساحتها نحو ميل مربع لا شىء فيها من العمارة إلا بعض المدافن للمسيحيين واليهود فاختارها لإنشاء مدينته الجديدة وعاصمة مملـكته الناشئة وأمر بحرث المدافن وهدمها واختط فى موضعها مدينة « القطائع » .

موقع مدينة القطائع وخططها

وكانت جبانة المسيحيين واليهود فى عصر ابن طولون تقع بين الرميلة وجامع زين العابدين وكانت مساحتها نحو ميل مربع . وكانت هذه الجبانة تشغل الأماكن المعروفة الآن باسم ميدان محمد على وميدان صلاح الدين (قره ميدان سابقاً) والمساحة الواسعة الممتدة من هناك إلى ميدان المنشية .

وقد أزال ابن طولون هذه المقابر وأقام محلها قصره الـكبير .

قال المقريزى : « زالت آثار القطائع ، ولم يبق لها رسم يعرف وكان موضعها من قبة الهواء التى صار مكانها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون وهذا أشبه أن يكون طول القطائع وأما عرضها فإنه من أول الرميلة تحت القلعة إلى الموضع الذى يعرف اليوم بالأرض الصفراء عند مشهد الرأس الذى يقال له الآن زين العابدين . وكانت مساحة القطائع ميلا فى ميل ، وقبة الهواء كانت فى سطح الجرف الذى عليه قلعة الجبل ، وتحت قبة الهواء كان قصر ابن طولون . وموضع هذا القصر الميدان السلطانى الآن الذى تحت القلعة بالرميلة . وكان موضع سوق الخيل والحمير والبغال والجمال بستاناً ويجاورها الميدان الذى يعرف اليوم بالقبيبات . فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع

الذى أنشأه احمد بن طولون . و بحذاء الجامع دار الأمارة فى جهته القبلية ولها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير إلى جوار المحراب وهناك أيضاً دار الحرم » .

وقال الأمير جمال الدين أبى المحاسن يوسف :

« القطائع بمعنى الأطباق التى للمماليك السلطانية الآن وكانت كل قطيعة لطائفة تسمى بها . فكانت قطيعة تسمى قطيعة السودان وأخرى قطيعة الروم وثالثة قطيعة الفراشين ونحو ذلك .

وكانت كل قطيعة مخصصة لسكن جماعة ممن ذكرنا وهى بمنزلة الحارات اليوم .

و بعد أن اختط الأمير قصره وميدانه أمر أصحابه وغلمانه أن يختطوا لأنفسهم بيوتا . فاختطوا و بنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط التى بمصر القديمة » .

وقال القضاعى :

« وكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم . و بنى القواد مواضع متفرقة وعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة وعمرت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع وسميت أسواقها فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين ، وسوق العاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين » .

فإذا طبقنا هذه المعالم على حالة القاهرة الآن يتبين لنا أن مدينة القطائع كانت تحد من غرب بشارع السد ومن الجنوب بشارع الشيخ سليم بالبغالة ثم إلى قلعة الكبش ومنها بخط مفروض إلى ميدان صلاح الدين ومن شرق بميدان صلاح الدين وميدان المنشية ومن الشمال بشارع شيخون وشارع الصليبة والخضيرى ومراسينا إلى ميدان السيدة زينب .

قصر ابن طولون :

وسمى هذا القصر هو وملحقاته بالميدان . وكانت له أبواب لكل باب اسم وهى باب الميدان ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش ، وباب الصوالجة ، وباب الخاصة ولا تدخل منه إلا خاصة ابن طولون ، وباب الجبل لأنه مما يلى جبل المقطم ، وباب الحرم ولا يدخل منه إلا خادم خصى أو سيدة ، وباب الدرمون لأنه كان يجلس عنده حاجب أسود عظيم الخلقة ، وباب دعناج لأنه كان يجلس عنده حاجب يقال له دعناج ، وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج (التك) ، وباب الصلاة لأنه كان فى الشارع الأعظم ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون وعرف هذا الباب أيضا باسم باب السباع لأنه كان عليه صورة سبعَين من الجبس .

وكان الطريق الذى يخرج منه ابن طولون وهو الذى يعرّج منه على القصر طريقاً واسعاً فقطعه بحائط أنشأ فيه ثلاثة أبواب كبيرة كأقواس النصر وكانت متصلة بعضها ببعض واحداً بجانب الآخر .

وفى المواكب الرسمية كان الجيش يخرج بشكل متكاثف على ترتيب حسن ثم يخرج ابن طولون من الباب الأوسط بمفرده من غير أن يختلط به أحد من الناس .

وكانت الأبواب المذكورة تفتح كلها فى يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة وفيما عدا ذلك لا تفتح إلا بترتيب ونظام خاصين فى أوقات معينة .

وكان للقصر نوافذ تشرف على الأبواب .

ولما بنى هذا القصر والميدان وعظم أمره زادت صدقاته ورواتبه حتى بلغت صدقاته المرتبة فى الشهر ألفى دينار ، وهذا غير ما كان يزاد عليه وكان يقول :

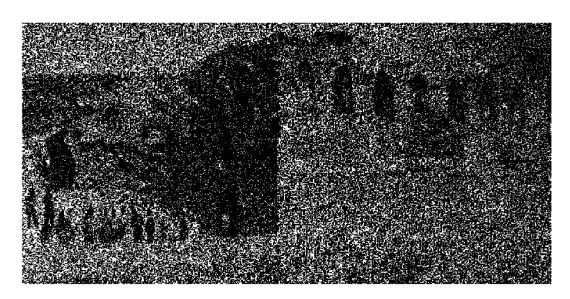
هذه صدقات الشكر على تجديد النعم . ثم جعل مطاعم للفقراء والمساكين فى كل يوم وكان يذبح فيها البقر والغنم ويفرق للناس فى القدور الفخار والقصع . ولكل قصعة أو قدر أربعة أرغفة . وكان فى الغالب يعمل سماط عظيم وينادى فى مصر : من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر . ويجلس هو بأعلى القصر ينظر إلى ذلك ويأمر بفتح جميع أبواب الميدان ينظرهم وهم يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته .

وكان السلطان يستطيع أن يرى من باب قصره العظيم وكان مقره المحبوب ، الفسطاط والنيل .

قناطر ابن طولون بقرية البساتين :

وكانت مياه القصر تستمد من بركة الحبش المتصلة بالنيل بخليج اسمه خليج بنى وائل . وكانت هذه البركة تقع بالصحراء القبلية عند قرية البساتين الحالية . ففوق المكان المعروف الآن بهذه الجهة باسم بير أم السلطان ومياهها الغائرة مستمدة من بركة الحبش أقام أحمد بن طولون السواقى والقناطر وبنى حائط مجرى المياه لتغذية القصر وتوابعه بالمياه العذبة الصالحة للشرب سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م)

ولا تزال آثار قناطر ابن طولون وحائط مجرى المياه ماثلة للآن بقرب قرية البساتين . وهى وإن كان الزمان قد اعتدى عليها فمحى كثيراً من عقودها إلا أنه أبقى على بعض عقودها المدببة المماثلة لعقود الجامع الطولونى كما أبقى على بعض أقبية وعقود البئر . وهى تدل على مقدار العناية بأبنية الآجر فى الدولة الطولونية . ويبدو ذلك جليا فى جمال عقود الطاقات الباقية بالوجهتين القبلية والغربية للبئر وفى الأقبية الداخلية . وقد تجلت الدقة فيها وفى تفنن الصانع فى بناء مفتاح هذه الأقبية . ومما يلاحظ أن حجم الآجر المستعمل فى بناء هذه القناطر ونوعه هو نفس الحجم والنوع المستعملان فى بناء جامع ابن طولون .



قناطر ابن طولون بقرية البساتين .
وكانت تقع على شاطىء بركة الحبش لرفع المياه إلى القصر وتوابعه .

تخطيط مدينة القطائع

وقد روعيت لأول مرة فى العهد الاسلامى ، عند تخطيط مدينة القطائع ، القواعد المقررة لتخطيط المدن التى وضعت فى القرن الخامس قبل الميلاد . فأنشىء الميدان فى وسطها وشغل ضلعى الميدان الشرقى والغربى بقصر الأمير وبالمسجد الجامع . أما ضلعا الميدان الشمالى والجنوبى فكانا يتقاطعان مع الشوارع على زوايا قائمة . ويعرف هذا التخطيط بمبدإ تغلب الخط المستقيم أى أن تكون شوارع المدينة مستقيمة ومتقاطعة على زوايا قائمة بشكل شبكة منتظمة .

وكان شكل المدينة فى بادىء الأمر مربعا ثم اتجه العمار فى السنين التالية إلى جهة الغرب وغدا شكلها مستطيلا.

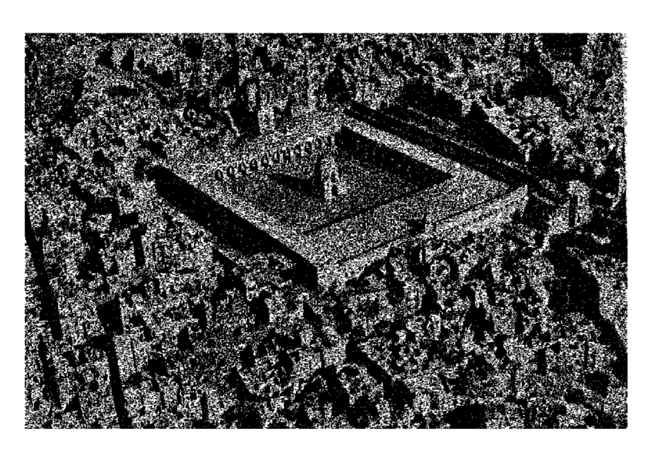
أما مساكن هذه المدينة ، ففى المنزل الطولونى الواقع فى أول مدينة القطائع من الجنوب والذى كشفت عنه دار الآثار العربية أنموذج حى لما كان عليه تخطيط منازل هذه المدينة وزخارفها وترجع كلها فى الأصل إلى نماذج مأخوذة من مدينة سامرا أو (سر من رأى) بالعراق وهذه ترجع بدورها إلى المدنية الأشورية والمدنية المصرية القديمة .

جامع ابن طولون

بعد أن فرغ ابن طولون من بناء القصر والميدان وجامع التنور الذى بناه على قمة جبل المقطم فى مكان وراء القلعة كان يدعى تنور فرعون . وكان هذا المكان من مخلفات العصر الفرعونى ، وبه مقبرة من مقابر العظماء وجد فيها ابن طولون آثارا ذهبية كثيرة وأمر عند ذلك ببناء الجامع هناك ودعاه جامع التنور .

أقول بعد أن فرغ إذن من هذه العمارات شرع فى بناء الجامع الطولونى العظيم الرابض فوق جبل يشكر منذ حوالى أحد عشر قرنا وكان ذلك سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) واستمر العمل سائراً فيه إلى أن تمت عمارته فى شهر رمضان سنة ٢٦٥ هـ (ابريل سنة ٨٧٨ م) وهو من أكبر المساجد حيث تبلغ مساحته مع الزيادات ستة أفدنة ونصف ، ووضع تصميمه على مثال المساجد الجامعة صحن كبير مكشوف تحيط به أروقة ذات عقود . وقد وصف الأستاذ المحقق حسن عبد الوهاب هذا الجامع وصفاً رائعاً جاء به :

هو على شكل مربع تقريباً ضلعه ١٦٢٫٥٠ × ١٦١٫٧٣ متراً يشغل منه المسجد مع جدرانه مستطيلا



جامع ابن طولون الرابض فوق جبل يشكر منذ حوالى أحد عشر قرنا وحوله مساكن هذا الحى

مساحته ١٧٢٤٣٫٨١ متراً مسطحاً ، ويتكون هذا المستطيل من صحن مكشوف مربع ٩٣٫٣٠ × ٩١٫٩٥ متر تحيط به أروقة من جوانبه الأربعة مساحتها مع الجدران ٨٧٥٦٫٨٣ متراً مربعاً .

ويحيط الجامع من جوانبه القبلية والبحرية والغربية أروقة غير مسقوفة تعرف بالزيادات مسطحها مع جدرانها ٩٠٣٧٫٣١ متراً مربعاً . وأسوار هذه الزيادات عالية تسودها البساطة فتحت فيها أبواب تقابل أبواب الجامع تتوجها من أعلى شرفة مفرغة كما فتحت بأسوار الجامع أبواب وشبابيك علوية بينها طاقات مخوصة تتوجها من

أعلى شرفات . وهى من أسوار الزيادة . وعدة أبواب الجامع ٢١ باباً بما فيها بابان صغيران فى الجدار الشرقى وذلك عدا أبواب الزيادة المقابلة لبعضها .

وكان كل باب من أبواب الجامع يقع أمام سوق من الأسواق التى كانت تحيط به حيث كانت التجارة رائجة حوله .

ويقع المحراب وسط الإيوان الشرقى وهو أكبر الإيوانات وأكثرها أروقة وأحفلها زخرفاً . وبه المنبر وبه تاريخ إنشاء الجامع وتوجد به محاريب أخرى فاطمية ومملوكية .

ويشتمل الإيوان الشرقى على خمسة أروقة أما باقى الإيوانات فيشتمل كل منها على رواقين فقط .

وهذه الأروقة مكونة من دعائم مبنية بالطوب مقاس كل دعامة منها ٢٫٥٠ × ١٫٣٠ متر مخلق فى نواصيها الأربع عمد ذات قواعد وتيجان تحمل عقوداً ستينية تظهر لثانى أو لثالث مرة فى العمارة الإسلامية بمصر حليت حافاتها بزخارف جصية نباتية مورقة . وقد لجأ المهندس إلى التخفيف عن ظهر العقود ففتح فيها شبابيك خلقت بأكتافها عمد رشيقة وحليت حافاتها بزخاف نباتية مورقة مختلفة .

واختيار المهندس لهذه الدعائم بدل العمد برهن على حسن ذوقه فقد تخلص بها من العمد الرخامية المختلسة من الكنائس والأديرة والمعابد القديمة وهى بطبيعة اختلاف مواردها غير متجانسة لا فى الطول ولا فى السمك ولا فى حليات التيجان ولا فى القواعد .

يحكى أن ابن طولون عقد النية على إقامة ثلاثمائة عمود من الرخام فى مسجده . فقيل له إن مثل هذا العدد لا يتيسر الحصول عليه ولو هدمت جميع الكنائس المسيحية بمصر . وكان بين مهندسى ذلك العصر المهندس المسيحى « ابن الكاتب الفرغانى » وكان مهندساً معمارياً بارعاً وقد أودع السجن لتهمة باطلة وجهت إليه . فلما بلغه ما اعتزم ابن طولون كتب إليه من السجن أنه قادر على إتمام مشروعه وأنه لا يحتاج فى ذلك إلى أكثر من عمودين يجعلهما عمودى القبلة . فاستحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه وطلب إليه أن يشرح له ذلك فرسم الجامع على الكيفية التى كانت فى ذهنه مقتبساً تصميمه من تصميم جوامع « سر من رأى » فأعجب ابن طولون وأمر بإطلاق سراحه وخلع عليه وجعل تحت أمره مائة ألف دينار وقال له : « أنفق وما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك » .

فبنى الفرغانى الجامع من الطوب ومونة الجير والرمل ولم يبن فيه بالحجر سوى منارته . والطوب المستعمل فى جامع ابن طولون من الآجر الغامق الجيد الحريق يبلغ مقاسه فى الغالب ١٨ × ٨ × ٤ سم وهو مبنى مداميك أديه وشناوى ولحاماته متسعة وقد بلغت تكاليفه مائة وعشرين ألف دينار أى حوالى ٦٣٫٠٠٠ جنيه مصرى .

و يعلو العقود أفريز زخرفى من الجص يعلوه إزار خشبى به كتابة بالخط الكوفى البارز يشمل سورة البقرة وآل عمران ثم السقف .

وفى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول رحمه الله قامت إدارة حفظ الآثار العربية بتجديد شامل لهذا الجامع القديم الذى أدخلت عليه تعديلات كثيرة فى عصور مختلفة لجدد بطريقة مبتكرة إذ عمل السقف بالأسمنت المسلح بتقاسيمه القديمة ثم غلف بالأخشاب القديمة والجديدة طبقاً للأصل القديم .

و يحيط بجدرانه الأربع من أعلى ١٣٠ شباكا من الجص مفرغة بأشكال هندسية مختلفة .

المحراب : يقوم بكل من جانبى هذا المحراب عمودان متلاصقان من الرخام يعلو كل اثنين منها تيجان من الرخام المفرغ دقيق الصنع من الطراز البيزنطى القديم كل اثنين منها متشابهان .

و بتجويف المحراب عصابة من الفسيفساء المذهبة كتب بها لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وهيكل المحراب بعمده من عهد ابن طولون إلا أن هذه الفسيفساء والكسوة الخشبية بطاقيته والقبة أعلاه من عمل المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) أما الكسوة الرخامية فأحدث عصراً من غيرها .

المنبر : يجاور المحراب منبر خشبى جميل اتخذت حشواته من الساج الهندى (خشب التك) والأبنوس ودقت بالأويمة الدقيقة وهو ليس بالمنبر القديم للجامع بل من عمل الملك لاجين المنصورى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وكاد الزمن يفقد المنبر لولا عناية لجنة حفظ الآثار العربية التى جمعت بقاياه من المتاحف وكملته على مثالها .

أما الملك المنصور حسام الدين والدنيا لاجين المنصورى أحد ملوك مصر فى نهاية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فهو الذى قام بعمارة كبيرة بالجامع تناولت إصلاحه وإصلاح شبابيكه وعمل القبة أعلى المحراب والمنبر والقبة بوسط الصحن والسبيل الذى جدده فيما بعد السلطان قايتباى بالزيادة القبلية وكذا قمة المنارة وذلك وفاء لنذر نذره لتعمير هذا الجامع حينما اختفى فيه وهو خرب فى فتنة الأشرف خليل بن المنصور قلاوون .

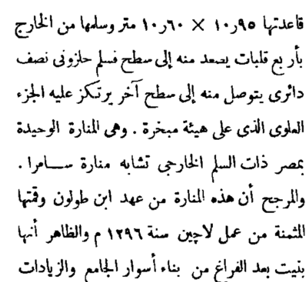
دار الإمارة : بنى ابن طولون داراً جديدة للأمارة تلاصق الجامع من الجهة الشرقية الجنوبية . وكان على يمين المنبر باب يؤدى إلى هذه الدار . وقد أسسها ابن طولون بالمفروشات والستور وكانت مخصصة لنزوله حينما يذهب لصلاة الجمعة فيجلس فيها ويجدد وضوءه ثم يدخل منها إلى مقصورته بالمسجد .

ولقد ذهبت هذه الدار ولم يبق منها سوى بقايا سقف كان بشكل رأس فيل بنابيه وهى طرفة نادرة .

القبة وسط الصحن : هذه هى ثالث قبة فقد احترقت الأولى وهى لابن طولون سنة ٣٧٦ هـ سنة (٩٨٦ م) وكانت قائمة على عمد رخامية — وهدمت الثانية وهى التى أنشأها العزيز بالله الخليفة الفاطمى سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) وقيل أمه تعزيد — وحلت محلها القبة القائمة الآن التى أنشأها المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م)

وهى قبة كبيرة مقاس كل من ضلعيها الشمالى والجنوبى ١٢٫٧٥ متر والشرقى والغربى ١٤٫١٠ متر محمولة على أربعة عقود كانت شبابيكها محلاة من الخارج بزخارف وكتابات كوفية . وبرقبتها من الداخل طراز جصى مكتوب فيه آية الوضوء يتوسطها فسقية ويسترعى النظر فيها وجود سلم فى سمك جدارها يوصل إلى سطح قاعدتها المربعة .

المنارة : أقيمت المنارة فى الزيادة الغربية خلف حائط الزيادة على مسافة ٤٠ سم وهى مبنية بالحجر مقاس قاعدتها ١٠٫٩٥ × ١٠٫٦٠ متر وسلمها من الخارج بأربع قلبات يصعد منه إلى سطح فسلم حلزونى نصف دائرى يتوصل منه إلى سطح آخر يرتكز عليه الجزء العلوى الذى على هيئة مبخرة . وهى المنارة الوحيدة بمصر ذات السلم الخارجى تشابه منارة سامرا . والمرجح أن هذه المنارة من عهد ابن طولون وقمتها المثمنة من عمل لاچين سنة ١٢٩٦ م والظاهر أنها بنيت بعد الفراغ من بناء أسوار الجامع والزيادات التى هى جزء منه ومبنية معه .





منظر جامع ابن طولون وترى فيه تفاصيل المنارة وقبة الصحن

ويبدو لى أن هذه المنارة مقتبسة من منارة الإسكندرية الشهيرة مع بعض التحوير القليل فقاعدتها المربعة التى يعلوها سطح ثم الدور الثانى المثمن الاضلاع والدور الثالث المستدير والسلم الخارجى كل هذه من معالم منارة الاسكندرية القديمة . ومن المعروف أن ابن طولون رمم منارة الاسكندرية سنة ٢٥٩ هـ (٨٦٩ م) فلا يبعد أن يكون قد أمر باقتباس تصميم هذه المنارة عند بناء منارة جامعة ! !

الأساس : قلنا إن الجامع الطولونى أقيم على جبل يشكر ولذلك فإننا نجد أساسه فى الجهة القبلية على الصخر مباشرة بينما نجد أن هذا الأساس ينزل فى الجهة البحرية إلى عمق خمسة أمتار حتى يصل إلى الصخر أيضاً

أعمال الإصلاح : أقيمت بالجامع إصلاحات فى عصوره المختلفة منها عمارة بدر الجمالى الوزير الفاطمى سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧م) وهى مثبتة فى لوح رخامى فوق أحد أبواب الزيادة البحرية . ثم عمارة الحافظ لدين الله سنة ٥٢٦ هـ (١١٣٢ م) . ثم عمارة حسام الدين لاچين المنصورى وهى أكبر عمارة أجريت به عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وفى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) جدد القاضى كريم الدين مئذنتين على طرفى الوجهة الشرقية وقد هدمتا .

أما بداية أفول نجم الجامع فقد كانت فى أيام محمد بك أبى الذهب فإنه ما كاد يلى الأمارة بمصر حتى أنشأ به مصنعاً لعمل الأحرمة الصوفية .

وما حلت سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) حتى حوّله كلوت بك إلى ملجأ للعجزة ، وظل كذلك إلى سنة ١٨٨٢ م حتى تألفت لجنة حفظ الآثار العربية ففكرت فى انتشاله من وهدته .

وفى سنة ١٩١٨ أمر المغفور له الملك فؤاد الأول بإصلاح الجامع إصلاحا شاملا ونزع ملكية ما حول من أبنية فأخليت الوجهة القبلية وأجزاء الشرقية وأجريت به إصلاحات كثيرة كبيرة فتح لها اعتماد قدره ٤٠ ألفاً من الجنيهات خلاف الاعتمادات اللازمة لإزالة ما أحاط به من الأبنية وإنشاء الميادين الفسيحة حوله حتى يعود إلى سابق بهجته ورونقه .

أعمال أخرى لابن طولون : وأمر ابن طولون ببناء المستشفى (المارستان) فى مدينة العسكر . وبلغت تكاليفه ستين ألف دينار . وبنى حصناً بجزيرة الروضة سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) لا أثر له الآن . ورمم منارة الإسكندرية .

مارستان ابن طولون : قال جامع السيرة الطولونية : « بنى احمد بن طولون المارستان ولم يكن بمصر مارستان . ولما فرغ منه حبس عليه دار الديوان ودورة فى الأساكفة وسوق الرقيق . وشرط فى المارستان ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك . وعمل حمامين للمارستان أحدهما للرجال والآخر للنساء . وشرط إنه إذا جيء بالعليل تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان ثم يلبس ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ . فإذا أكل فروجا ورغيفاً (أى إذا شفى واستطاع أن يأكل الطعام العادى الذى يأكله الأصحاء) أمر بالانصراف وأعطى ماله وثيابه .

وكان ابن طولون يركب بنفسه فى كل يوم جمعة ويتفقد خزائن المارستان وما فيها وينظر إلى المرضى وسائر الأعلاء والمحبوسين من المجانين . فدخل مرة حتى وقف بالمجانين فناداه واحد منهم مغلول وقال : « أيها الأمير اسمع كلامى ما أنا بمجنون وإنما عملت علىّ حيلة وأشتهى أكل رمانة أكبر ما يكون » . فأمر له بها من ساعته ففرح بها وهزها فى يده لينظر ما ثقلها ثم غافل الأمير احمد بن طولون ورمى بها فى صدره . فنضحت على ثيابه ولو تمكنت منه لأتت على صدره . فأمرهم أن يحتفظوا به . ثم لم يعاود بعد ذلك النظر فى المارستان . »

خمارويه بن احمد ابن طولون

ومات أحمد بن طولون بعد حكم دام ١٦ سنة وعمره حوالى خمسين عاما وكانت وفاته سنة ٢٧٠ هـ (مايو سنة ٨٨٤ م) . وقد خلف ٣٣ ولداً منهم ١٧ ذكراً منهم خمارويه بن احمد بن طولون الذى ولى العرش بعد أبيه وبويع فى يوم الأحد ١٠ ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ وكان أول عمل له هو قتل أخيه العباس لامتناعه عن مبايعته

ولم يشأ خمارويه أن يجعل مركز حكومته فى الفسطاط كما فعل أبوه فجعلها فى القطائع ثم أدخل على قصر أبيه تحسينات كثيرة وحول الميدان المجاور للجامع إلى بستان فيه من الأشجار النادرة والزهور العاطرة ما يدهش الألباب . وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً دقيق الصنع وجعل بين النحاس وأجسام النخيل ميازيب من الرصاص وأجرى فيها الماء فكان يبدو النخيل ، والماء ينفجر من تضاعيف جسمه وينحدر إلى المساقى حتى يفيض منها ثم يندفع فى قنوات منسقة تنسيقاً جميلا لرى سائر البستان ، كأنه نوافير سماوية تستقى منها جنات النعيم . وكان هناك اخصائى يتعهد أشجار ونباتات هذا البستان بالمقاريض ويرسم منها نقوشاً وكتابات بارزة غاية فى الجمال والتنسيق .

وقد أقام خمارويه فى البستان برجا فسيحاً جميلا هائلا من خشب التك المطعم بسن الفيل والعاج وقسمه أقساما كالأقفاص وبلط أرضه وجعل فيها الماء يجرى أنهاراً ثم اطلق فى هذا البرج الطواويس ودجاج الحبش والطيور ذوات الأصوات الرخيمة وجعل لها أوكاراً فى قواديس ممكنة فى جوف الحيطان لتفرخ فيها وجعل لها عيداناً مثبتة فى الجوانب لتقف عليها . فكانت هذه الطيور تغتسل فى مياه الأنهر وتتصايح وتسرح فى جنبات الكشك .

وفى هذا الكشك أقام خمارويه لنفسه مجلساً سماه دار الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد وجعل فوق الحيطان إزاراً من الخشب إرتفاعها قامة ونصف قامة بها صور بارزة معمولة على صورته وصور محظياته ومغنياته وعقد على رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة وحلى أذانهن بالأقراط الثقال ولونت أجسامهن بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة .

وبعد ذلك أنشأ فى وسط القصر بركة من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وعرضها خمسون ذراعاً وجعل فى أركان البركة سككا من فضة وجعل فى السكك زنابير من حرير محكمة الصنع فى حلق من فضة .

وعمل فراشاً من جلد ينفخ بالهواء فيحكم شده ، ويلقى على البركة ويشد بالزنابير الحرير التى فى حلق الفضة . وينزل خمارويه فينام على هذا الفراش فلا يزال الفراش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق حتى يغط خمارويه فى نومه وينام نوما عميقاً بينما كان أسده الأزرق العينين «زريق» يسهر عليه ويحرسه .

وكان منظر انعكاس ضوء القمر على بركة الزئبق ليلا من أعجب المناظر فى العالم .

وبنى خماويه فى القصر أيضاً قبة تضاهى قبة الهواء سماها «الدكة» وجعل لها ستوراً تقيه الحر والبرد وتسدل حيث يشاء وترفع حيث يشاء .

ومن هذه القبة كان خمارويه يشرف على جميع ما فى داره كما كان يشرف على الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة .

ثم بنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه .

وكان هنالك جوسق شيده أبوه كان خمارويه يجلس فيه إلى المائدة مع حريمه يحيط به الموسيقيون ويرتل فيه الرجال ذوو الأصوات الشجية آى القرآن الحكيم ويؤذنون بالفجر وينشدون الأغانى الدينية البهيجة والحزينة تباعا.

وأقام أيضاً خمارويه فى نطاق مدينته حدائق للحيوان وبنى فيها دوراً للسباع لها أبواب منزلقة تفتح من أعلى لإدخال الطعام وتنظيفها. وقد جمع خمارويه فى هـذه الحدائق كل أصناف الحيوان من أسود ولبوات وفهود وزرافات وفيلة ونمور.

وقال القضاعى يصف خيول خمارويه واسطبلاته:

« وكان عرض الخيل من عجائب الإسلام الأربع، وهى: عرض الخيل بمصر، ورمضان بمكة، والعيد بطرسوس، والجمعة ببغداد ».

ثم قال: « وقد ذهب اثنان من الأربع وهما: عرض الخيل بمصر والعيد بطرسوس ».

وكانت اسطبلات خمارويه منتشرة فى الجيزة وناهيا ووسيم وسفط وطهرمس. وكانت لها ضياع لا تزرع إلا القرطم لأجل الدواب.

وكانت مطابخه عنواناً للبذخ إذ كان ينفق عليها شهرياً مبلغ ١٢٫٠٠٠ دينار. وكان لكل خادم من خدمه العديدين الشىء الكثير من الدجاج ولحم الضأن والحلوى والقطع الكبار من الفالوذج والقطائف والمبرات وسواها.

ولما تزوج الخليفة العباسى المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه، كان جهازها مما لم تره عين ولم تسمع به أذن، وكان مهرها من عجائب المهور، فمن جملته مائة هاون من الذهب بل قيل ألف هاون. وبنى لها أبوها قصراً على رأس كل مرحلة تنزل بها فى الطريق وذلك فيما بين مصر وبغداد.

وقد خرجت العباسة بنت أحمد بن طولون لتوديع بنت أخيها فضربت خيامها عند البلدة الواقعة فى مدخل وادى الطميلات والتى عرفت من ذلك الوقت باسم بلدة العباسة وقد تألق نجمها فى عهد الطولونيين وكانت موضع اهتمامهم. وأقامت العباسة مع وصيفاتها وصديقاتها مدة على أرض تلك القرية لتلقى نظرة الوداع على سفيرة مصر لدى قصر الخليفة.

وبعد وفاة خمارويه بسنين قلائل زالت كل هذه المظاهر العظيمة ولم يبق منها سوى آثار قليلة من بركة الزئبق.

وكانت وفاة خمارويه قتلا فى فراشه سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٦م) بيد حاشيته وسيدات حرمه أثناء إقامته بدمشق بعد أن حكم ١٢ سنة و١٨ يوما، وحملت جثته إلى مصر ودفنت باحتفال عظيم. ولم ينقذه من الموت لا أسده الأزرق العينين « زريق » ولا حرسه الخاص من شبان العرب الأقوياء. فسبحان من له البقاء.

نهاية حكم الطولونيين

و بعد وفاة خمارويه ولي مصر ابنه أبو العساكر جيش ، فرأى فيه فقهاء المسلمين وقضاتهم سفاكا للدماء لسفكه دم عمه مضر بن أحمد بن طولون فأفتوا بعزله وخلفه شقيقه « هرون » وكان إذ ذاك حدثا لا يصلح للولاية فجاء ضغثاً على إبالة حتى طمع القرامطة فى بلاد الشام ولم يقو على صدهم مما يدل على مدى الضعف الذى تردى فيه القطر المصرى على يد أحفاد ابن طولون حتى ازور وجه الزمن عن الملوك الطولونيين . ووقف الخليفة العباسى «المكتفى» فى بغداد على جلية الأمر فى مصر فأرسل أسطولا بقيادة محمد بن سليمان ليعيد مصر من جديد إلى حكم الدولة العباسية . ولقد أصاب أسطول العباسيين نجاحاً يذكر على أسطول مصر عند بلدة «صان الحجر» وتحطم الأسطول المصرى إلى آخره .

ولما بلغ أمر تلك الهزيمة مسامع الأمير الطولونى « هرون » فر هارباً إلى بلدة العباسة حيث لقى حتفه على يد عمه « شيبان » الذى خلفه على ولاية مصر .

ولم يلبث «شيبان» طويلا فى ولاية مصر حتى أجلاه عنها محمد بن سليمان فزالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر ٣٨ عاماً عادت بعدها إلى حظيرة الدولة العباسية .

مصر تحت حكم العباسيين للمرة الثانية

وأخذت مصر ترزح تحت حكم الفوضى والاضطراب ثلاثين سنة أخرى بعد نهاية حكم الطولونيين . وليس أدل على ما أصاب مصر من فوضى شاملة بعد زوال حكم الطولونيين من ظهور جندى شاب من جنود الطولونيين يدعى « محمد بن على الخلنجى » وكان قد نقل من مصر إلى الشام مع فلول الطولونيين وأتباعهم ، ثم أتيحت له الفرصة للعودة إلى مصر فاستولى فى طريقه على الرملة ودعا على منابرها للخليفة ثم للطولونيين ثم لنفسه ، ولما بلغ والى مصر ما كان من أمر الخلنجى جهز جيشاً لملاقاته وهو فى الطريق إلى مصر ، ولكنه استطاع بمعونة من وافاه من كل فج ممن تفيض نفوسهم بغضاً للعباسيين من أهل مصر والشام أن يطارد والى مصر وجيشه من غزة إلى العريش حيث أوقع بهم الخلنجى ففروا أمامه إلى بلدة العباسة ومنها قفل الوالى راجعاً إلى مصر فراراً من بطش الخلنجى الذى دانت له مصر بأجمعها وظل يحكمها سبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً .

مدينة القطائع فى عهد العباسيين الثانى

فى سنة ٢٧٣ هـ (٩٠٤ م) دخل محمد بن سليمان مدينة القطائع فألقى النار فيها ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهجموا على الدور واستباحوا الحريم وذبح رجال الفرقة السوداء ودمرت مبانى القطائع

و بيوتها التى قدرها بعض المؤرخين بمائة ألف بيت . وعاد العباسيون إلى الإقامة بمدينة العسكر فأصبحت مقر الحكومة للمرة الثانية .

ولما كانت « الشدة العظمى » فى أيام المستنصر قضى على البقية الباقية من مدينة القطائع .

وفى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) أتى الخراب على مدينتى العسكر والقطائع معاً حتى اضطر الحال لبناء سور يبدأ من باب زويلة تقريباً فى القاهرة وينتهى عند الفسطاط إلى جامع عمرو . وكان الغرض من بناء هذا السور هو ستر خرائب العسكر والقطائع حتى لا يتأذى الخليفة من منظرها عند مروره فى هذه المنطقة .

ثم استعمل الناس أنقاض مبانى العسكر والقطائع فى عمارة منازلهم الجديدة بالقاهرة وتحولت المساحة الواسعة بين القاهرة والفسطاط تدريجاً إلى صحراء جرداء وتلال وقاذورات ما عدا بعض البساتين والحدائق التى ظلت مبعثرة فى الطريق و بعض البيوت الخلوية التى ظلت منفردة . وعادت السطوة ثانية للفسطاط فزادت مبانيها وظلت الحال على ذلك حتى تأسست القاهرة المعزية .

ولم يبق فى أرض مدينتى العسكر والقطائع للآن إلا جامع ابن طولون وهو الأثر الإسلامى الوحيد الذى ظل محافظاً على تفاصيله المعمارية لمدة أحد عشر قرناً فهو إذن أقدم أثر إسلامى كامل بمصر : وسبق لنا درس ما فى هذا الجامع من الجمال والرشاقة .

مدينة مصر الفسطاط فى نهاية الحكم العباسى وفى عصر الإخشيديين

بعد أن أقصى الخلنجى عن حكم مصر اختلف عليها ولاة من قبل العباسيين استبد بهم الجند وأصحاب الخراج وضاع سلطان أولئك الولاة بين جشع الجند فى طلب المال وضن عمال الخراج به على الولاة . فلا عجب أن تكون مصر أثناء هذه الفترة نسياً منسياً تغط فى سبات عميق إلا من الدسائس يحيكها الجند وضباطهم فيقع فى حبائلها الولاة الذين ظلت أمورهم معلقة بيد رجال الجيش ، إلى أن ولى مصر من قبل الخليفة العباسى « الراضى » محمد الأخشيد الذى ما لبث أن أنشأ فى مصر حكومة مستقلة قوية مهيبة الجانب يخشى الخليفة بأسها لدرجة أحفظت قلبه على الأخشيد فعين له منافساً بمصر وهو محمد بن رائق الذى وهب له الخليفة مصر على الرغم من وجود الأخشيد بها ، و بينما يهم ابن رائق بالحضور إلى مصر لتسلمها خف الأخشيد لملاقاته فى العريش فهزم ابن رائق ومن التف حوله . ولكن الأخشيد كان — مع الانتصار — سخياً سمحاً كعادته فرضى بمنح ابن رائق شمال الشام وقبل أن يدفع له جزية سنوية وأن يصاهره ليأمن جانبه حتى يتفرغ هو لصد خصوم آخرين طامعين فى مصر كالفاطميين والحدانيين .

و بعد وفاة الأخشيد تولى بعده ابنة أنوجور (وهو اسم أعجمى معناه بالعربية محمود) . ولما كان لا يزال صغير السن صار أستاذه « كافور » مدبر مملـكته . ولقد رأى سيف الدولة الحمدانى فى ولاية « أنوجور » فرصة مواتية لينقض عهوده التى أبرمها مع والده فانقضّ على الشام ولكن سار إليه « أنوجور » مع « كافور » ورجال الجيش حتى بلاد الشام وأوقعوا به الهزائم المتكررة . وفاجأ الموت « أنوجور » وخلفه أخوه « على الأخشيد » وكان أيضاً دون سن الملك فوقع تحت إمرة « كافور » الذى ما لبث أن أصبح حاكم مصر الفعلى بعد موت «على الأخشيد». وقلده الخليفة العباسى حكم مصر بلقب « أستاذ مصر وممتلكاتها » ولكن عكر صفوه ما حل بمصر إذ ذاك من قحط لانخفاض فيضان النيل حتى ندرت الأقوات كما فشا الموت بحالة عجز معها النـاس عن تكفين الموتى ودفنهم .

وفى هذا العصر كان جزء كبير من تجارة الهند و بلاد العرب الذاهبة إلى أور با تمر بمدينة الفسطاط التى عرفت إذ ذاك باسم مدينة مصر الفسطاط أو مدينة مصر فقط .

وقد انتشر فى المدينة أصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحياكين والخياطين والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانين ومن جرى مجراهم والباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرهما من أصناف المأكولات على أنواعها و بعض المنسوجات والسلع الدنيئة .

كما كثرت طبقة المرتزقين بالدعارة والنهب واللصوصية على أثر الفتن والانشقاق مما سبب خراب المدينة . وأخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلّت عفة النساء .

عمارة مصر

ذكر المقريزى أنه كان فى عواصم الإسلام الأولى : الفسطاط والعسكر والقطائع وهى مجموعة المدن التى اتصلت ببعضها وعرفت باسم مدينة مصر ۰۰۰و۱۰۰ بيت فى بعضها ۱۰۰ أو ۲۰۰ ساكن ، وكان البيت مؤلفاً من خمس طبقات أو ست أو سبع .

وظلت العمارة حتى عصر صلاح الدين الأيوبى فى هذه العواصم الثلاث لأن الفاطميين لم يسمحوا للشعب بالإقامة فى مدينة القاهرة بعد إنشائها بل جعلوها معقلاً للخليفة وجنـده . فلم تتسع عمارتها إنما بقيت العمارة للفسطاط .

ولما أفضت الدولة إلى السلطان صلاح الدين أذن للناس بسكنى القاهرة فاتصلت بمدينة الفسطاط . وكانت الفسطاط تسمى (مصر) فلما صارتا مدينة واحدة أطلقوا عليها اسم « مصر والقاهرة » ثم قالوا « مصر القاهرة » . ولما خربت الفسطاط ظل هذا الاسم (مصر) للقاهرة وحدها كما هو مشهور .

الفصل التاسع

الحياة الاجتماعية فى عواصم الاسلام الأولى بمصر

نظام المجتمع فى عصر الخلفاء الراشدين من سنة (٢١ — ٣٧) هـ (٦٤١ — ٦٥٧) م .

لما ظهر الإسلام كان سكان مصر طبقتين :

أولاً — الرومان البيزنطيون أو الروم وكانت بيدهم مقاليد الحكم وكان مقر حكمهم بالإسكندرية وكان منهم رجال الدولة والأجناد وبعض رجال الأكليروس .

وثانياً — الأهالى وهم القبط الأصليون يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة أو المرتزقين من الخدمة فى الجيش أو غيرها من أهل الشام واليمن والعراق والنوبة وأفريقيا .

وكان بين الروم والقبط فاصل آخر مذهبى فكان الروم على مذهب الملك مرقيان ولذا عرفوا باسم الروم الملكيين ، أما القبط فكانوا على مذهبهم الأرثوذكسى ولكن لاتحادهم فى العقيدة مع السريان وهم سلالة الأشوريين سكان العراق الأصليين وعاصمتهم مدينة بابل ، لقبهم بعض المؤرخين خطأً باسم « اليعقوبيين » نسبة إلى يعقوب البراذعى السريانى تلميذ القديس ساويرس الأنطاكى .

لم يصب القبط من أهالى مدينة مصر بعد الفتح الإسلامى ضرراً ما فى عصر الخلفاء الراشدين لأن المسلمين لم يكونوا يخالطونهم ولا يدخلون فى شىء من أحوالهم الإدارية أو الدينية أو السياسية وإنما كان همهم اقتضاء الجزية والخراج وحماية من دخل فى ذمتهم من أهل الكتاب .

فكان العرب يقيمون فى مضاربهم أو معاقلهم فى الفسطاط بما يشبه الاحتلال العسكرى ، ولم يكن معهم إلا من دخل فى حوزتهم من الأرقاء بالأسر أو السبى ومن أعتقوه فصار من الموالى .

يحكى أنه كان فى مدينة بابيلون بعد فتح حصنها جماعة كبيرة من جنود القبط ، فلما رأى هؤلاء ما كان عليه العرب من الرثاثة قالوا : « ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم ، ما رأينا مثلنا دان لهم » .

فلما سمع عمرو مقالتهم دعا جماعة من كبارهم إلى وليمة فنحر جزورا وصنع لهم المرق بالماء والملح وجعل ذلك أمامهم وقد جلس القبط إلى جانب العرب . فجعل العرب ينهشون اللحم نهشاً حتى بشع القبط ذلك وعادوا بغير أن يأكلوا .

فلما كان اليوم الثانى أمر عمرو قومه أن يأتوا بألوان الطعام فى مصر وأن يهيئوا منها وليمة عظيمة ففعلوا ذلك وجاء أهل مصر فجلسوا إلى ذلك الطعام وأصابوا منه . فلما فرغوا من أكلهم قال عمرو للقبط :

« إننى أرعى لكم من العهد ما تستوجبه القرابة فى النسب بيننا إذ تجمعنا هاجر المصرية زوجة الخليل إبرهيم عليه السلام وأم إسماعيل الذى منه تسلسل العرب .

وقد علمت أنكم ترون فى أنفسكم أمراً تريدون به الخروج ، فخشيت أن تهلكوا ، فأريتكم كيف كان العرب فى بلادهم وطعامهم من لحم الجزر ، ثم حالهم بعد ذلك فى أرضكم وقد رأوا ما فيها من ألوان الطعام الذى قد رأيتم . فهل تظنون أنهم يسلّون هذا البلد ويعودون إلى ما كانوا فيه ؟ إنهم يسلّون قبل ذلك حياتهم ويقاتلونكم على ذلك أشد القتال . فلا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة وأدخلوا فى الإسلام أو ادفعوا الجزية وانصرفوا إلى قراكم » . . .

فأخذ بعض القبط عند ذلك يختارون الإسلام ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية ، فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويساويهم بالفاتحين فى شرف محلهم ويجعلهم إخوانهم فى كل شىء ، يسهم لهم فى الفىء ولا يفرض عليهم الجزاء . فكان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الإسلام لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحناً وحطم يقينهم باضطهاده تحطيما .

وامتزج القبط بالمسلمين وانقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام فتزوج العرب من نسائهم وتسلسل منهم المصريون الحاليون . والقسم الآخر بقى صلباً يأبى كل الإباء أن يترك ما كان عليه آباؤه من الدين والعادات ، وقد بقى على دينه لم تفتنه أشد المظالم ولم تزعزعه أشنع الاضطهادات ، بل عاشوا وهم كل يوم يحسون مرارة الذلة ومضض الهوان فلم تخضع نفوسهم ولم تلن .

ولقد كان بقاء القبط لغاية الآن ، بغير شك ، معجزة من معجزات الخلق المصرى ، لأن المصرى بطبعه محافظ لا ينسى . ولو أن هذه البقية القبطية والأقلية المصرية كانت للآن ببلد آخر لحوفظ عليها كأثر من أثمن آثار التاريخ الحيّة . ولكنها تسير فى مصر الحاضرة بكل أسف إلى طريق الفناء ! !

أما الطبقة الجديدة التى نشأت بانتشار الإسلام فى الفسطاط وهم المسلمون من القبط فقد ولاهم العرب فى عهد الخلفاء الراشدين مصالح الدولة التى تفتقر إلى أمانة وثقة فضلا عن العلم والدين وجعلوا لهم الرواتب السنية ، ولكنهم حرموهم من المناصب الرفيعة التى كانت تحتاج إلى شرف وعصبية كالقضاء مثلا فإنهم كانوا يعدّونه فوق مرتبتهم .

عمرو بن العاص يصف مصر للخليفة عمر بن الخطاب

وإليك الآن صورة ناطقة من صور الحياة فى عصر الفتح العربى بعد أن أخذت البلاد فى الاستقرار والاطمئنان تحت حكم العرب ، وبعد أن هدأت ثورة الفتح وذهبت إحن القتال والنضال التى عصفت بالبلاد زمناً . قال عمرو بن العاص يصف مصر للخليفة عمر بن الخطاب :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء . طولها شهر وعرضها عشر . يكنفها جبل أغبر ورمل أعفر . يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر . له أوان يدّر حلابه ويكثر فيه ذبابه . تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا اضلخم عجاجه وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه، فلم يمكن التخاص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الأصائل . فإذا تكامل فى زيادته ، نكص على عقبيه كأول ما بدا فى جريته ، وطما فى درته . فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة (يعنى الفلاح المصرى أو القبطى) يحرثون بطن الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب . لغيرهم ما سعوا من كدهم . فناله منهم بغير جدهم . فإذا حدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى .

فبينما مصر ، يا أمير المؤمنين ، لؤلؤة بيضاء ، إذ هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء .

الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها . فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال . والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل » .

خطبة عمرو فى مسجده يوم الجمعة من أيام عيد الفصح سنة ٢٤ هـ (٦٤٤ م)

وإليك أيضاً صورة أخرى من صور الحياة فى عواصم الإسلام الأولى ترسمه خطبة عمرو التالية :

« يا معشر الناس . إنه قد تدلت الجوزاء ، وزكت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقلّ الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر ، فحى لكم على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، واربعوا خيلكم واسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً . وإياكم والمسومات والمعسولات فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم .

حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لكم منهم صهراً وذمة » .

فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم . ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه . واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال . فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم . وتشوق قلوبهم إليكم و إلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية .

وحدثنى عمر أمير المؤمنين ، أنه سمع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » .

فقال له أبو بكر :

« ولم يا رسول الله ؟ » .

قال : « لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة » .

فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ، فإذا يبس الزرع ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوّح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ، فحى إلى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته .

أقول قولى هذا ، وأستحفظ الله عليكم » .

ولا تحتاج هذه الخطبة إلى تعليق فإنها ترسم الحياة فى مصر رسماً واضحاً حياً فى عصر الفتح .

جباية الخراج فى عصر الفتح الاسلامى :

يؤخذ من كلام مؤرخى العرب أن مصر لما فتحها المسلمون ، كان عدد الذكور فيها ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك « ليس فيهم امرأة ولا صبى ولا شيخ » ثمانية ملايين رجل ، منهم فى الاسكندرية وحدها ٣٠٠٠٠٠ رجل ، فإذا أضفنا إلى ذلك عدد الإناث والأطفال والشيوخ زادت جملة السكان على ٣٠ مليون نفس وهو نحو ضعف عدد سكانها الحالى .

وقد يطعن فى صحة هذه الرواية ، ولكن يستدل من مجمل أقوال المؤرخين فى مصر أنها كانت فى عصر الفتح فى رغد ورخاء ، وكان عمرانها بالغاً حد النهاية .

وقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان : « أن المقوقس قد تضمن مصر من هرقل بتسعة عشر ألف ألف دينار

وكان يجبيها عشرين ألف ألف ، وجعلها عمرو بن العاص عشرة آلاف ألف دينار أول عام . وفى العام الثانى جعلها اثنى عشر ألف ألف . ولما وليها للمرة الثانية فى أيام معاوية جباها تسعة آلاف ألف دينار . وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح أربعة عشر ألف ألف دينار .

وقد أجمع المؤرخون المحدثون تقريباً على تقدير عدد سكان مصر فى تلك الأيام بنحو عشرين مليون نفس بدلا من ٣٠ مليون نفس المذكورة سابقاً .

قال المقريزى : « إن هشام بن عبد الملك أمر عبيد الله بن الحبحاب عامله على خراج مصر أن يمسحها فمسحها بنفسه سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) فوجد أن مساحة أرضها الزراعية مما يركبه النيل ثلاثين مليون فدان » .
وأقول : إن مساحة الأرض الزراعية فى وادى النيل اليوم مع ما تبذله الحكومة من العناية فى إخصابها وتعميرها لم تتجاوز ستة ملايين فدان بعد .

ومساحة وادى النيل كلها أى الوجه البحرى والصعيد على جانبى النيل لا تزيد على هذا القدر إلا قليلا . فيستحيل أن تكون مساحتها فى أوائل الإسلام خمسة أضعاف ذلك . ولكن يظهر أن المصريين فى صدر الإسلام كانوا يزرعون ما يجاور وادى النيل من الشرق نحو البحر الأحمر ومن الغرب إلى وادى النطرون . لأن مساحة مصر بما فيها الواحات فى صحراء ليبيا والأرض بين النيل والبحر الأحمر و بينه و بين بحر الروم إلى العريش تزيد على ٤٠٠,٠٠٠ ميل مربع ، وذلك يساوى ١٨٧ مليون فدان . فلا غرابة إذن أن يكون العامر منها ٣٠ مليون فدان وأن يكون عدد سكانها ٢٠ مليوناً أو حتى ٣٠ مليون نفس فى زمن الفتح .

هذا وقد عرفنا مما نقله العرب عن أحوال مصر وعن أخبارها القديمة أن حدودها الزراعية كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية إلى برقة وتتصل من الشرق بحدود السويس إلى العريش . ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعصفر وقصب السكر ، وكان ماؤها غزيراً بسبب كثرة فروع النيل إذ ذاك . ولا تزال آثار العمارة باقية فى تلك البقاع للآن ، فان تحت الرمال الحالية تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الأرض وعمل بها جسات بالمسبار .

كما عرفنا أن الصعيد كان عامراً وكان يمتد من الجهة الشرقية إلى البحر الأحمر وأراضى البجة ، وكانت أطيان الفيوم ممتدة إلى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة . فاذا اعتبرنا ما ذكره العرب وسواهم من الروم والقبط من هذا القبيل وأن النيل كان أكثر فروعاً وأغزر ماء وأعلى فيضاناً مما هو عليه اليوم ، هان علينا قبول أقوالهم وإن كنا لا نزال نستغربها لبعدها عن مألوفنا .

ولعلنا متى رأينا وزارة الأشغال العمومية تعمل على إحياء الصحارى المحيطة بوادى النيل شرقاوغربا بنزع مايغطيها من

الرمال و إروائها بالترع المتصلة إليها من النيل أو بالآبار الارتوازية نرى أقوالهم معقولة . ولا نظن ذلك بعيداً ورجال هذه الوزارة فى مصر ينفذون اليوم مثل هذه المشروعات و يعرفون ما هو مقدر لها من النجاح ! !

كانت الزراعة إذن ولم تزل هى المهنة التى تتوقف عليها حياة مصر ورخاؤها ، وكان لا بد لنجاح الزراعة من درس أحوال النهر ومعرفة تطوراته الدقيقة ، وقد وجد المصريون فى حركات نجوم السماء واسطةً للاستدلال بها على ميعاد فيضان النهر ، ومن ثم بدأ اهتمامهم بعلم الفلك و إتقانهم لدراسته . وعلى أساس هذه العلوم العالية شيدوا مقاييس النيل فى كل معابدهم ، ثم خبا نور هذه المعارف فى مصر فى عصر الانحطاط وأصبح التنبؤ بفيضان النيل فى مدينة الفسطاط بطرق أولية ساذجة ! !

فكان نزول النقطة من الحوادث الهامة التى تنتظر بفارغ الصبر عند أهالى هذه المدينة . وكانت كل امرأة تضع فوق سطح منزلها قليلا من العجين فى ليلة من ليالى شهر مسرى . فاذا خمر العجين كان ذلك دليلا على نزول النقطة وجلب لها ذلك نعمة و بركة عليها وعلى أهل منزلها طول العام .

ولم تكن هذه الطريقة الساذجة تصدق دائماً للتنبؤ بفيضان النيل فعدل عنها شيئاً فشيئاً ، ثم بنى التنبؤ على تغيير لون مياه النهر التى كانت تتغير إلى اللون الأخضر أولاً ثم تعقبها المياه الحمراء أى مياه الفيضان .

وكانت نتائج تأخير ورود بشائر فيضان النيل فى العهود الماضية من أشد ما يكون على تجارة المدينة ، إذ كان الناس جميعاً يهبون مذعورين ويجتهدون فى إخفاء مواد الغذاء فترتفع أثمان الحاجيات الأولية وتتقلب الأسعار بسرعة وتكثر حوادث التبديد ويختل الأمن العام . ولذا كان لا بد من الحذر الشديد عند نشر التنبؤات عن الفيضان لأجل اجتناب الغلط وعدم حصول تقلبات حادة فى الأسواق . هذا خلاف ما يترتب على ذلك من الارتباك فى جباية الخراج .

نظام المجتمع فى عصر الأمويين من سنة (٣٧ — ١٣٢) هـ (٦٥٧ — ٧٤٩) م

لما طمع بنو أمية فى الخلافة ، كانت قد انتقلت إلى على بن أبى طالب صهر النبى وابن عمه بعد قتل عثمان بن عفان ، وكان المسلمون يعتقدون أنه أحق الناس بها لقرابته من النبى وتقواه وشجاعته وعلمه وسابقته فى الإسلام وفضله فى تأييده .

ولما قتل على تولى الخلافة بعده ابنه الحسن فرأى نفسه عاجزاً عن منازلة معاوية فتنازل له عن الخلافة سنة ٤١ هـ فرسخت قدم معاوية فيها .

وكان القبط من أهالى الفسطاط فى أيام الأمويين فى حالة تطور وانتقال بين عصر الروم والفرس والعصر الإسلامى . ولم يتم ذلك الانتقال و يبدأوا فى اعتناق الإسلام جماعات إلا فى أيام الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك أى بعد الفتح بحوالى ٨٠ عاما إذ أرسل هذا الخليفة إلى مصر خمسة آلاف عربى أقامهم بالفسطاط يخضدون من شوكة القبط حتى أسلموا .

وترفع الأمويون عن الاختلاط بغير العرب ورغبوا فى البقاء على البداوة . فلم يتكيف المجتمع فى الفسطاط بشكله الخاص بالإسلام والتمدن الإسلامى إلا فى العصر العباسى ، خصوصاً بعد أن أوقع جيش المأمون بن الرشيد بالقبط وأحرق قراهم وسبى نساءهم وأطفالهم حتى فنى الكثيرون منهم . ومنذ ذلك التاريخ أى حوالى سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) زاد عدد المسلمين على عدد الأقباط واستقر العرب فى القرى والمزارع بعد أن كانوا يلازمون المدن . فاتسع مجال التقدم والعمران فى الفسطاط وخطت إلى الأمام خطوات واسعة موفقة . ودخل فى خدمة المسلمين كثير من الأطباء والكتاب والمترجمين القبط ، فنظموا لهم الدواوين وأقاموا لهم الحرس والبريد وعلموهم الجلوس على السرير وأدخلوا عليهم كثيراً من أسباب المدنية المصرية الراسخة فى بلادهم .

نظام المجتمع فى العصر العباسى الأول من سنة (١٣٢ — ٢٥٤) هـ (٧٤٩ — ٨٦٨) م

كان فى جملة المطالبين بالخلافة ، من أقرباء النبى ، بنو العباس عم النبى لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والأمويون فى إبان دولتهم ، وإنما كانوا يدعون إلى أنفسهم سراً . ولما ضعف شأن بنى أمية هموا بالنهوض ، إلى أن انتقلت البيعة من العلويين إلى العباسيين بمبايعة أبى هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن على العباسى .

ونظراً لتغلب العباسيين بالموالى وأهل الذمة على الأمويين ، فقد اتخذوا من النصارى المقربين اليهم الوزراء والعمال ورجال الدولة ، فنضج التمدن الإسلامى وتكيف على شكل خاص بمدينة العسكر والفسطاط ، وتكاثرت الأموال فى أيدى الناس فتوسعوا فى الإنفاق وتنعموا بمعيشتهم وتأنقوا فى الطعام والشراب والسماع وغيرها من الملذات الجسدية وتنعموا بالألبسة الثمينة والرياش الفاخر .

ثم طلبوا الملذات المعنوية من التفاخر باقتناء الجوهرات والعقارات وتلمسوا الشهرة . وبعث الترف على اقتناء الجوارى للتمتع بهن أو استيلادهن ، وقد تكاثرن فى العصر العباسى وراج الاتجار بهن وتقدمت صناعة تربيتهن وتهاديهن . وأصبح الاستكثار من الجوارى عادة مألوفة حتى صار النساء يقتنين للزينة . وارتفعت أثمان الجوارى وكانت أسعارهن تتضاعف إذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء . ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف من الدنانير .

وكثر بذل المال على الندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات . وطبيعى أن يعتور الحضارة والترف شىء من التهتك والفحشاء . وإنى أترك لتصور القارىء الكريم ما كان فى الفسطاط والعسكر من أسباب التهتك فى هذا العصر حيث كانت تتزاحم الأقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجوارى ويتفشى الغناء والمسكر فلا غرو إذا تفشت الفحشاء وصار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم إليه أربابها عند الحاجة وقد ضربت على هذه الصناعة ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات .

وأقبح ما ظهر من التهتك فى عصر العباسيين مغازلة الغلمان وتسريهم، وظهر ذلك على الخصوص فى أيام الأمين فى صدر القرن الثالث الهجرى وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم فى أيام المعتصم وفيهم الأرقاء بالأسر وبالشراء. وتسابق الناس إلى اقتنائهم، وغالوا فى تزيينهم وتطييبهم، وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريهم.

ولما فشا حب الغلمان فى أهل الدولة العباسية بمصر وتغزل بهم الشعراء، غارت النساء من ذلك فعمدن إلى التشبه بالغلمان فى اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال. فتكاثر الفساد حتى ذكر أن ابنة الأخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها. وبلغ المعز لدين الله الفاطمى ذلك وكان لا يزال فى الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل، فلما بلغه ما فعلته ابنة الأخشيد استبشر وقال: « هذا دليل السقوط » وجنّد على مصر وفتحها. وهكذا سقطت الفسطاط إلى الحضيض!! فى أزهى عصور التمدن العربى!!

وقد امتاز العصر العباسى بالحفلات النادرة والمواكب الفاخرة. فالاحتفالات الدينية كانت غاية فى الأبهة واحتفالات الزواج كانت غاية فى البذخ والإسراف وألعاب الخلفاء وملاهيهم وحفلات الصيد والقنص والحلبة وسباق الخيل والكرة والصولجان كل هذه رأت منها الفسطاط والعسكر أشكالاً وألواناً.

ونحن وإن كنا لم نستكشف بعد آثار مدينة العسكر عاصمة العباسيين فى مصر إلا أنه يمكننا تصور عمارها بما كانت عليه أبنية بغداد والبصرة وسواها مما وصل إلينا وصفها. فقد كان للقوم عناية ببناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون فى تزيين واجهاتها فضلاً عن إحاطتها بالمتنزهات والحدائق مما ينفقون فيه الأموال الطائلة فيجلبون إليها الأغراس من أطراف المعمورة ويتفننون فى تزيين قاعات مجالسهم بالأشعار والصور المموهة بالذهب وبينها صور الحيوانات والآدميين والأزهار وغيرها.

نظام المجتمع فى عصر الطولونيين وفى العصر العباسى الثانى وفى عصر الأخشيديين

أما نظام المجتمع فى عصر الطولونيين من سنة ٢٥٤ إلى سنة ٢٩٢ هـ (٨٦٨ — ٩٠٤) م وفى عصر العباسيين الثانى من سنة ٢٩٢ إلى سنة ٣٢٢ هـ (٩٠٤ — ٩٣٣) م وفى عصر الأخشيديين من سنة ٣٢٢ هـ إلى سنة ٣٦٢ هـ (٩٣٣ — ٩٧٢) م فقد تكلمنا عنه فى الفصل الثامن بما فيه الكفاية.

حريق مدينة مصر

رأيت معنا أيها القارىء العزيز تطورات عواصم الإسلام الثلاث الأولى بمصر وهى الفسطاط والعسكر والقطائع، ولا بد لنا الآن من وصف نهاية هذه العواصم الجميلة قبل إسدال الستار عليها.

فنى سنة ١١٦٨ م تقدم ملك بيت المقدس آمورى أو أملريك نحو القاهرة لفتح مصر بعد أن رأى الصليبيون أن الضمان الوحيد لطمأنينتهم فى فلسطين هو الاستيلاء على القطر المصرى .

وفى أيام قلائل كانت جيوش الصليبيين عند بلبيس وأمعنوا فى أهلها فتكاً وقتلاً ، وتمت مجزرة هائلة كان أبطالها من يدعون أنهم جنود المسيح وفرسانه ، فذبحوا كل من وقع فى أيديهم من الرجال والنساء والأطفال حتى أسقط فى يد شاور الوزير المصرى الذى دعا الصليبيين إلى مصر لتثبيته فى الوزارة ، إمعاناً فى الكيد لخصمه ومنافسه فى هذه الوظيفة ضرغام .

بهت إذن شاور مما حدث فعول على أن يقف تيار أملريك لئلا يلجأ إلى مثل تلك الأعمال الوحشية ضد أهالى مدينة الفسطاط ، وخوفاً من أن يستخدمها ستراً يسهل تقدمه نحو القاهرة ، فأمر بإحراق مدينة الفسطاط وكان ذلك فى ٢٩ صفر سنة ٥٦٥ هـ (١٢ نوفمبر سنة ١١٦٨ م) .

قال المقريزى :

« بعث شاور إلى مصر (الفسطاط) بعشرين ألف قارورة من النفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها فارتفع لهيب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظراً مهولاً واستمرت النار تأتى على مساكن مصر (الفسطاط) أربعة وخمسين يوماً » .

فلما أخمد الحريق ، رحل القائد « أملريك » مع رجاله من بركة الحبش حيث كان معسكراً ونزل بظاهر القاهرة بالقرب من باب البرقية وقاتل أهلها قتالاً عنيفاً حتى ضعفت نفوسهم وكادوا يؤخذون عنوة .

وبينما كان شاور يحاول مقاتلة الفرنج إذ بأسد الدين شركوة قد وصل إلى المقس خارج القاهرة واستولى على مصر .

وبعد هذا الحريق أخذت هذه العواصم الإسلامية الأولى تضعف وتتلاشى شيئاً فشيئاً حتى دثرت .



المشاعل

وهكذا يسدل الستار على هذه المدن التى ظلت منذ تأسيس الفسطاط سنة ٦٤١ م إلى أن حرقت وتلاشت سنة ١١٦٨ م عاصمة لمصر الإسلامية لمدة ٥٢٧ سنة ميلادية .

ولم يبق منها الآن إلا خرائب وتلال تعرف اليوم باسم أطلال الفسطاط لا يزال يرى الإنسان فيها آثار الحريق والدمار ! !

تأثير نهر النيل فى حياة عواصم الإسلام الأولى

ويمكن القول بدون مغالاة إن حياة عواصم الإسلام الأولى ظلت قروناً عديدة تحت رحمة نهر النيل . فكل شىء فى العاصمة كان يتعلق بحالة النهر : جباية الخراج وتموين المدينة و إيجاد موارد لمياه الشرب وسهولة المواصلات ، حتى المسائل السياسية كانت مرتبطة بحالة النهر .

أما الآن ، وقد تغلب العلم الحديث على تهديدات النهر المستمرة ، فلا يسعنا إلا أن نذكر مشفقين حالة أسلافنا القدماء بهذه العواصم ، حيث كانوا مضطرين إما للابتعاد عن المياه الصالحة للشرب وطرق الملاحة ، أو للاقامة بجوار النهر معرضين لأخطار الفيضان ولانهيار الأرض .

وقد جاء زمن كان فيه كل حاكم معرضاً للنقد المر إذا حاول إبعاد السكان عن النهر ، إذ كان يتهم حينئذ بأنه يسعى لحرمانهم من خيرات بلادهم أما إذا حاول القرب من النهر فانه كان يتهم بأنه يعرض السكان للغرق زمن الفيضان . فتاريخ العواصم الإسلامية منذ الفتح إلى نهاية القرون الوسطى ليس إلا صراعاً مستمراً بين الرغبة فى مجاورة النهر والرهبة من الإقامة بجواره خوفاً من غوائل الفيضان وما يتبع ذلك من انهيارات وكوارث ، ولذا فضل القوم إقامة عواصم مصر الإسلامية الأولى فوق الهضبة الصخرية القاحلة بسفح جبل المقطم .

ومن المعلوم أن مياه الفيضان تصل إلى مدينة أسوان فى الأيام الأخيرة من شهر يونيو ، ولكنها لاتظهر أمام العاصمة إلا فى أوائل شهر يوليو . وتبلغ مياه الفيضان متوسط ارتفاعها حوالى منتصف شهر أغسطس ثم يصل الفيضان إلى ذروته فى أواخر شهر سبتمبر أو فى أوائل شهر اكتوبر . وبعد أن يظل منسوب مياه الفيضان ثابتاً لمدة أسبوعين تقريباً يبدأ فى النقصان .

وتوجد مجموعة للنهايات العظمى والنهايات الصغرى للمناسيب عند جزيرة الروضة من سنة ٦٤١ إلى سنة ١٤٥٠ ميلادية تكاد تكون كاملة .

ومما يلفت النظر فى هذه البيانات هو أن الفيضانات كانت أعلى من المتوسط فى مدد طويلة تقرب أحياناً من خمسين عاماً وأقل من المتوسط فى فترات أخرى . كما أنه حدثت فيضانات منخفضة جداً بين مجموعة من الفيضانات العالية وبالعكس .

وقد فحصت هذه البيانات بدقة للوقوف على ما إذا كانت الفيضانات المرتفعة دورية أم لا ؟ وعما إذا كان من الممكن التنبؤ بحالة الفيضان قبل حدوثه بمدة طويلة ؟ فكانت النتيجة أن عملية التنبؤ عديمة الفائدة .

صحيح أنه توجد علاقة بين الأحوال الجوية لجنوب المحيط الأطلسى وبين فيضان النيل ، ولكن لم يتيسر حتى الآن ضبط هذه العلاقة وعمل تنبؤ عن الفيضان يمكن الاعتماد عليه فى الأغراض العملية . وعلى كل فقد

يمكن فى يوم من الأيام ، بتقدم علم الظواهر الجوية ، وبالوقوف بالتفصيل على حقيقة العامل الذى ينشأ عنه الفيضان ، أن يستنتج تنبؤ دقيق عن حالة الفيضان قبل حدوثه ببضعة أشهر . ولا شك أن قيمة هذا التنبؤ تزداد بازدياد مناطق الرى فى وادى النيل .

أما إذا كان الفيضان منخفضاً فيمكن عمل تنبؤات يعتمد عليها قبل حدوثه ببضعة أشهر ، ذلك أنه فى شهر ديسمبر مثلا يمكن التنبؤ عن حالة النيل على العموم بمصر لغاية شهر مايو . ولكن إذا تصادف نزول الأمطار فى الحبشة أثناء هذه الفترة تصبح هذه التنبؤات غير مؤكدة ، وكذلك يمكن عمل تنبؤات لمدد قصيرة مبنية على حساب التصرفات والمناسيب الأمامية بدقة عظيمة ، وتعمل تنبؤات من هذا القبيل باستمرار الآن لتساعد على وضع برامج الرى وللملء وتفريغ خزان أسوان .

ويصل عمق المياه فى النهر عند العاصمة مدة الفيضان إلى عشرة أو اثنى عشر متراً فى المتوسط . وقد تغير كثيراً منذ القدم الارتفاع المتوسط لمياه الفيضان الذى لا يضر الأحياء المجاورة للنهر وفى الوقت نفسه يساعد على نمو البساتين والزراعات ، وذلك بسبب ارتفاع الأراضى الزراعية من الرواسب النيلية .

وقد حسب « جيرار » قيمة ارتفاع الأراضى الزراعية سنة ١٨٩٩ متخذاً قاعدة مسلة المطرية كنقطة ارتكاز أساسية ، فوجد أن هذا الارتفاع فى هذه النقطة يصل إلى ١٥ سم فى القرن الواحد ، بينما وجد أن هذا الارتفاع عند مقياس الروضة لا يزيد عن ١٢ سم فى القرن الواحد .

وفى عهد هيرودوت كان إذا وصل ارتفاع الفيضان إلى ٥و٨٠ متراً فوق منسوب التحاريق يعد فيضاناً عالياً ، ولكن فى القرن التاسع عشر كان يجب أن يصل ارتفاع الفيضان إلى ثمانية أمتار على الأقل عند مقياس الروضة ليعد الفيضان عالياً ويقدر هذا الارتفاع بما مقداره ٢٣ ذراعاً وبضعة قراريط .

وطبقاً لتقديرات المسيو لوبير كبير مهندسى حملة بونابرت يعادل ارتفاع ١٦ ذراعاً عند الروضة ٨و٦٤٦ متراً ويختلف طول الذراع بين ٠و٥٣٦ و ٠و٥٥٠ من المتر .

وفى القرون الوسطى كان الفيضان يعد شحيحاً كما قال المسعودى إذا وصل ارتفاع المياه إلى ١٢ ذراعاً فقط ، وكان يعد متوسطاً إذا وصل إلى ١٤ ذراعاً ، وكان يعد مرتفعاً إذا كان ما بين ١٦ و ١٧ ذراعاً ، وخطراً إذا وصل إلى ١٨ ذراعاً . وعلى نفس هذا الأساس كانت تسير حكومة عمرو بن العاص فى جباية الخراج والجزية .

فعند ما كان يصل ارتفاع المياه إلى ما بين ١٤ و ١٥ ذراعاً فقط كان يجبى جزء من الخراج . وإذا استمرت الزيادة إلى ١٦ ذراعاً يجبى الباقى . أما إذا زاد عن ذلك فكان الغرق والفاقة وعدم جباية الخراج .

وفى العصر العربى كان للنيل خمسة مقاييس فى المنطقة المعروفة الآن باسم منطقة القاهرة :

فنى معبد منف كان يوجد مقياس للنيل . وفى معبد مدينة أون (عين شمس) كان يوجد مقياس آخر للنيل . وهذه قاعدة معروفة . فحيثما كانت تقوم المعابد الفرعونية ، تجد دائماً مقياساً للنيل ، وذلك حتى يتمكن الكهنة من تحديد مواعيد أعياد النهر وأعياد الزراعة والمواسم الأخرى . وكذلك فى حلوان كان يوجد مقياس أقيم فى عهد عبد العزيز بن مروان بعد أن هدمت المياه المقياس الذى أقامه هناك عمرو بن العاص بذرع مختلف عن الأذرع الأصلية لمقياس النيل للتبكير فى جباية الخراج .

وفى جزيرة الروضة كان يوجد المقياس الذى أقامه أسامة سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) فى خلافة الوليد . وهو أهم المقاييس فى عهد عواصم الإسلام الأولى بمصر .

وقد وسع هذا المقياس وأدخلت عليه تعديلات كثيرة سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) فى آخر عهد الخليفة المتوكل على الله جعفر العباسى حيث أنفذ إلى مصر من العراق المهندس القدير محمد بن كثير الفرغانى للاشراف على بنائه .

ثم أصلحه أيضاً الأمير أحمد بن طولون سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) وأنفق على هذا الإصلاح ألف دينار . وكان يعهد فى قراءة مقاييس النيل فى أوائل العصر العربى إلى قياسين من القبط ثم حل محلهم قياسون من المسلمين بالتدريج .

قال يحى بن بكير : « أدركت القياس يقيس فى مقياس منف ويدخل بزيادته إلى الفسطاط » . وكان يوجد فوق ذلك داخل أسوار الحصن الرومانى القديم المعروف بقصر الشمع مقياس خامس للنيل . وقد عثر المسيو فورمون على آثاره سنة ١٧٧٥ م . ولا تزال أحجاره موجودة بمقبرة مار جرجس التابعة للروم الأرثوذكس بمصر القديمة .

نزول النقطة : قلنا إن نزول النقطة أو بعبارة أخرى عملية التنبؤ بوفاء النيل كانت من الحوادث الهامة جداً عند قدماء المصريين ، وعند القبط بمدينة الفسطاط وبعواصم الإسلام التى تلتها .

وكان المصريون يعتقدون أن النقطة تنزل ليلا فيما بين ١٠ و ١٧ بؤونة (١٧ و ٢٤ يونيو) أو فى أوائل فصل الصيف من كل عام . وهذا الاعتقاد مبنى بالطبع على ما كان يعرفه قدماء المصريين من أن سقوط الأمطار بالحبشة يبدأ فى أوائل شهر يونيو ويظهر أثرها فى ارتفاع مياه النيل بمصر فى أواخره ، ولذا كانت كل امرأة تضع فوق سطح منزلها قليلا من العجين فى كل ليلة من هذه الليالى ، فإذا خمر العجين كان ذلك دليلا على نزول النقطة وجلب ذلك لها نعمة وبركة عليها وعلى أهل منزلها طول العام .

وقد وصف المقريزى حالة العاصمة النفسية فى انتظار هذا الحادث السنوى وصفاً بديعاً . فكان إذا ما وثق القوم من الوفاء ، انتشر المنادون فى المدينة وجلهم من الأطفال يغنون وينشدون أناشيد النهر التى توارثها الخلف عن السلف منذ عهد قدماء المصريين إلى الآن وترجمتها هى : « البحر زاد — غرق البلاد » .

مهرجانات وفاء النيل

أما الاحتفالات التى كانت تقام بمدينة الفسطاط بهذه المناسبة السعيدة ، فكانت من أبهج الحفلات الشعبية وأحبها إلى قلوب الناس . وكانت هذه الحفلات فى الواقع من التقاليد القديمة التى ورثها المصريون عن العصور الفرعونية ، وعما كان يقام فيها من الطقوس لتمجيد النهر . وقد بقيت من هذه الحفلات حفلة أو مولد الشهيد ومدته شهر .

فكان أهالى مدينة مصر ينتقلون إلى بلدة شبرا حيث كان دير قديم باسم الشهيد أنبا يحنس ، وكان به صندوق صغير من الخشب فى داخله إصبع هذا الشهيد .

فإذا كان ثامن شهر بشنس من الشهور القبطية يخرجون تلك الاصبع من الصندوق ويغسلونها فى نهر النيل لاعتقادهم أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى تغسل فيه تلك الاصبع ، ويسمى هذا العيد عيد الشهيد ، ولذا اشتهرت بلدة شبرا باسم شبرا الشهيد أو شبرا الخيمة أو الخيم أو الخيام لأن الناس على اختلاف طبقاتهم كانوا يحتفلون سنوياً بذكرى مولد الشهيد فى خيام ينصبونها على شاطىء النيل تجاه هذه البلدة ، وهى واقعة الآن عند فم ترعة الاسماعيلية .

وعند تمام الفيضان كانت تقام الأفراح وتنتشر الملاهى الفاجرة فى الزوارق وعلى شواطىء النيل .

وفى سنة ٧٠٢ هـ (سنة ١٣٠٢ م) أبطل الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير مولد الشهيد هذا لكثرة ما كان يقع فيه من الفتن وقتل النفوس وشرب الخمر .

وذكر ابن عبد الحكم أنه لما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص جاء إليه القبط وقالوا له إن لنيلنا سُنَّة لا يجرى إلا بها وهى أنه إذا كان اثنتا عشرة ليلة خلت من بؤونة عمدنا إلى جارية بكر مليحة نأخذها من أبويها غصباً ونجعل عليها الحلى والحلل ثم نلقيها فى نهر النيل فى مكان معلوم عندنا (عند المقياس بالجزيرة) .

فأجابهم عمرو بأن هذا لا يكون فى الإسلام أبداً .

فأقام أهل مصر بؤونة وأبيب ومسرى لم يزد فيها النيل ، فلما رأى أهل مصر ذلك همّوا بالجلاء عنها .

فلما رأى عمرو بن العاص ذلك كتب كتاباً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ولما وصل إليه الكتاب وعلم ما به كتب بطاقة وأرسلها إلى عمرو بن العاص وأمره أن يلقيها فى نهر النيل . فلما وصلت إليه فتحها فإذا فيها مكتوب « بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر المبارك . أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله تعالى هو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك » . فألقاها عمرو بن العاص فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد وهو فى السابع عشر من توت . فأجرى الله تعالى النيل فى تلك الليلة ست عشرة ذراعاً فى دفعة واحدة . فلما عاين أهل مصر ذلك فرحوا بإبطال تلك السنة السيئة » .

وأقول : هذا هو أساس أسطورة عروس النيل التى لا تزال للآن عالقة بالأذهان ، وهى مبنية على رواية ابن عبد الحكم . قال المرحوم الأستاذ توفيق حبيب الذى كان يعرف باسم « الصحافى العجوز » فى أحد هوامشه بجريدة الأهرام الغراء : «ابن عبد الحكم هذا هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع :

فقيه مصرى عالم من جلة أصحاب مالك ، ولد فى الاسكندرية سنة ١٥٠ هـ وتوفى بالقاهرة سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ م) أعنى بعد الفتح بأكثر من قرنين ، وقد انتهت إليه رياسة القضاء بعد أشهب وكتب عدة مصنّفات فى الفقه والتاريخ أشهرها « فتوح مصر » التى ذكر فيها الرواية المذكورة عن عروس النيل .

ولكن لقد سبق ابن عبد الحكم العشرات من المؤرخين المصريين واليونان والعرب ومنهم من حضر أيام الفتح وسجل أخبارها كلها . ولم يشر أحدهم إلى حكاية « عروس النيل » . ثم أتى بعده كثير من مؤرخى العرب المدققين فكذبوا القصة ونفوها . وفى منتصف القرن الماضى نهض لدحضها علماء الآثار المصرية وفى مقدمتهم ماسبيرو وبتلر وعلماء المصريين وفى طليعتهم أحمد كمال باشا ، وميخائيل شاروبيم بك ، وجورجى زيدان وتوفيق أسكاروس .

وعهدت وزارة المعارف إلى بعض رجالها فى بحث الموضوع فقرروا كذب الرواية وأمرت بحذفها من كتب التاريخ المقررة المدارس الابتدائية والثانوية والمعلمين » .

وأقول : الواقع أن هذه الأسطورة فرية على مصر ، وأقباط مصر ، وإنها لغالطة لا يصح أن يمر بها المصريون كراماً إذ لا يعقل أن يجيز الدين المسيحى وهو دين عيسى بن مريم لقبط مصر تقديم ضحايا بشرية للنهر ! ! !

صحيح أن الوثنية المصرية القديمة كانت تبيح تقديم الضحايا البشرية ، ولكن حتى فى عصر الوثنية أبطلت الضحايا البشرية واستبدلت بالذبائح كما هو ثابت فى ثنايا التاريخ المصرى القديم . ولم يبق من هذه العادة إلا الذكرى التى رددتها الأجيال التالية والتى وصلت إلينا منسوبة زوراً إلى قبط مصر فى عهد عمرو بن العاص .

وحتى المكان الذى قيل إن عروس النيل كانت تلقى عنده فى النهر فى عهد قدماء المصريين ليس له وجود . فلا جزيرة الروضة كانت موجودة أيام قدماء المصريين ولا المقياس كان موجوداً فى هذا المكان على أيامهم .

أما الشىء الثابت لدينا فهو أن مصر كانت تحتفل فى جميع عهود استقلالها بعيد السنة المصرية الزراعية فى أول شهر توت ، إذ يبلغ فيضان النيل ذروته من الارتفاع ، فيتخذ السكان على اختلاف أديانهم هذا اليوم عيداً قومياً ويستقبلونه فرحين جذلين ، لأنهم يرون فيه بشيراً بالرخاء .

وقد اتخذ الأقباط هذا اليوم — يوم أول شهر توت — بداية لسنتهم منذ عهد الشهداء إلى الآن .

وفى العصر القبطى كانت مصر تحتفل احتفالا رائعاً بهذا العيد تحت اسم عيد الصليب . وقد بقى هذا العيد حتى نهاية العصر العربى . أما فى العصر التركى فقد عرف هذا العيد باسم عيد جبر الخليج .

ولم يزل للآن مهرجان جبر الخليج رمزاً لما كان فى الماضى ، إذ لا خليج الآن فيجبر ولا موعد محدد يحتفل فيه بوفاء النيل .

وكم يكون جميلا لو رجعت مصر إلى أعيادها الأصلية ، وجعلت من رأس السنة المصرية الزراعية فى أول شهر توت أى جعلت من عيد النيروز عيداً قومياً للمصريين جميعاً يحتفلون به بنيلهم المبارك كما كان يحتفل به أسلافهم .

الفصل العاشر

جزيرة الروضة

وأهم معالمها القديمة والحديثة

تعاقبت على جزيرة الروضة الأجيال وهى رابضة فى مجرى النهر تجاه مدينة مصر ، كلما نحرت فيها المياه جنوباً طرحت وامتدت شمالاً ، إلى أن ثبتت على شكلها الحالى بعد إنشاء المقياس فى طرفها الجنوبى فى القرن الثامن الميلادى .

أما متى تكونت هذه الجزيرة ؟ فمن الصعب جداً الرد على هذا السؤال . . . ولكن الثابت لدينا أن جزيرة الروضة لم تكن موجودة فى العصر الفرعونى ، وأن ما ذكره ابن عبد الحكم من إلقاء عروس النيل عند المقياس بالجزيرة منقوض من أساسه ، فلا الجزيرة كانت موجودة ولا المقياس كان موجوداً ، وقد تكلمنا عن هذا الموضوع بتوسع فى الفصل السابق . ويكفى الآن أن نذكر أن أهم مقاييس النيل فى المنطقة المعروفة الآن باسم منطقة القاهرة إنما كان أولها فى معبد مدينة منف ، وثانيها فى معبد مدينة أون (عين شمس) ، وثالثها داخل أسوار حصن بابيلون (قصر الشمع) . . . وكان هناك مقاييس أخرى ثانوية . فأنت ترى من ذلك أن ما ذكره ابن عبد الحكم فى كتاب « فتوح مصر وبلاد الغرب » عن عروس النيل ، مجرد أسطورة بعيدة كل البعد عن الصواب . وقد عاش ابن عبد الحكم هذا أيام احمد بن طولون ، وروى لنا فى كتابه الشىء الكثير عن مصر منذ الفتح الإسلامى إلى أيام احمد بن طولون ، ولكنه لم يتحرّ الدقة فى روايته . . .

ولم تذكر جزيرة الروضة كموقع له أهمية حربية إلا فى عصر الفتح العربى . فقد كانت فى ذاك العهد ذات حصون ومنعة وكانت تزيد فى قوة حصن بابيلون وخطره الحربى بأنها كانت وسط النهر تملك زمامه . وقد التجأ إليها زعماء الروم عند محاصرة الحصن ، وأقاموا داخل أسوارها المنيعة المحيطة بها من جميع جهاتها بين البساتين والحدائق الجميلة فى انتظار الفرج . . . ولكن الفرج لم يأت . . . فطلب المقوقس الصلح . . . وقد دارت مفاوضات الصلح بين رسل عمرو وبين مندوبى المقوقس فى هذه الجزيرة أولا ، فلما فشلت هذه المفاوضات ، غزا العرب تلك الجزيرة وهرب الروم منها . وبعد ذلك تم الصلح فى حصن بابيلون كما هو معروف ، وعندها دك عمرو أسوارها وحصونها فبقيت مجردة عاطلة خربة حتى أيام ابن طولون .

وقد أعاد ابن طولون بناء أسوارها وحصونها فى سنة ٨٧٦ م وجعلها مقراً لخزائن أمواله واتخذ فيها القصور لنسائه . لكن بعد موته طغى الماء على تلك الدور والقصور فدمرها شيئاً فشيئاً .

ثم جاء محمد بن طغج الأخشيد وبنى فيها سنة ٣٢١ هـ (٩٣٢ م) داراً ذات بساتين واتخذ فيها داراً للنوبة وداراً للغلمان . وسمى هذه الدار « المختار » . وفى الروضة الآن شارع اسمه المختار يقع فى موضعها . وقد أقام ابن طغج

داره هذه مكان دار الصناعة القديمة حيث كانت تبنى السفن والمراكب الحربية ، وقد أقيمت دار الصناعة بالروضة سنة ٥٤ هـ (٦٧٣ م) وظلت تعمل حتى أيام ابن طولون . ثم أحرقت فى زمن الأخشيد سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٤ م) .

وعلى أيام الفاطميين ، أصبحت جزيرة الروضة من المتنزهات وأنشئت فيها المناظر (القيلات) الكثيرة وأشهرها منظرة « الهودج » أنشأها الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية بجوار « المختار » .

أما فى أيام الأيوبيين فقد دخلت الجزيرة بما حوته فى ملك ابن أخى صلاح الدين . ولما ولى العرش الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بنى فى الجزء الجنوبى منها قلعة هائلة لا تقل مساحتها عن ٦٥ فداناً أسند حراستها إلى المماليك من جنده وأطلق عليهم اسم « المماليك البحرية » .

وقد هدم الملك الصالح نجم الدين أيوب الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة وحوّل الناس من مساكنهم وهدم كنيسة كانت للقبط بجانب المقياس وأدخل كل ذلك فى القلعة . وأنفق فى عمارتها أموالا كثيرة ، و بنى فى داخلها الدور والقصور وعمل لها ستين برجاً و بنى بها جامعاً وغرس بها أشجاراً نادرة ، ونقل إليها كثيراً من الأعمدة الصوان والرخام التى نزعها من البرابى والكنائس من ناحية منف و بابليون وعين شمس وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والزاد والأقوات خشية محاصرة الصليبيين له لأنهم كانوا فى هذا الوقت قد نزلوا بدمياط واحتلوها ثم اعتزموا السير إلى القاهرة .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب يقف بنفسه ، يرتب ما يعمل بهذه القلعة فصارت تدهش الناظر بكثرة زخرفها وتحير من يشاهدها بحسن سقوفها المزينة وبديع رخامها . ويقال إنه قطع من الموضع الذى أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر بحسن منظره وطيب طعمه ، وخرب « الهودج » و« المختار » وهدم ثلاثة وثلاثين مسجداً (ربما مصليات) عمرها خلفاء مصر وسراة المصريين لإقامة الصلاة هناك .

وكان النيل عند ما عزم الملك الصالح على عمارة قلعة الروضة من الجانب الغربى فقط فيما بين الروضة و بر الجيزة ، وكان قد انحسر عن بر مصر ولا يحيط بالروضة إلا فى أيام الزيادة فلم يزل يغرق السفن فى البر الغربى و يحفر فى البر الشرقى بين الروضة ومصر و يرفع ما كان هناك من الرمال حتى عاد الماء إلى بر مصر .

وكانت جزيرة الروضة متصلة قبل الفتح الاسلامى بساحل النيل الشرقى بواسطة جسر (كوبرى) من المراكب . وكان هذا الجسر فى القرن الحادى عشر الميلادى مكوناً من ٣٦ مركباً كما ذكر ذلك السائح الفارسى ناصرى خسرو .

فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعته المذكورة بالروضة فى سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) ، أنشأ جسراً عظيما ممتداً من بر مصر إلى الروضة مكان أو بجوار الجسر الأصلى ، وجعل عرضه ثلاث قصبات (حوالى ½ ١٠ متراً) وهو الذى عرف قديماً باسم جسر (كوبرى) الملك الصالح .

وفى أيام محمد على باشا كان هذا الجسر قد تهدم وخرب ، فلما اشترت شركة توحيد الأراضى المصرية جزيرة الروضة من ورثة عباس باشا يكن مهدت هذا الكوبرى وشيدته من جديد وأقامت عليه سكة حديد ضيقة تصل الروضة بجبل السعود لنقل الرمال من هناك إلى الجزيرة لرفع منسوب أرضها .

وفى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى أعيد بناء كوبرى الملك الصالح بدير النحاس وأنشىء كوبرى عباس الثانى بين الروضة وبر الجيزة .

هذا وقد بقيت قلعة الملك الصالح بالروضة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب ، فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى أول سلاطين المماليك البحرية سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) أمر بهدمها وعمر منها مدرسته المعروفة بالمعزية بمدينة مصر . وطمع فى القلعة من له جاه فأخذ جماعة منها عدة سقوف وشبابيك كثيرة وغير ذلك ، وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة .

فلما صارت مملكة مصر إلى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى سنة ٦٥٧ هـ (١٢٦٠ م) اهتم بالقلعة وأمر بإعادة عمارة ما تهدم فيها ، وأمر بأبراجها ففرقت على الأمراء المماليك وأمر أن تكون بيوتات جميع الأمراء واصطبلاتهم بها وسلم المفاتيح لهم .

ولكن لما ولى الملك المنصور قلاوون سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) وشرع فى بناء مارستانه والقبة والمدرسة المنصورية المعروفة بالنحاسين أمر بهدم مبانى هذه القلعة ونقل منها ما تحتاج إليه عمارته الجديدة من عمد الصوان وعمد الرخام التى كانت قبل عمارة القلعة فى البرابى والكنائس وأخذ منها رخاماً كثيراً وأعتاباً عديدة .

وحذا ابنه الناصر محمد بن قلاوون حذو أبيه فنقل ما بقى بها من أعمدة وأحجار ورخام ومواد بناء واستعملها فى بناء الإيوان المعروف بدار العدل من قلعة الجبل والجامع الجديد الناصرى بظاهر مدينة مصر .

وهكذا ذهبت هذه القلعة وكأنها لم تكن . وقد تأخر منها عقد جليل تسميه العامة القوس كان على جانبها الغربى ظل باقياً إلى نحو سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) وقد بقى أيضاً من أبراجها عدة ثم انقلب أكثرها ، وبنى الناس فوقها دورهم المطلة على النيل .

وهكذا اختفت هذه القلعة التى كانت تقوم على مساحة قدرها ٦٥ فداناً كما قلنا سابقاً ومكانها المنطقة التى تحد اليوم من الشمال : بشارع الملك المظفر — ومن الغرب : بنهر النيل — ومن الجنوب : بسلاملك سراى حسن باشا المناسترلى وبمقياس النيل — ومن الشرق : بسيالة الروضة .

والسلاملك المذكور كان مكانه الجامع الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢م) على النيل بجوار المقياس من الجهة الغربية وعرف بجامع المقياس . وكانت بقايا هذا الجامع قائمة إلى سنة ١٢٦٧هـ (١٨٥٠ م) وفيها أزال حسن باشا المناسترلى تلك البقايا وبنى هذا السلاملك فى مكان جامع المقياس .

وبطرف جزيرة الروضة الجنوبى المقياس ويقال له المقياس الهاشمى وهو آخر مقياس بنى بديار مصر .

جزيرة الروضة منذ عهد محمد على باشا الى الآن

فى سنة ١٨١١ م أهدى محمد على باشا جزيرة الروضة إلى صهره عباس يكن باشا ، وكان الوصول إليها إذ ذاك بواسطة القوارب ، لأن كوبرى الملك الصالح القديم كان قد بلى وتداعى للسقوط .

وكانت الروضة فى ذاك الوقت أرضاً زراعية فلما توفى عباس باشا يكن وزوجته تبادلها الورثة ، ثم بيع الجزء الواقع إلى جنوب شارع الروضة الحالى إلى شركة توحيد الأراضى المصرية ليمتد .

ويقول البعض إن حسن باشا المناسترلى ورث أرض حديقته وأرض منزله عن عباس باشا يكن و إنه أبى أن يبيعها للشركة السابقة .

وفى عهد هذه الشركة مهد كوبرى الملك الصالح وشيد من جديد وأقيمت فوقه سكة حديد ضيقة تصل الروضة بجبل أبى السعود لنقل الرمال اللازمة لردم الجزيرة وتعلية أرضها . وكانوا أيضاً ينقلون الطمى من النيل للغرض نفسه بواسطة الكراكات .

و بعد أن مهدت أرض الجزيرة وأصبحت صالحة للتقسيم ، عسكر فيها الجيش الإنجليزى . ثم رحل الإنجليز عنها فانتظمت للبيع طبقاً للخريطة التخطيطية التى عملت عنها ، فتملكها كثير من الناس .

وفى أثناء وجود المعسكر الإنجليزى بها ؛ بنى كوبرى الخديوى عباس حلمى الثانى فوصل الجيزة بالروضة ، وكذا شيد كوبرى الملك الصالح من جديد و بقى اسمه كوبرى الملك الصالح تخليداً لذكرى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب قلعة الروضة المذكورة سابقاً .

وقد تم إنشاء هذين الكوبريين سنة ١٩٠٨ ، وأنشىء بينهما الطريق الذى يسمى الآن شارع الروضة ومد فيه شريط الترام .

وفى الثلاثين سنة الأخيرة امتد سيل الحياة الجارف إلى هذه المنطقة فشيدت فيها مئات المنازل والعمارات وامتدت فيها شبكة هائلة من الشوارع أهمها :

شارع النيل وأول منزل بنى فيه منزل محمود بك أبو النصر ، وشارع الأخشيد وأول منزل بنى فيه منزل المرحوم الشيخ محمد بك زيد مدرس بالحقوق سابقاً ، وشارع المقياس وأول منزل بنى فيه منزل أحمد رشوان ، وشارع قلعة الروضة وأول منزل بنى فيه منزل قمحة بك ، وشارع عاطف بركات وأول منزل بنى فيه منزل عاطف بك بركات ، ثم أبدل اسم هـذا الشارع باسم شارع حافظ ابراهيم حكيمباشى الخاصة الملكية تخليداً لذكره ، ثم شارع الملك الصالح وأول منزل بنى فيه منزل أمين رفعت ثم المدرسة الإنجليزية .

ويتقاطع مع هذه الشوارع شارع الملك المظفر ثم شارع المماليك الذى يقع على تقاطعه بشارع المنيل ميدان

المماليك البحرية ، ثم شارع المختار وشارع دار الصناعة ، وأول منزل بنى فيه منزل المرحوم على باشا ثاقب المستشار سابقاً .

أما اليوم فقد امتلأت الروضة شمالاً وجنوباً بالمنازل الآهلة بالسكان وتضاعفت حركة المرور فى الشارع الرئيسى ، ففيه الآن خط ترام الجيزة مزدوج كما تمر فيه وفى شارع المنيل سيارات شركة الثورنكروفت القاخرة وهى من وسائل النقل الحديثة السريعة بمدينة القاهرة .

قصر الأمير محمد على بمنيل الروضة

نشأت فى العصر التركى قرية صغيرة فى شمال جزيرة الروضة تعرف الآن باسم منيل الروضة . ويعتبر قصر الأمير محمد على توفيق ولى العهد درة فى جبين هذا المنيل إذ تربو مساحته على ١٧ فداناً . وهو موضع رياضة ونزهة سمو الأمير يدعو إليه أصحابه ينعمون فيه بالحياة خير ما ينعم إنسان بين الرياض الفيحاء والبساتين الغناء . وقد نفخ سموه من روحه الفنية فيه فجاء آية من آيات الفن التى تنطق بما عليه الأمير من ثقافة شرقية وذوق رائع ومعرفة تامة بأسرار الجمال المعمارى .

وبحديقة هذا القصر مجموعة متنوعة من الأشجار المغاربية وأغربها شجرة « البنين » .

ويحيط بالقصر سور على طراز هندى شيده الأمير بعد زيارته للهند .

أما المسجد الذى شيده سموه فى مطلع قصره فتحفة من آيات الفن العربى الحديث .

منيل الروضة فى ثلاثين عاماً

كان المنيل منذ ثلاثين عاماً مقصد العظماء من القوم يأتى إليه الكثيرون منهم ليختلسوا فيه سويعات السرور وليروّحوا عن أنفسهم عناء العمل . كما كان يقصده الناس لزيارة « الشجرة المندورة » التى تشفى الجروح المستعصية وتهب النسل للمرأة العاقر التى تمر تحت جذورها البارزة فوق سطح الأرض . وكان العامة والفقراء يجيئون جماعات فى الأعياد والمواسم خصوصاً فى عيد شم النسيم يحملون أشهى المأكولات وأطيب الثمار ويتغنون بأغانى حلوة عذبة ، ثم يركبون زوارق تنشر قلاعها لعبور النيل يردد فيها النهر أصوات الطبول والمزامير إلى ما بعد مغيب الشمس .

أما الآن فقد زال جمال الريف الطبيعى ، ولم يبق من المنيل القديم إلا أكواخ هى قذى فى عين طالبى النزهة .

ومع هذا لم يشأ الله أن يذهب بجمال المنيل ، بل بقيت فيه مسحة من جمال العواطف الإنسانية السامية ، فقد شيد فى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول مستشفى فؤاد الأول فى شماله تخفيفاً لضغط المرضى على مستشفى قصر العينى .

مستشفى فؤاد الأول

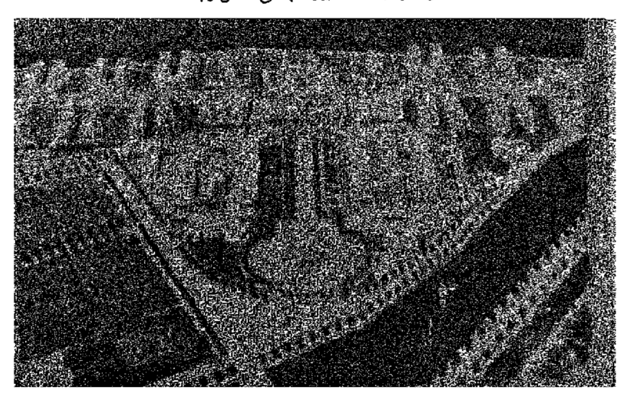
ظلت الأرض التى يقوم عليها مستشفى فؤاد الأول فى أقصى شمال جزيرة الروضة ومساحتها ٥٢ فداناً ، فضاء فسيحا يكتنفه النيل من جانبيه ، ويغمر الفيضان بعض أجزائه .

وقد كان هذا الموقع فى عصر الدولة الفاطمية بستاناً رائعاً فسيحاً . ذكر المقريزى أنه لما استولى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) على كرسى الوزارة ، أنشأ فى شمالى الجزيرة مكاناً للتنزه سماه « الروضة » وتردد إليه كثيراً فكان يسير فى موكب من داره بمصر إلى « الروضة » ، وبذلك صارت الجزيرة من ذلك الوقت تعرف كلها باسم الروضة . ومع الزمن زال هذا البستان ودرست معالمه وتحولت الأرض إلى الزراعة .

وفى ١٩٠٨ لما تولى الأمير أحمد فؤاد (المغفور له الملك فؤاد الأول) رياسة الجامعة المصرية الأهلية الناشئة عنّت له فكرة إنشاء بعض كليات الجامعة بهذا المكان .

وفى سنة ١٩١٧ لما جلس جلالته على عرش أبيه وجده ، صحت العزيمة على اختيار هذه الأرض لإقامة المستشفى وكلية الطب عليها ، ووضعت التصميات لمبانيها المختلفة ، ومن بينها تصميم مدخل رئيسى يقام فيه تمثال الملك فؤاد اعترافاً بفضله فى إقامة هذه المؤسسة العلمية التى لا تدانيها فى العظمة أو فى الدقة مؤسسة فى العالم .

وقد لوحظ فى تصميمها ، أن تحقق الغرضين الأساسيين منها على أكمل وجه .



تصمم مبانى مستشفى فؤاد الأول بجزيرة الروضة .

لذلك حوت مجموعاتها أقساماً تناولت جميع فروع الطب فى التشخيص والعلاج ، وأنشئت بها صيدلية اصرف الأدوية للجمهور . وبهذا استوفت ما يجب للأغراض التعليمية فى جميع فروع الطب ، كما استوفت ما يجب للعلاج . واستيفاؤها هذين الغرضين هو الذى جعلها أكبر مجموعة طبية فى العالم .

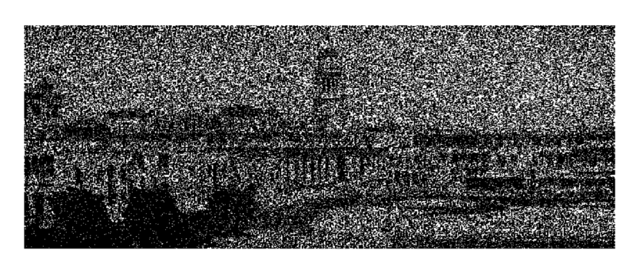
وقد تم بناء هذا المستشفى خلال خمس عشرة سنة بذل أثناءها من الجهد والمال ما لم يكن يتيسر بذله لولا رعاية مليك البلاد فؤاد الأول عليه رحمة الله ورضوانه ولولا عطفه على هذا العمل العظيم وتشجيعه للقائمين به ، وحرصه على تمامه .

وقد قدرت التكاليف النهائية لإقامة المستشفى وكلية الطب بمبلغ ١٫٣٦٥٫٠٠٠ جنيه . أنفق منها فى بناء المستشفى نحو ٨١٥٫٠٠٠ جنيه .

وقد قام هـذا المستشفى وملحقاته ، صروحا مشيدة للعلم والبحث ورعاية الإنسانية ، وها هى ذى تشهدها اليوم أعين جميع المقيمين بمصر فيأخذها الإعجاب بجلالها وعظمتها ، وتشهدها أعين الأجانب عن مصر ، فيقرون لها بالتفرد بين نظائرها فى العالم فخامة ونظاما ودقة .

وقد أنهض العمل فى هذه المؤسسة الجليلة صناعات شتى لم تكن معروفة قبله فى مصر ، وكان الوارد منها إلى البلاد يستنفد قدراً جسيما من أموالها . فنشأت صناعة النوافذ والحواجز والدواليب المعدنية (كريتال) ، وصناعة الرخام الصناعى المصقول المعروف باسم « التراتزو » ، وصناعة الطلاء بالكروم ، وصناعة الأرضيات الكاوتشوك وصناعات أخرى توطنت فى هذه البلاد وأغنتها عن الاستيراد من الخارج . وهكذا يعيد هذا المستشفى ذكرى ما كان فى جزيرة الروضة من صروح وقلاع قديمة هائلة .

ويعتبر مستشفى فؤاد الأول بجزيرة الروضة جزءاً متمماً لمبانى جامعة فؤاد الأول بالجيزة ، ولذا فلا تزال الحاجة ماسة إلى إقامة كوبرى يوصل شارع الجامعة بالجيزة بمستشفى فؤاد الأول بجزيرة الروضة وبمبانى كلية الطب بالقصر العينى اختصاراً فى وقت الطلبة والأساتذة وربطاً لوحدات الجامعة بعضها .



مستشفى فؤاد الأول بجزيرة الروضة وملحقاته . وقد قام صروحاً مشيدة للعلم والبحث ورعاية الإنسانية.

كوبرى محمد على

أنشىء هـذا الـكوبرى لوصل القاهرة بجزيرة الروضة عنـد القصر العينى . وطوله ٦٧ متراً على ثلاث فتحات . وأسسه عبارة عن أسطوانات عملت بطريقة الضغط الجوى . ويصل هذا الكوبرى الآن مستشفى القصر العينى بمستشفى فؤاد الأول . وقد سمى كوبرى محمد على لأنه يوصّل إلى قصر الأمير محمد على توفيق ولى العهد بمنيل الروضة .

وقد أنشىء فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٩٠٨ . ويبلغ عرض هذا الكوبرى ١٥ متراً منها ١٢ متراً لبحر الطريق ومتر ونصف عرض كل من الافريزين . وقد بلغت تكاليف إنشائه ١٦٫٥٠٠ جنيه مصرى .

كوبرى الملك الصالح

أنشىء لوصل جزيرة الروضة بالقاهرة عند مصر القديمة . وصار تسلمه من المقاول السير وليم أورل فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى سـنة ١٩٠٨ . وطوله ٨٣ متراً ويتكون من ثلاث فتحات . وأسسه مكونة من أسطوانات خرسانية عملت بطريقة الضغط الجوى . وعليه شريط مزدوج من أشرطة الترام الموصلة للجيزة . وعرض هذا الكوبرى ١٥ متراً ، منها ١٢ متر ابحر الطريق ومتر ونصف عرض كل من الأفريزين . وقد بلغت تكاليف إنشائه ١٩٫٠٠٠ جنيه مصرى .

كوبرى عباس الثانى

أنشىء لوصل جزيرة الروضة بالجيزة . وصار تسلمه من المقاول السير وليم أورل فى ٦ فبراير سنة ١٩٠٨ فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى . وطوله ٥٣٥ متراً . وله ثمانى فتحات ثابتة طول كل منها ٤٢٫٧٦ متراً ، وله أيضاً فتحتان طول كل منهما ٤٣٫٥٣ متراً ، وفتحتان أخريان طول كل منهما ٢٠٫٥٧١ متراً ، ثم له بعد ذلك فتحة ملاحية متحركة طولها ٦٥٫٦٤ متراً .

ويبلغ عرض هـذا الـكوبرى ٢٠ متراً منهـا ١٥ متراً لبحر الطريق ومتران ونصف عرض كل من الأفريزين . ويمر عليه شريط مزدوج من أشرطة الترام الموصلة للجيزة .

أما أسسه وبغلاته فتتكون كل بغلة من قاسونين أسطوانيين يبعد أحدهما عن الآخر بمقدار ١٤٫٤٠ متراً من المحور إلى المحور . وتنزل هذه القاسونات إلى منسوب (— ٧٫٠٠) . وكل اسطوانة مكونة من غلاف من الصلب مملوء بالخرسان . وهذا الغلاف مصنوع من الصلب لغاية قاع النهر ثم من الحديد الزهر فيما علا ذلك .

ونظراً لأن بغلات هذا الـكوبرى مركبة من اسطوانتين فقد حدث هبوط فى إحدى الاسطوانتين ترتب عليه التواء فى الـكمرات الرئيسية وأصبح الـكوبرى على غير المتانة المطلوبة .

وقد بلغت تـكاليف إنشائه ١٨٠٫١٠٠ جنيه مصرى .

مقياس النيل بجزيرة الروضة :

يبدو مما ذكره المقريزى وسواه فى أمر المقياس ، أن العرب ، بعد الفتح مباشرة ، اعتمدوا على مقاييس النيل القديمة التى كانت موجودة بمعبد منف وجزيرة أسوان ومعبد دندره ومعبد أنصنا وربما يكونون قد قاموا ببعض الترميمات فيها مما دعا مؤرخيهم إلى القول بأن عمرو بن العاص بنى مقياسا بأسوان وبدندره ثم بنى فى أيام معاوية ابن سفيان يعنى فى ولايته الثانية على مصر من سنة ٣٧ إلى سنة ٤٣ هـ (٦٥٧ — ٦٦٣ م) مقياسا آخر بأنصنا . (وأنصنا هى الآن القرية المعروفة باسم الشيخ عباده بمركز ملوى بمديرية أسيوط) .

فأين إذن ما ذكره الحسن بن محمد بن عبد المنعم من أن عمرو بن العاص بنى مقياساً بحلوان ، بناء على تعليمات الخليفة عمر بن الخطاب ، بتقاسيم تختلف عن تقاسيم المقاييس المصرية القديمة ؟

يقول الأستاذ محمد قاسم المفتش بمصلحة الطبيعيات فى كتابه « مقياس الروضة » طبعة سنة ١٩١٢ : « لا بد أن يكون هذا المقياس قد أقيم بحلوان بعد الفتح بسنتين أو ثلاث فى ولاية عمرو بن العاص الأولى من سنة ٢٠ إلى سنة ٢٥ هـ (٦٤١ — ٦٤٦ م) ، واستعمل إلى أن بنى عبد العزيز بن مروان مقياسه مكانه بحلوان سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) هذا مع العلم بأن المؤرخ المصرى جرجس بن العميد ذكر أن المقياس الذى بناه عبد العزيز بن مروان بحلوان هدمته المياه سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) أى بعد بنائه بمدة ١٦ عاما فقط .

ولا بد أن يكون عمرو بن العاص قد اعتمد على مقياس القبط بمنف حتى الانتهاء من بناء مقياسه ، هذا مع ما هو معلوم من أن مقياس منف ظل مستعملا مع استعمال المقاييس الإسلامية لغاية سنة ٢٣١ هـ (٨٤٥ م) على قول يحيى بن بكير .

وربما كان السبب الذى دعا عمرو بن العاص وعبد العزيز بن مروان إلى تغيير أذرع المقاييس التى أنشأوها بحلوان ، على ما ذُكر برواية الحسن بن محمد بن عبد المنعم ، ما هو معروف من أن القبط كانوا يدفعون الخراج بنسب خاصة تبعاً لارتفاع مناسيب النيل . فإذا انتهت الزيادة إلى ١٦ ذراعا ففيه خصب الأرض وتمام الخراج . أما إذا زاد على السبع عشرة وبلغ ثمانى عشرة ذراعا وغلقها استبحر من أرض مصر الربع وفى ذلك ضرر لبعض الضياع يترتب عليه عدم دفع جزء من الخراج .

وكذلك إذا قلت الزيادة عن الذراع الرابع عشر استسقى الناس وامتنعوا عن دفع الخراج .

فلملافاة هذه الحالة ، جعل عمرو الاثنى عشر ذراعاً ١٤ ذراعاً ضماناً لدفع الخراج فى الفيضانات المنخفضة .

إلا أنه ظهر بسرعة عدم صلاحية هذين المقياسين . فما إن هدم مقياس عبد العزيز بن مروان سنة ٩٦ هـ (٧١٤م) حتى أقام أسامة بن زيد التنوخى مقياسه بالروضة بأذرع تعادل فى طولها طول أذرع مقياس النيل القديم .

وقد تكون أبعاد الطاقات التى ظهرت حديثاً عند الكشف على زاوية السلم بمجرى المقياس مباشرة هى الأبعاد الأصلية المقررة فى طول أذرع مقياس النيل القديم . و يبدو أن هذه الطاقات ترجع إلى عهد أقدم من العهد الإسلامى وربما كشفت لنا الأيام كنهها فى المستقبل .

وأسامة هذا هو الذى بنى بيت المال بمصر . وكان عامل الخراج بها . فلما تهدم مقياس عبد العزيز بن مروان سنة ٩٦هـ كتب إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان ، وكان قد ولى الخلافة ، ببطلان ذرع هذا المقياس وأن المصلحة بناء مقياس جديد تتفق أطوال أذرعه مع أطوال أذرع المقاييس الأصلية للنيل . فأجابه سليمان ببناء مقياس فى الجزيرة (يعنى الروضة) فبناه أسامة فى سنة ٩٧هـ (٧١٥م) .

وظل مقياس أسامة مستعملا حتى هدمته المياه أيضاً . وفى سنة ١٩٩ هـ (٨١٤م) بنى المأمون مقياساً بالبروذات ولم يتمه ، وقد رمم مقياس المأمون هذا سنة ٢٣٣هـ (٨٤٧ م) .

وفى سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١م) فى آخر عهد الخليفة المتوكل على الله جعفر العباسى وفى ولاية يزيد بن عبد الله التركى على مصر ، تم إنشاء المقياس الذى لم يزل موجوداً للآن بجنوب جزيرة الروضة .

وقد أنفذ الخليفة العباسى إلى مصر من العراق محمد بن كثير الفرغانى المهندس القدير للإشراف على بنائه ، و بعد ما تم بناؤه أطلقت عليه الأسماء التالية : « المقياس الهاشمى » و « المقياس الجديد » و « المقياس الكبير » وهو بعينه الذى نسميه الآن « مقياس الروضة » .

و بناء على توقيع من الخليفة المتوكل ، جعل يزيد بن عبد الله التركى أمير مصر ، على المقياس ، أبا الرّداد الفقيه المعلم . و يقال إن أصل أبى الردّاد هذا من البصرة . واسمه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله أبى الرّداد المؤذن .

قال الحافظ ابن يونس : قدم أبو الرّداد مصر وحدّث بها وجُعل على قياس النيل فلم يزل المقياس من ذلك الوقت فى يد أبى الرداد وأولاده إلى يومنا هذا .

ومات أبو الرداد المذكور فى سنة ٢٦٦هـ (٨٧٩م) .

و بعمارة مقياس المتوكل هذا بطل استعمال كل مقياس كان قد بنى قبله فى الوجه القبلى وفى الوجه البحرى ، واستمر الحال على ذلك إلى أن ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون الديار المصرية . فركب من القطائع فى سنه ٢٥٩هـ (٨٧٣م) ومعه أبو أيوب صاحب خراجه و بكار بن قتيبة القاضى ، فنظر إلى المقياس وأمر بإصلاحه وقدر له ألف دينار . فعمر وكان لم يمض على بنائه ١٣ سنة فقط .

وكانت هذه أول وآخر عمارة أجريت به إلى أن دخلت مصر فى حيازة الفاطميين . فلما تولى الخلافة المستنصر بالله ،

عمر وزيره بدر الجمالى بناء المقياس سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وبنى غربيه جامعاً سماه « جامع المقياس » فى مكان كنيسة قديمة للروم الملكيين .

ثم مضت ٤٠٠ سنة تقريباً على عمارة بدر الجمالى لم يذكر فيها شيء عن إصلاح المقياس .

وفى سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) ذكر ابن إياس أن الملك الأشرف قايتباى توجه إلى المقياس ، ودخل إلى قاعدته ، وأمر بتجديد بعض أماكنه و إصلاح أساسه .

ولما انقضت دولة المماليك الجراكسة ، ودخلت مصر تحت الحكم التركى ، نسب إلى كل من السلطان سليم الأول ، والسلطان سليمان الأول ، والسلطان سليم الثانى ، إجراء عمارات بالمقياس لم تعرف أهميتها ، ولا تاريخ إجرائها .

وفى سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م) فى عهد السلطان مصطفى الثانى ، أمر حمزه باشا الوالى التركى حينذاك بتجديد العتب الخشبى الأفقى الموضوع على رأس عمود المقياس لتثبيته فى موضعه وضمان عدم اهتزازه .

وفى عهد على بك الكبير سنة ١١٨٣ هـ (١٧٦٩ م) تمت إصلاحات كثيرة بالمقياس .

المقياس فى عهد الحملة الفرنسية :

نثبت هنا المحضر الذى كتبه المسيو « لوبير » كبير مهندسى حملة بونابرت ، عن الترميمات التى قامت بها الحملة الفرنسية فى مقياس النيل بين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨٠١ م :

كان المقياس قد دمر تدميراً عظيماً فى أثناء الهجوم على القاهرة ، لا سيما وأن فرقة من الطوبجية أقامت مدافعها فى جواره وجعلت إحدى الغرف التى فوقه مخزناً للبارود . فأمر قائد الحامية الجنرال « مينو » بترميمه لما علمه من شدة تعلق الأهالى بالأشياء الدينية إذ كانوا يعدون المقياس معهداً دينياً ، ولما رآه من أنه موضع احترام و إجلال من كافة المصريين .

ولا شك أن جميع مهندسى الحملة قد أعجبوا بالمقياس ، وبما أنهم كانوا يريدون الاستمرار فى قياس منسوب مياه النيل بواسطته ، فقد بحثوا كثيراً ونقبوا عن أمر تقسيمه إلى أذرع وعن طوله الحقيقى ، لأن آراء العلماء والزائرين والأهلين أنفسهم فى هذا الشأن كانت مختلفة اختلافاً عظيماً . فللوصول إلى الحقيقة ، طهروا البئر إلى قاعها فى حضرة السيد مصطفى سقا باشا وحضرة شيخ المقياس . وقد وصلوا إلى كشف الجزء الأسفل من العمود ، فوجدوا ما يأتى :

أما العمود فينقسم إلى ١٦ ذراعا ، فالأذرع الست السفلى غير مقسمة ، والعشر العليا مقسمة كل منها إلى ٢٤ قيراطاً . ويبلغ مقدار الذراع من الست عشرة ذراعا ٥٤ سم بالمقياس الفرنسى . أما طول تاج العمود فذراع وأربع أصابع وقد ركب عليه عمود آخر ارتفاعه ذراع وأصبعان . ونظراً لأنه فى أثناء بضعة القرون الماضية

كان فيضان النيل قد تجاوز فى بعض الأحيان الذراع السادسة عشرة فقد قسم تاج العمود والعمود الآخر المركب فوقه إلى أذرع وأصابع فبلغ ١٨ ذراعا و ٦ أصابع وبذا تسنى معرفة مقياس الفيضانات المفرطة .

وكان الكمر الذى وضعه حمزه باشا قائمقام القاهرة سنة ١١٨٠ ﻫ (١٧٦٦ م) أعلى عمود المقياس لتثبيته قد بلى وتداعى للسقوط فأبدلناه بآخر من قطعة واحدة ثبتناه بالسقف من الشرق إلى الغرب وأسندناه إلى رأس عمود المقياس وبيضنا البئر بالبوية ، ولكننا احتفظنا بالنقوش الكوفية والعربية فلم نمسها بشىء . وقد جددنا الحاجز المقام حول البئر والغرفتين المجاورتين له المخصصتين لشيخ المقياس ، وشيدنا بوابة عند مدخل المعهد ووضعنا فى قمتها لوحة من رخام أبيض قد نقش عليها بالمداد الذهبى بالفرنسية والعربية ما يأتى :

A.P.F. An : IX (أى الجمهورية الفرنساوية . السنة التاسعة من تأسيس الجمهورية) وقد عهدنا بأعمال جميع الترميمات فى المقياس إلى المسيو دى شابرول . اﻫ .

ولما انتهت الحملة الفرنسية وعادت مصر إلى الحكم التركى زار القاهرة المسيو جوبرت الذى كان مترجماً فى الحملة فوجد أنهم نزعوا اللوحة المذكورة ووضعوا أخرى بدلا منها وقد نقش عليها ما معناه : « بالرغم من جميع ما قيل فى فيضان النيل فى سنتى ١٢١٥ و ١٢١٦ ﻫ فان البلاد بفضل حكم الباشاوات الجدد سائرة على أحسن مما كانت عليه من قبل » ثم قال : « ويخيل لنا أن الأتراك ظنوا أن غرضنا من وضع هذه اللوحة ما كان إلا لإثبات مآثرنا ولكنهم قد تركوا التاريخ الفرنسى الموجود على القمة إما سهواً منهم أو لأنهم لم يفهموا معناه لأنه منقوش بالأحرف اللاتينية .

وقد قاس المهندسون الفرنسيون أذرع المقياس فوجدوها مختلفة بعضها عن بعض كالآتى :

الذراع		المقدار	
الذراع الأولى	تبلغ	٥٤٠	ملليمتراً
« الثانية	«	٥٤١	«
« الثالثة	«	٥٣٥	«
« الرابعة	«	٥٣٦	«
« الخامسة	«	٥٤٣	«
« السادسة	«	٥٣٨	«
« السابعة	«	٥٣٦	«
« الثامنة	«	٥٤١	«
الذراع التاسعة	تبلغ	٥٤١	ملليمتراً
« العاشرة	«	٥٣٦	«
« الحادية عشرة	«	٥٤٨	«
« الثانية عشرة	«	٥٥٠	«
« الثالثة عشرة	«	٥٤٦	«
« الرابعة عشرة	«	٥٣٦	«
« الخامسة عشرة	«	٥٣٩	«
« السادسة عشرة	«	٥٤٠	«

فتكون الجملة ٨و٦٤٦ متراً

وبقسمة الجملة على ست عشرة ترى أن متوسط ذراع المقياس هو ٥٤١ ملليمتراً تقريباً . ولا شك فى أن ما بين تقاسيم الأذرع من الاختلاف ناشىء عن قلة الدقة فى التقسيم .

المقياس من عهد محمد على باشا الى اليوم

ولما تولى ساكن الجنان محمد على باشا زمام الحكم بمصر قام بإصلاح المقياس والمحافظة عليه .

وفى سنة ١٣٠٥ ﻫ (١٨٨٧ م) باشرت نظارة الأشغال العمومية تطهير بئر المقياس ورفع ما تراكم به من الطين والأنقاض حتى بلغت الذراع الثالث من أذرع العمود فوجد بين الأنقاض المستخرجة بقايا الأعمدة التى صنعها الفرنسيون منقوشاً عليها الذراع الثامنة عشرة البالغ ارتفاعها ٥٨و٠ من المتر .

كذلك أنشأت نظارة الأشغال مقياساً مترياً جديداً فى الضلع البحرى لزاوية سلم المرساة بحرى المقياس مباشرة وصفر هذا المقياس الذى يعلو سطح البحر الأبيض المتوسط بمقدار ١٢ ½ متراً يطابق الذراع الثامنة والقيراط ١٥ ½ ، أما آخر تقاسيمه فينتهى عند المستوى الذى يعلو سطح البحر بمقدار ٢١ متراً .

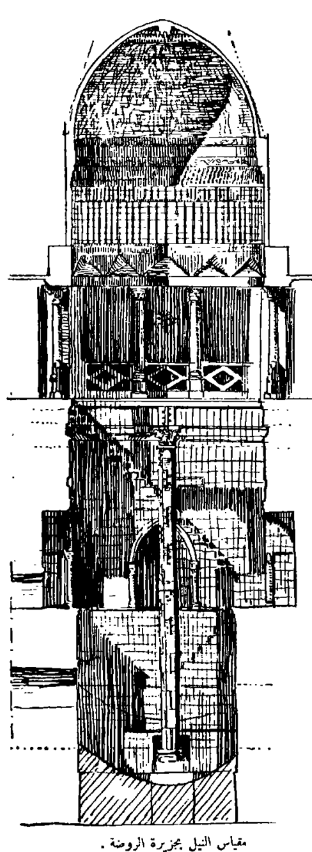
و بعد الفراغ من هذه الأعمال هبط عمود المقياس ١٤ سنتيمتراً فاهتمت لذلك نظارة الأشغال ورممت جدران البئر وجددت عقدى عموده بعد أن ضمت له تاجاً من رخام على مثال التاج القديم الذى كان فى عهد الفرنسيس . ثم أثبتت هذه الأعمال فى لوح من رخام ثبت فى أعلى الحائط الغربى للبئر وعليه تاريخ الإصلاح وهو سنة ١٣١١ ﻫ (١٨٩٣ م) فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى .

وفى سنة ١٣٤٣ ﻫ (١٩٢٥ م) حدث هبوط فى العمود مقداره ثلاثة سنتيمترات ثم زاد إلى ستة سنتيمترات ، فقامت مصلحة المبانى الأميرية وتفتيش رى الجيزة ولجنة حفظ الآثار العربية باتخاذ الاحتياطات اللازمة لإيقاف الهبوط عند هذا الحد تحت إشراف حضرة صاحب العزة كامل غالب بك وكيل وزارة الأشغال إذ ذاك .

فقام عزته بتطهير البئر تطهيراً تاماً حتى انكشفت قاعدة العمود . ثم قام بفك أحجار البئر بعد تنميرها حجراً حجراً لإمكان إعادتها إلى موقعها الأصلى بعد إتمام العمل .

و بعد أن أخلى حول مبانى البئر من الخارج ظهرت هناك أبنية بالطوب متقنة الصنع على شكل نصف دائرة وضعت فيها خوابير خشبية لتدعيمها ، كما ظهرت أحجار قديمة من متخلفات معابد منف وعين شمس ، ومن متخلفات الكنائس التى كانت بهذا المكان قبل إنشاء جامع المقياس فى عهد بدر الجمالى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر بالله . وكانت هذه الأحجار قد ألقيت خلف حوائط البئر لوقايتها وكذا تحت قاعدة العمود ، وذلك فى عهد إنشاء البئر وظلت فى مكانها إلى أن رفعها غالب بك ورتبها ترتيباً جميلا فى شبه متحف بسلاملك سراى المناسترلى الذى بنى فى عهد محمد على باشا مكان جامع المقياس المذكور سابقاً .

وتصل مياه النيل إلى البئر بواسطة ثلاثة مجارى . فالمجرى الأول مفتوح فى الناحية الجنوبية وقاعه باستواء أرضية البئر وعرضه ١٫١٠ متراً وارتفاعه ١٫٣٤ متراً . والمجريان الآخران فتحتهما فى الجهة الشرقية الأسفل تحت آخر درجة من السلم وعرضه ١٫٢٠ متراً والأعلى فوقه وعرضه متر واحد وله عقد مقبى . وهذا القبو مكرر فى الأوجه الأربعة للبئر ومكتوب عليه بالكوفى (ماشاء الله لا قوة إلا بالله) . ويعلو هذا القبو أربعة ألواح من الرخام الأبيض مثبتة فى حوائط البئر وعرضها ٣٠ سنتمتراً وطولها مختلف .



مقياس النيل بجزيرة الروضة .

فاللوح الشرقى طوله ٢٫١٥ متراً ومكتوب عليه بالكوفى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد » .

واللوح البحرى طوله ٢٫٥٠ متراً ومكتوب عليه بالكوفى :

« وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

واللوح الغربى طوله ٢٫٤٩ متراً ومكتوب عليه بالكوفى :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » .

واللوح القبلى طوله ١٫٩٨ متراً ومكتوب عليه بالكوفى :

« وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد » .

ومن ضمن ما وجد بحذاء الذراع الثامنة عشرة :

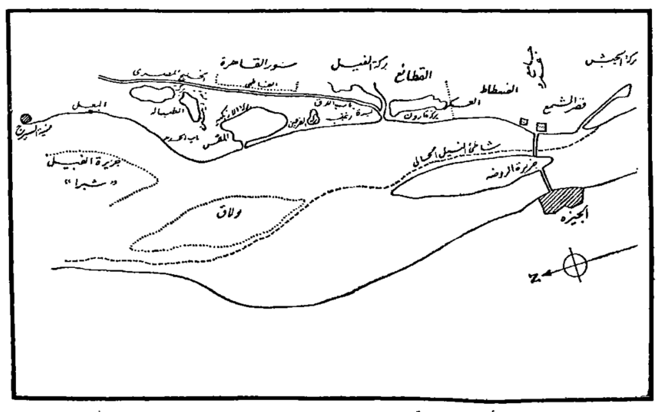
بسم الله الرحمن الرحيم . مقياس يُمن وسعادة ونعمة وسلامة . أمر ببنائه عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين طال بقاؤه ودام عزه وتأييده . على يد أحمد بن محمد الحاسب سنة ٢٤٧ .

وفى زمن بدر الجمالى وزير المستنصر الفاطمى ، أجريت إصلاحات بالمقياس ، وأزيل اسم الخليفة العباسى ، وكتب محله اسم الخليفة الفاطمى . وكان ذلك فى رجب سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) .

هذا هو مقياس النيل بالروضة ، ونأمل الآن أن تمنحه بلدية القاهرة المقبلة إن شاء الله ، ما يستحق من إظهار شخصيته كأثر له قيمته الفنية وجاذبيته العالمية ، بأن تنشىء حوله الحدائق والبساتين وتمد إليه الطرق والشوارع الممهدة اللائقة وتسهل إليه المواصلات .

وإذا قلنا إنه يحسن إنشاء كوبرى على النيل بين مصر القديمة ومنطقة مقياس النيل بدلا من المعدية الحالية ، فإننا نعتقد أننا نقول حقاً ونرجو إصلاحا . حقق الله الآمال .

هذه هى جزيرة الروضة وأهم معالمها القديمة والحديثة .



موقع جزيرة الروضة وشاطئ النيل الشرقى تجاه مدينة مصر والقاهرة وقت فتح العرب لمصر فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) . وترى فيها مواقع عواصم الإسلام الأولى . أما المعالم المبينة بالخطوط المنقطة فقد ظهرت فى عصور تالية لهذا العصر ووقعت هنا كنقط للتحديد فقط .

*

فهـــــرست

أهم الصور واللوحات الهندسية

صحيفة

*

فهـــــرست

الجزء الثانى من كتاب « القاهرة »